بسم الله الرحمن الرحيم

شرح

صحيح مسلم

كتاب الزهد والرقائق

بقلم

سليمان بن محمد اللهيميد

الموقع على النت – رياض المتقين

www.almotaqeen.bet

القناة العلمية على التلجرام

https://t.me/aloheemeed

كتاب الزهد والرقائق

مقدمة :

فائدة : ١

تعريفه :

قال ابن تيمية : الزهد ترك ما لا ينفع في الآخرة .

فائدة : ٢

فضائل الزهد في الدنيا:

أولاً: راحة للقلب والبدن.

قال الحسن: الزهد في الدنيا يريح القلب والبدن.

ثانياً: سبب لمحبة الله.

كما في الحديث (ازهد في الدنيا يحبك الله) رواه ابن ماجه.

وفي هذا الحديث يقول الإمام الغزالي-رحمه الله- فجعل الزهد سبباً للمحبة، فمن أحبه الله تعالى فهو في أعلى الدرجات، فينبغي أن يكون الزهد في الدنيا من أفضل المقامات، ومفهومه أيضاً أن محب الدنيا متعرض لبغض الله تعالى.

ثالثاً: أن الله زهدنا فيها.

فقال تعالى (وما الحياة الدنيا إلا متاع).

وقال سبحانه (قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلاً).

قال القرطبي: متاع الدنيا منفعتها والاستمتاع بلذاتها، وسماه قليلاً لأنه لا بقاء له.

رابعاً: سبب لهوان المصائب.

قال علي: من زهد في الدنيا هانت عليه المصيبات.

فائدة : ٣

وقد ذكر ابن القيم – رحمه الله – بعض الأسباب – التي تساعد في الزهد : فقال رحمه الله :

أحدها : علم العبد أنها ظلٌ زائل ، وخيالٌ زائر ، وأنها كما قال تعالى (اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً) .

ثانياً : علمه أن وراءها داراً أعظم منها قدراً وأجل خطراً وهي دار البقاء .

ثالثاً: معرفته أن زهده فيها لا يمنعه شيئاً كتب له منها، وأن حرصه عليها لا يجلب له ما لم يقض له منها.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ (الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الْكَافِرِ) .

==========

١-**قيل في معنى الحديث:** أَنَّ كُلّ مُؤْمِن مَسْجُون مَمْنُوع فِي الدُّنْيَا مِنْ الشَّهَوَات الْمُحَرَّمَة وَالْمَكْرُوهَة، مُكَلَّف بِفِعْلِ الطَّاعَات الشَّاقَّة، فَإِذَا مَاتَ اِسْتَرَاحَ مِنْ هَذَا، وَانْقَلَبَ إِلَى مَا أَعَدَّ اللَّه تَعَالَى لَهُ مِنْ النَّعِيم الدَّائِم، وَالرَّاحَة الْخَالِصَة مِنْ النُّقْصَان. وَأَمَّا الْكَافِر فَإِنَّمَا لَهُ مِنْ ذَلِكَ مَا حَصَّلَ فِي الدُّنْيَا مَعَ قِلَّته وَتَكْدِيره بِالْمُنَغِّصَاتِ، فَإِذَا مَاتَ صَارَ إِلَى الْعَذَاب الدَّائِم، وَشَقَاء الْأَبَد. ... (نووي).

وقال المناوي: لأنه ممنوع من شهواتها المحرمة فكأنه في سجن، والكافر عكسه فكأنه في جنة.

وقيل: كالسجن للمؤمن في جنب ما أعد له في الآخرة من الثواب والنعيم المقيم، وكالجنة للكافر في جنب ما أعد له في الآخرة من العقوبة والعذاب الأليم.

قال الزمخشري: أراد أنها للمؤمن كالسجن في جنب ما أعد له من المثوبة، وللكافر كالجنة في جنب ما أعد له من العقوبة. وقيل: إن المؤمن صرف نفسه عن الملاذ وأخذها بالشدائد، فكأنه في السجن، والكافر أمرحها في الشهوات، فهي له كالجنة.

وقال ابن القيم: (الدنيا سجن المؤمن) فيه تفسيران:

أحدهما: أن المؤمن قيد إيمانه عن المحظورات، والكافر مطلق التصرف.

والآخر: أن ذلك باعتبار العواقب، فالمؤمن لو كان أنعم الناس، فذلك بالإضافة إلى مآله في الجنة كالسجن، والكافر عكسه ، فإنه لما كان أشد الناس بؤساً، فذلك بالنسبة إلى النار جنته، فائدة المبالغة في المدح.

وحكى القرطبي عن سهل الصعلوكي الفقيه الخراساني، وكان ممن جمع رياسة الدين والدنيا: أنه كان في بعض مواكبه ذات يوم؛ إذ خرج عليه يهودي من إيوان حمام، وهو بثياب دنسة وصفة نجسة، فقال: أنتم تزعمون أن نبيكم قال: «الدنيا سجن المؤمن، وجنة الكافر»، وأنا عبد كافر وترى حالي، وأنت مؤمن وترى حالك؟! فقال له على الفور: إذا صرت غداً إلى عذاب الله كانت هذه الجنة لك، وإذا صرت أنا إلى النعيم ورضوان الله، صار هذا سجني، فعجب الخلق من فهمه وسرعة جوابه.

٢ – الدنيا مهما عظُم نعيمها وطابت أيامها، وزَهَت مساكنها، فإنها للمؤمن بمنزلة السجن؛ لأن المؤمن يتطلَّع إلى نعيمٍ أفضلَ وأكمل وأعلى، وأما بالنسبة للكافر، فإنها جنته؛ لأنه يُنعَّم فيها وينسى الآخرة.

٣ – المؤمن في أفعاله يسير وفق شرع الله لا يخرج عنه.

٤ – المؤمن يصبر على ما يلاقيه من أذى ومصائب وآلام في سبيل الله.

٥ – المؤمن يضع الخشية من الله دائماً نصب عينيه.

٦ – المؤمن لا يغتر بما يستدرج الله به الكافرين من كثرة الإنعام عليهم.

٧ – لا ينبغي للمؤمن أن يقضي شهواته بما حرم الله عليه بل يتمتع بالدنيا بما أحل الله له.

٨ – البون شاسع بين مصير المؤمنين في الجنة والكافرين في النار .

٩–هوان الدنيا على الله وحقارتها .

١٠–أن الفوز الحقيقي هو الفوز بالجنة .

١١–عدم الاغترار بالدنيا .

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَرَّ بِالسُّوقِ دَاخِلاً مِنْ بَعْضِ الْعَالِيَةِ وَالنَّاسُ كَنَفَتَهُ فَمَرَّ بِجَدْيٍ أَسَكَّ مَيِّتٍ فَتَنَاوَلَهُ فَأَخَذَ بِأُذُنِهِ ثُمَّ قَالَ « أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنَّ هَذَا لَهُ بِدِرْهَمٍ ». فَقَالُوا مَا نُحِبُّ أَنَّهُ لَنَا بِشَيْءٍ وَمَا نَصْنَعُ بِهِ قَالَ « أَتُحِبُّونَ أَنَّهُ لَكُمْ ». قَالُوا وَاللَّهِ لَوْ كَانَ حَيًّا كَانَ عَيْبًا فِيهِ لأَنَّهُ أَسَكُّ فَكَيْفَ وَهُوَ مَيِّتٌ، فَقَالَ : فَوَاللَّهِ لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ هَذَا عَلَيْكُمْ).

==========

(**كَنَفَتَيْهِ**) أيْ: عن جانبيه.

(**الأَسَكُّ**) الصغير الأذُن.

١–الحديثِ دليل على حَقارةِ الدُّنيا وهَوانِها على اللهِ سُبحانَه وتَعالَى.

قال القرطبي : ومعنى هوان الدنيا على الله: أن الله تعالى لم يجعلها مقصودة لنفسها؛ بل: جعلها طريقاً موصلة إلى ما هو المقصود لنفسه، وأنه لم يجعلها دار إقامة ولا جزاء، وإنَّما جعلها دار رحلة وبلاء، وأنه ملكها في الغالب الكفرة والجهال، وحماها الأنبياء والأولياء والأبدال. وقد أوضح النبي ﷺ هذا المعنى فقال: (لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء) وحسبك بها هواناً أن الله قد صغرها وحقرها، وذمها، وأبغضها وأبغض أهلها ومحبيها، ولم يرض لعاقل فيها إلا بالتزود منها، والتأهب للارتحال عنها، ويكفيك من ذلك ما رواه أبو عيسى الترمذي، عن النبي ﷺ أنه قال: (الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها، إلا ذكر الله وما والاه، أو عالم أو متعلم) .

٢-**قال ابن القيم**: وقد توعد سبحانه أعظم الوعيد لمن رضي بالحياة الدنيا وأطمأن بها وغفل عن آياته ولم يرج لقاءه.

فقال (إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا وَرَضُوا بِالْحَياةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ (٧) أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ).

وعير سبحانه من رضى بالدنيا من المؤمنين.

فقال (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ).

وعلى قدر رغبة العبد في الدنيا ورضاه بها يكون تثاقله عن طاعة الله وطلب الآخرة.

ويكفي بالزهد في الدنيا:

قوله تعالى (أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ. ثُمَّ جَاءهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ. مَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ).

وقوله (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ).

وقوله (كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلاَغٌ).

٣-وقال رحمه الله : لا تتمّ الرَّغْبَة فِي الْآخِرَة إِلَّا بالزهد فِي الدُّنْيَا وَلَا يَسْتَقِيم الزّهْد فِي الدُّنْيَا إِلَّا بعد نظرين صَحِيحَيْنِ :

نظر فِي الدُّنْيَا وَسُرْعَة زَوَالهَا وفنائها واضمحلالها ونقصها وخستها وألم الْمُزَاحمَة عَلَيْهَا والحرص عَلَيْهَا وَمَا فِي ذَلِك من الْغصَص والنغص والأنكاد وَآخر ذَلِك الزَّوَال والانقطاع مَعَ مَا يعقب من الْحَسْرَة والأسف فطالبها لَا يَنْفَكّ من هم قبل حُصُولهَا وهم حَال الظفر بهَا وغم وحزن بعد فَوَاتهَا فَهَذَا أحد النظرين .

النّظر الثَّانِي النّظر فِي الْآخِرَة وإقبالها ومجيئها وَلَا بُد ودوامها وبقائها وَشرف مَا فِيهَا من الْخَيرَات والمسرات والتفاوت الَّذِي بَينه وَبَين مَا هُنَا، فهي كَمَا قال الله سُبْحَانَهُ (وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأبقى) فَهِيَ خيرات كَامِلَة دائمة وَهَذِه خيالات نَاقِصَة مُنْقَطِعَة مضمحلة فَإِذا تمّ لَهُ هَذَانِ النظران آثر مَا يَقْتَضِي الْعقل إيثاره وزهد فِيمَا يَقْتَضِي الزّهْد فِيهِ .

٤- بَيانُ ما كان عليه النَّبيُّ ﷺ مِن تَحذيرِ أُمَّتِه مِن الاغترارِ بالدُّنيا؛ لأنَّها تُنسِي الآخرةَ الَّتي هي دارُ القرارِ.

٥- ضرب الأمثال للناس بما يعقلونه يقرب المراد ويوضح القصد، ويؤكد الفهم، ويوقفهم على حقائق الأشياء.

٦- ينبغي على أهل العلم والدعاة تذكير الناس بحقارة الدنيا، وحثهم على الزهد فيها وتحذيرهم من الركون إليها.

عَنْ مُطَرِّفٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ (أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ يَقْرَأُ (أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ) قَالَ « يَقُولُ ابْنُ آدَمَ مَالِي مَالِي – قَالَ – وَهَلْ لَكَ يَا ابْنَ آدَمَ مِنْ مَالِكَ إِلاَّ مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ) .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ (يَقُولُ الْعَبْدُ مَالِي مَالِي إِنَّمَا لَهُ مِنْ مَالِهِ ثَلاَثٌ مَا أَكَلَ فَأَفْنَى أَوْ لَبِسَ فَأَبْلَى أَوْ أَعْطَى فَاقْتَنَى وَمَا سِوَى ذَلِكَ فَهُوَ ذَاهِبٌ وَتَارِكُهُ لِلنَّاسِ) .

==========

(**يَقْرَأُ : أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ**) أي : شغلكم الإكثار من الدنيا، ومن الالتفات إليها عما هو الأَولى بكم من الاستعداد للآخرة .

(**قَالَ: يَقُولُ ابْنُ آدَمَ: مَالِي، مالي**) أراد النبيّ ﷺ بهذا تفسير هذه الآية الكريمة، فبيّن أن المراد بالتكاثر هو التكاثر في الأموال .

(**وَهَلْ لَكَ يَا ابْنَ آدَمَ مِنْ مَالِكَ إِلاَّ مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ، أَو لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ؟**) إنكار منه ﷺ على ابن آدم بأن ماله هو ما انتفع به في الدنيا بالأكل، أو اللبس، أو في الآخرة بالتصدّق .

(**إِلَّا مَا تَصَدَّقْت فَأَمْضَيْت**) أَيْ فَأَمْضَيْته وَأَبْقَيْته لِنَفْسِك يَوْمَ الْجَزَاءِ قَالَ تَعَالَى (مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ) وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ (مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ) .

وفي الرواية الثانية (يقُولُ الْعَبْدُ مَالِي مَالِي، إِنَّهَ لَهُ مِنْ مَالِهِ ثَلَاثٌ، مَا أَكَلَ فَأَفَنَى، أَوْ لَبِسَ فَأَبْلَى، أَوْ أَعْطَى فَاقْتَنَى، وَمَا سِوَى ذَلِك فَهُوَ ذَاهِبٌ، وَتَارِكُهُ لِلنَّاسِ) فقوله (أَوْ أَعْطَى فَاقْتَنَى) بِالتَّاءِ ، وَمَعْنَاهَا اِدَّخَرَهُ لِآخِرَتِهِ ، أَيْ اِدَّخَرَ ثَوَابه .

١–الحديث دليل على أن مال الإنسان حقيقة : هو ما قدمه من عمل صالح وصدقة.

قال ابن بطال: فيه التحريض على ما يمكن تقديمه من المال في وجوه البرّ والقرب لينتفع به في الآخرة، فإن كل ما يخلفه يصير ملكاً للوارث.

عن عائشة رضي الله عنها (أَنَّهُمْ ذَبَحُوا شَاةً، فَقَالَ النبيُّ ﷺ (مَا بَقِيَ مِنْهَا؟) قالت: مَا بَقِيَ مِنْهَا إِلاَّ كَتِفُها. قَالَ (بَقِيَ كُلُّهَا غَيْرُ كَتِفِهَا) رواه الترمذي.

ومعناه: تَصَدَّقُوا بِهَا إِلاَّ كَتِفَها. فَقَالَ: بَقِيَتْ لَنَا في الآخِرَةِ إِلاَّ كَتِفَهَا.

قال الحسن البصري: يؤتى بابن آدم يوم القيامة كأنه بَذَج فيقول الله، عَزَّ وجل له: أين ما جمعت؟ فيقول يا رب، جمعته وتركته أوفر ما كان، فيقول: فأين ما قدمت لنفسك؟ فلا يراه قدم شيئاً، وتلا هذه الآية: (وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ). بذج: هو ولد الضأن أي يؤتى به وهو في غاية الضعف والذل.

والناس رأوا بأم أعينهم من يملك الملايين، ومن يملك أموال لا يحصيها إلا رب العالمين، ومع ذلك ماتوا وراحوا.

مر سليمان بحراث – وكان مع سليمان جنوده وموكبه العظيم – فقال الحراث: لقد أوتي سليمان ملكاً عظيماً؟ فنزل سليمان إليه وقال: تسبيحة واحدة خير من ملك سليمان، لأن ملك سليمان يفنى والتسبيحة تبقى.

٢–هذه الأحاديث فيها خطر فتنة المال ، وأن المال من الفتن العظيمة للإنسان إذا لم يتق الله فيه .

فالمال فتنة عظيمة، لأنه يحمل صاحبه على الإعراض عن طريق الله تعالى، ويحمله أيضاً على الطغيان والبغي.

والمال – أيضاً – فتنة لأنه يشغل القلب ويلهي عن الطاعة وينسي الآخرة.

قال تعالى (كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى . أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ) .

وقال تعالى (وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ).

وقال تعالى (وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ) فهذا دأب الإنسان، يبدأ في الطغيان إذا رأى نفسه مستغنياً عن الناس.

وقال تعالى (وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ).

وقال تعالى (إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ).

قال الرازي: لأنها تشغل القلب بالدنيا، وتصير حجاباً عن خدمة المولى. (تفسير الرازي).

وفرعون لما أغناه الله وملّكه مصر قال (يا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ).

وقارون لما أنعم الله عليه قال (إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي).

وقال ﷺ (لكل أمة فتنة وفتنة أمتي بالمال) رواه الترمذي.

والأبرص والأقرع لما آتاهما الله مالاً جحدا نعم الله عليهما.

وقال ﷺ (لو كان لابن آدم واديان من ذهب لأحب أن يكون له ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب) متفق عليه.

وقال ﷺ (يهرم ابن آدم ويهرم معه اثنتان: الحرص على العمر، والحرص على المال). متفق عليه

وقال ﷺ (اثنتان يكرهما ابن آدم: يكره الموت والموت خير له من الفتن، ويكره قلة المال، وقلة المال أقل للحساب). رواه أحمد

وقال ﷺ (يأتي على الناس زمان لا يبالي المرء أخذ المال من حلال أو حرام) رواه البخاري.

٣-الحديث دليل على الترغيب في الإنفاق في سبيل الله.

٤ – وفيه التحريض على تقديم ما يمكن تقديمه من المال في وجوه القربة والبر لينتفع به في الآخرة.

٥ – العمل للآخرة.

٦ – مصداق لحديث (يتبع الميث ثلاثة: أهله وماله وعمله، فيرجع اثنان ويبقى واحد، يرجع أهله وماله ويبقى عمله).

٧ – الدنيا دار ابتلاء واختبار لا دار قرار.

عن أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ يَقُولُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (يَتْبَعُ الْمَيِّتَ ثَلاَثَةٌ فَيَرْجِعُ اثْنَانِ وَيَبْقَى وَاحِدٌ يَتْبَعُهُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَعَمَلُهُ فَيَرْجِعُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَيَبْقَى عَمَلُهُ) .

[خ : ٦٥١٤] .

==========

١ – الحديث دليل على أهمية العمل الصالح وأنه هو الذي يدخل مع الإنسان في قبره ويحاسب، وأن ماله وأهله لن ينفعوه إلا ما أنفقه في طاعة الله.

أولاً: فالعمل الصالح هو الذي يدخل معك في قبرك.

لحديث الباب.

ثانياً: وهو أنيسك وجليسك في القبر.

قال النبي ﷺ (إن العبد المؤمن إذا وضع في قبره يأتيه رجل حسن الوجه حسن الثياب طيب الريح، فيقول: أبشر برضوان من الله وجنات، أنا عملك الصالح، فوالله ما علمتك إلا كنت سريع في طاعة الله بطيء في معصية الله).

ثالثاً: وهو الحسب الحقيقي.

قال ﷺ (قال الله عز وجل: من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه).

وقال تعالى (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ).

ولذلك قال النبي ﷺ (يا فاطمة أنقذي نفسك من النار فإني لا أغني عنك من الله شيئاً).

رابعاً: وهو الذي يتمناه الإنسان عند الاحتضار.

قال تعالى (حَتَّى إِذَا جَاء أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ. لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا ...).

يتمنى إذا احتضر وجاءت سكرة الموت، وجاء الموت، يتمنى أن يرجع ويعمل الأعمال الصالحة.

وقال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ. وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ).

خامساً: وهو الذي يتمناه الكفار إذا دخلوا النار.

قال تعالى (وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ. وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا. رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءكُمُ النَّذِيرُ. فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ).

سادساً: العمل الصالح سبب لتفريج الكروب.

وقد تقدم حديث الثلاثة الذين انطبقت عليهم الغار، فتوسل كل واحد منهم بعمل صالح فانفرجت عنهم.

سابعاً: العمل الصالح هو الذي يبقى.

قال تعالى (الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً).

ثامناً: أنه سبب للحياة الطيبة.

قال تعالى (مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً).

تاسعاً: سبب للأمن والاستقرار والتمكين.

قال تعالى (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمْ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا) .

عن عَمْرَو بْنَ عَوْفٍ . (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعَثَ أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الْجَرَّاحِ إِلَى الْبَحْرَيْنِ يَأْتِي بِجِزْيَتِهَا وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هُوَ صَالَحَ أَهْلَ الْبَحْرَيْنِ وَأَمَّرَ عَلَيْهِمُ الْعَلاَءَ بْنَ الْحَضْرَمِيِّ فَقَدِمَ أَبُو عُبَيْدَةَ بِمَالٍ مِنَ الْبَحْرَيْنِ فَسَمِعَتِ الأَنْصَارُ بِقُدُومِ أَبِي عُبَيْدَةَ فَوَافَوْا صَلاَةَ الْفَجْرِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ انْصَرَفَ فَتَعَرَّضُوا لَهُ فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ رَآهُمْ ثُمَّ قَالَ «أَظُنُّكُمْ سَمِعْتُمْ أَنَّ أَبَا عُبَيْدَةَ قَدِمَ بِشَيْءٍ مِنَ الْبَحْرَيْنِ ». فَقَالُوا أَجَلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ «فَأَبْشِرُوا وَأَمِّلُوا مَا يَسُرُّكُمْ فَوَاللَّهِ مَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ. وَلَكِنِّي أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ الدُّنْيَا عَلَيْكُمْ كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ) .

[خ : ٦٤٢٥] .

عن عبد الله بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ (إِذَا فُتِحَتْ عَلَيْكُمْ فَارِسُ وَالرُّومُ أَيُّ قَوْمٍ أَنْتُمْ ؟ قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ نَقُولُ كَمَا أَمَرَنَا اللَّهُ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ؛ تَتَنَافَسُونَ ثُمَّ تَتَحَاسَدُونَ ثُمَّ تَتَدَابَرُونَ ثُمَّ تَتَبَاغَضُونَ أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ ثُمَّ تَنْطَلِقُونَ فِي مَسَاكِينِ الْمُهَاجِرِينَ فَتَجْعَلُونَ بَعْضَهُمْ عَلَى رِقَابِ بَعْضٍ) .

==========

(**عَمْرُو بْن عَوْفٍ**) الأنصاريّ حليف بني عامر بن لؤيّ .

(**أنَّ رسولَ الله ﷺ بَعَثَ أَبَا عبيدة بنَ الجَرَّاح**) هو: عامر بن عبد الله بن الجرّاح بن هلال القرشيّ الفهريّ الصحابيّ الشهير، أحد العشرة المبشّرين بالجنّة المتوفّى بطاعون عمواس سنة ثمان عشرة من الهجرة، وله ثمان وخمسون سنة .

(**إِلَى الْبَحْرَيْنِ**) البلد المشهور بالعراق، وهي بين البصرة وهَجَر .

(**يَأْتِي بِجِزْيَتِهَا**) الجزية بكسر الجيم، وسكون الزاي: ما يؤخذ من أهل الذمّة (يأتي بجزيتها) أي: بجزية أهلها، وكان غالب أهلها إذ ذاك المجوس .

(**فَسَمِعَتِ الأَنْصَارُ بِقُدُومِ أَبِي عُبَيْدَةَ**) بمال من البحرين .

(**فَوَافَوْا صَلاَةَ الفَجْرِ مَعَ رسولِ الله ﷺ**) أي: جاؤوا، فاجتمعوا عند صلاة الصبح معه؛ ليقسم بينهم ما جاء به أبو عبيدة؛ لأنَّهم أرهقتهم الحاجة، والفاقة التي كانوا عليها، لا الحرص على الدنيا، ولا الرغبة فيها .

(**فَتَنَافَسُوهَا**) التنافس من المنافسة وهي الرغبة في الشيء ومحبة الانفراد به والمغالبة عليه.

(**فَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ**) وفي الرواية الأخرى (وَتُلْهِيَكُمْ كَمَا أَلْهَتْهُم) لأن المال مرغوب فيه فترتاح النفس لطلبه فتمنع منه فتقع العداوة المقتضية للمقاتلة المفضية إلى الهلاك.

(**إِذَا فُتِحَتْ عَلَيْكُمْ فَارِسُ وَالرُّومُ أَيُّ قَوْمٍ أَنْتُمْ**) أي: أيّ شيء تصنعون، فهل، تقومون بأداء الشكر؟ .

قال القرطبيّ رحمه الله: هذا استفهام يشوبه إخبارٌ منه ﷺ عن أمر قبل وقوعه، وقع على نحو ما أخبر عنه، فكان ذلك من أدلة صحة نبوته ﷺ ورسالته، وكم له ﷺ منها وكم! ، معنى: "أيُّ قوم أنتم؟" أي: على أيّ حال تكونون؟ فكأنه قال: أتبقَون على ما أنتم عليه؟ أو تتغير بكم الحال؟

(**نَقُولُ كَمَا أَمَرَنَا اللَّهُ**) **قال النوويّ**: معناه: نحمده، ونشكره، ونسأله المزيد من فضله .

(**تَتَنَافَسُونَ**) **قال النوويّ**: قال العلماء: التنافس إلى الشيء: المسابقة إليه، وكراهة أخذ غيرك إياه، وهو أول درجات الحسد .

(**ثُمَّ تَتَحَاسَدُونَ**) الحسد : تمني زوال النعمة عن الغير .

(**ثُمَّ تَتَدَابَرُونَ**) التدابر التقاطع .

(**ثُمَّ تَنْطَلِقُونَ فِي مَسَاكِينِ الْمُهَاجِرِينَ فَتَجْعَلُونَ بَعْضَهُمْ عَلَى رِقَابِ بَعْضٍ**) يَعني: أنَّه إذا وَقَع التَّنافسُ والتَّحاسدُ والتَّباغضُ، حَمَلهم ذلك على أنْ يَأخُذَ القويُّ ما أفاءهُ اللهُ تعالَى على المسكينِ الَّذي لا يَقدِرُ على مُدافَعتِه، فيَمنَعُه عنه ظُلماً، وهذا بمُقْتضى التَّنافُسِ والتَّحاسدِ والتَّباغُضِ.

١ – الحديث دليل على خطر الدنيا وفتنتها وزهرتها ونضرتها.

قال بن بطال: فيه أن زهرة الدنيا ينبغي لمن فتحت عليه أن يحذر من سوء عاقبتها وشر فتنتها، فلا يطمئن إلى زخرفها ولا ينافس غيره فيها، ويستدل به على أن الفقر أفضل من الغنى لأن فتنة الدنيا مقرونة بالغنى والغنى مظنة الوقوع في الفتنة التي قد تجر إلى هلاك النفس غالباً والفقير آمن من ذلك.

قال الحافظ رحمه الله: فِيهِ أَنَّ الْمُنَافَسَة فِي الدُّنْيَا قَدْ تَجُرّ إِلَى هَلَاك الدِّين.

وقال ابن عثيمين رحمه الله: صدق الرسول ﷺ، هذا الذي أهلك الناس اليوم، الذي أهلك الناس اليوم التنافس في الدنيا وكونهم كأنهم إنما خلقوا لها لا أنها خلقت لهم، فاشتغلوا بما خلق لهم عما خلقوا له، وهذا من الانتكاس، نسأل الله العافية.

٢ – أنَّ المنافسة في الدُّنيا قد تَجُرُّ إلى هَلاكِ الدِّينِ.

قال القرطبي : ومعنى تلهيكم : تشغلكم عن أمور دينكم ، وعن الاستعداد لآخرتكم .

٣–قوله (**فَوَاللهِ مَا الفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ**) فيه ما يدل على أن الفقر أقرب للسلامة ، والاتساع في الدنيا أقرب للفتنة ، فنسأل الله الكفاف والعفاف . (المفهم)

٤–الحديث دليل على خطر فتنة المال .

٥–تهديد شديد لمن يمنع الزكاة الواجبة .

٦–فضل عظيم لمن رزق المال وأنفقه في وجوه الخير .

٧–أنَّ طَلَبَ العَطاءِ مِنَ الإمامِ لا غَضاضةَ فيه.

٨– البُشرى مِنَ الإمامِ لِأتباعِه، وتَوسيعُ أمَلِهم منه.

٩ – حسن خلق النبي ﷺ .

١٠ – فضل إدخال السرور والبشرى على الناس.

١١ – أن فتنة الغنى أعظم من فتنة الفقر.

١٢–ذم الحسد والمنافسة والتباغض .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (انْظُرُوا إِلَى مَنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلاَ تَنْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ فَهُوَ أَجْدَرُ أَنْ لاَ تَزْدَرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ) .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ (إِذَا نَظَرَ أَحَدُكُمْ إِلَى مَنْ فُضِّلَ عَلَيْهِ فِي الْمَالِ وَالْخَلْقِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى مَنْ هُوَ أَسْفَلَ مِنْهُ مِمَّنْ فُضِّلَ عَلَيْهِ) .

[خ : ٦٤٩٠] .

==========

(**انْظُرُوا إِلَى مَنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ**) أي : في أمور الدنيا .

(**فِي الْمَالِ وَالْخَلْقِ**) بفتح الخاء أي: الصورة.

١-الحديث دليل على أنه ينبغي للمسلم أن ينظر في أمور الدنيا – من مال وجاه – إلى من هو تحته، وأن لا ينظر إلى من فوقه .

وقد قال تعالى (وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى) .

قال المباركفوي : (أُنْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ أَسْفَلُ مِنْكُمْ) أَيْ فِي أُمُورِ الدُّنْيَا (وَلَا تَنْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ) فِيهَا (فَإِنَّهُ) أَيْ فَالنَّظَرُ إِلَى مَنْ هُوَ أَسْفَلُ لَا إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقُ (أَجْدَرُ) أَيْ أَحْرَى (أَنْ لَا تَزْدَرُوا) أَيْ بِأَنْ لَا تَحْتَقِرُوا، وَالِازْدِرَاءُ الِاحْتِقَارُ فَكَانَ أَصْلُهُ الِازْتِرَاءَ فَأُبْدِلَتْ التَّاءُ بِالدَّالِ (نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ).

فَإِنَّ الْمَرْءَ إِذَا نَظَرَ إِلَى مَنْ فُضِّلَ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا اِسْتَصْغَرَ مَا عِنْدَهُ مِنْ نِعَمِ اللَّهِ فَكَانَ سَبَبًا لِمَقْتِهِ، وَإِذَا نَظَرَ لِلدُّونِ شَكَرَ النِّعْمَةَ وَتَوَاضَعَ وَحَمِدَ. فَيَنْبَغِي لِلْعَبْدِ أَنْ لَا يَنْظُرَ إِلَى تَجَمُّلِ أَهْلِ الدُّنْيَا فَإِنَّهُ يُحَرِّكُ دَاعِيَةَ الرَّغْبَةِ فِيهَا وَمِصْدَاقُهُ: (وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْك إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا). ... (التحفة).

وقال القرطبي: أي: اعتبروا بمن فضلتم عليه في المال، والخلق، والعافية، فيظهر عليكم ما أنعم الله به عليكم فتشكرونه على ذلك، فتقومون بحق النعمة، وذلك بخلاف ما إذا نظر إلى ما فضل عليه غيره من ذلك؟ فإنَّه يضمحل عنده ما أنعم الله عليه به من النعم، ويحتقرها، فلا يحسبها نعماً، فينسى حق الله فيها، وربما حمله ذلك النظر إلى أن تمتد عينه إلى الدنيا فينافس أهلها، ويتقلع لحسرة فوتها، ويحسد أهلها، وذلك هو الهلاك في الدنيا والآخرة.

وقال النووي: قَالَ اِبْن جَرِير وَغَيْره: هَذَا حَدِيث جَامِع لِأَنْوَاعٍ مِنْ الْخَيْر؛ لِأَنَّ الْإِنْسَان إِذَا رَأَى مَنْ فُضِّلَ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا طَلَبَتْ نَفْسه مِثْل ذَلِكَ، وَاسْتَصْغَرَ مَا عِنْده مِنْ نِعْمَة اللَّه تَعَالَى، وَحَرَصَ عَلَى الِازْدِيَاد لِيَلْحَق بِذَلِكَ أَوْ يُقَارِبهُ. هَذَا هُوَ الْمَوْجُود فِي غَالِب النَّاس. وَأَمَّا إِذَا نَظَرَ فِي أُمُور الدُّنْيَا إِلَى مَنْ هُوَ دُونه فِيهَا ظَهَرَتْ لَهُ نِعْمَة اللَّه تَعَالَى عَلَيْهِ، فَشَكَرَهَا، وَتَوَاضَعَ، وَفَعَلَ فِيهِ الْخَيْر.

وقال السعدي: وقد أرشد ﷺ إلى هذا الدواء العجيب، والسبب القوي لشكر نعم الله، وهو أن يلحظ العبد في كل وقت من هو دونه في العقل والنسب والمال وأصناف النعم، فمتى استدام هذا النظر اضطره إلى كثرة شكر ربه والثناء عليه، فإنه لا يزال يرى خلقاً كثيراً دونه بدرجات في هذه الأوصاف، ويتمنى كثير منهم أن يصل إلى قريب مما أوتيه من عافية ومال ورزق، وخَلْق وخُلُق، فيحمد الله على ذلك حمداً كثيراً، ويقول: الحمد لله الذي أنعم علي وفضلني على كثير ممن خلق تفضيلاً.

ينظر إلى خلق كثير ممن سلبوا عقولهم، فيحمد ربه على كمال العقل، ويشاهد عالماً كثيراً ليس لهم قوت مدخر، ولا مساكن يأوون إليها، وهو مطمئن في مسكنه، موسع عليه رزقه.

ويرى خلقاً كثيراً قد ابتلوا بأنواع الأمراض، وأصناف الأسقام وهو معافى من ذلك، مسربل بالعافية. ويشاهد خلقاً كثيراً قد ابتلوا ببلاء أفظع من ذلك، بانحراف الدين، والوقوع في قاذورات المعاصي، والله قد حفظه منها أو من كثير منها.

ويتأمل أناساً كثيرين قد استولى عليهم الهم، وملكهم الحزن والوساوس، وضيق الصدر، ثم ينظر إلى عافيته من هذا الداء، ومنة الله عليه براحة القلب، حتى ربما كان فقيراً يفوق بهذه النعمة – نعمة القناعة وراحة القلب – كثيراً من الأغنياء.

ثم من ابتلي بشيء من هذه الأمور يجد عالماً كثيراً أعظم منه وأشد مصيبة، فيحمد الله على وجود العافية وعلى تخفيف البلاء، فإنه ما من مكروه إلا ويوجد مكروه أعظم منه.

فمن وفق للاهتداء بهذا الهدي الذي أرشد إليه النبي ﷺ لم يزل شكره في قوة ونمو، ولم تزل نعم الله عليه تترى وتتوالى.

ومن عكس القضية فارتفع نظره وصار ينظر إلى من هو فوقه في العافية والمال والرزق وتوابع ذلك، فإنه لا بد أن يزدري نعمة الله، ويفقد شكره، ومتى فقد الشكر ترحلت عنه النعم، وتسابقت إليه النقم، وامتحن بالغم الملازم، والحزن الدائم، والتسخط لما هو فيه من الخير، وعدم الرضى بالله رباً ومدبراً، وذلك ضرر في الدين والدنيا وخسران مبين. (شرح جوامع الأخبار)

وقال رحمه الله: ومن أنفع الأشياء في هذا الموضع (للحياة السعيدة) استعمال ما أرشد إليه النبي ﷺ في الحديث الصحيح حيث قال: (انظروا إلى من هو أسفل منكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم فإنه أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم) فإن العبد إذا نصب بين عينيه هذا الملحظ الجليل، رآه يفوق جمعاً كثيراً من الخلق في العافية وتوابعها، وفي الرزق وتوابعه مهما بلغت به الحال، فيزول قلقه وهمه وغمه، ويزداد سروره واغتباطه بنعم الله التي فاق فيها غيره ممن هو دونه فيها.

وكلما طال تأمل العبد بنعم الله الظاهرة والباطنة، الدينية والدنيوية، رأى ربه قد أعطاه خيراً ودفع عنه شروراً متعددة، ولا شك أن هذا يدفع الهموم والغموم، ويوجب الفرح والسرور. ... (الوسائل المفيدة)

٢-في العمل بهذا التوجيه النبوي – النظر في أمور الدنيا إلى من هو أقل منه – فوائد:

أولاً: القيام بشكر الله على نعمه وعدم احتقارها.

ثانياً: القناعة.

عن عون بن عبد الله قال: صحبت الأغنياء فلم يكن أحداً أطول غماً مني إن رأيت أحداً أحسن ثياباً مني وأطيب ريحاً مني فصحبت الفقراء فاسترحت.

٣ – الحديث دليل على وجوب شكر الله على نعمه.

٤-من أعظم أسباب تحقيق الشكر : تطبيق هذا التوجيه النبوي .

ومن الأسباب أيضاً : التضرع إلى الله بأن يوفقه لشكر نعمته.

قال تعالى عن سليمان (رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ).

وعلم النبي ﷺ معاذاً أن يقول (اللهم إني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك) .

ومن الأسباب : أن يعلم الإنسان أن الله سيسأله عن شكر نعمه هل قام بها أم كفر.

قال تعالى (ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ).

قال ابن كثير: أي ثم لتسألن يومئذٍ عن شكر ما أنعم الله به عليكم من الصحة والأمن والرزق وغير ذلك، ماذا قابلتم به نعمه من شكر وعبادة.

ومن الأسباب : أن يعلم العبد أن النعم إذا شكرت قرت وزادت، وإذا كفرت فرت.

قال تعالى: (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ).

٥-سبب النهي عن النظر إلى من هو فوقه في أمور الدنيا :

أ-أن ذلك يؤدي إلى احتقار نعمة الله عليه.

ب-وهو سبب في عدم شكر نعمة الله.

ج-ولأن في النظر للمترفين يؤدي إلى عدم القناعة.

٦ – الحذر من التسخط من نعم الله.

٧ – علو منزلة الشكر لله.

٨ – فضل مجالسة المساكين والفقراء، لأنها تؤدي إلى شكر الله.

قال ابن رجب : إن مجالسة المساكين توجب رضى من يجالسهم برزق الله عز وجل، وتعظم عنده نعمة الله، ومجالسة الأغنياء توجب التسخط بالرزق ومد العين إلى زينتهم وما هم فيه، وقد نهى الله عز وجل نبيه ﷺ عن ذلك فقال تعالى (وَلا تَمُدَّنَ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى) وقال ﷺ (انظروا إلى من دونكم ، ولا تنظروا إلى من فوقكم ، فإنه أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم).

عن أبي هريرة . قال : قال ﷺ (إِنَّ ثَلاَثَةً فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ أَبْرَصَ وَأَقْرَعَ وَأَعْمَى فَأَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَبْتَلِيَهُمْ فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ مَلَكًا، فَأَتَى الأَبْرَصَ فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: لَوْنٌ حَسَنٌ وَجِلْدٌ حَسَنٌ وَيَذْهَبُ عَنِّي الَّذِي قَدْ قَذِرَنِي النَّاسُ. قَالَ: فَمَسَحَهُ فَذَهَبَ عَنْهُ قَذَرُهُ وَأُعْطِيَ لَوْنًا حَسَنًا وَجِلْدًا حَسَنًا، قَالَ: فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الإِبِلُ – أَوْ قَالَ الْبَقَرُ شَكَّ إِسْحَاقُ – إِلاَّ أَنَّ الأَبْرَصَ أَوِ الأَقْرَعَ قَالَ أَحَدُهُمَا الإِبِلُ وَقَالَ الآخَرُ الْبَقَرُ – قَالَ: فَأُعْطِيَ نَاقَةً عُشَرَاءَ، فَقَالَ: بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِيهَا – قَالَ – فَأَتَى الأَقْرَعَ فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: شَعَرٌ حَسَنٌ وَيَذْهَبُ عَنِّي هَذَا الَّذِي قَذِرَنِي النَّاسُ. قَالَ: فَمَسَحَهُ فَذَهَبَ عَنْهُ وَأُعْطِيَ شَعَرًا حَسَنًا – قَالَ – فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الْبَقَرُ. فَأُعْطِيَ بَقَرَةً حَامِلاً، فَقَالَ: بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِيهَا – قَالَ – فَأَتَى الأَعْمَى فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: أَنْ يَرُدَّ اللَّهُ إِلَيَّ بَصَرِي فَأُبْصِرَ بِهِ النَّاسَ – قَالَ – فَمَسَحَهُ فَرَدَّ اللَّهُ إِلَيْهِ بَصَرَهُ. قَالَ: فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الْغَنَمُ. فَأُعْطِيَ شَاةً وَالِدًا، فَأُنْتِجَ هَذَانِ وَوَلَّدَ هَذَا – قَالَ – فَكَانَ لِهَذَا وَادٍ مِنَ الإِبِلِ، وَلِهَذَا وَادٍ مِنَ الْبَقَرِ، وَلِهَذَا وَادٍ مِنَ الْغَنَمِ. قَالَ ثُمَّ إِنَّهُ أَتَى الأَبْرَصَ فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ، فَقَالَ: رَجُلٌ مِسْكِينٌ قَدِ انْقَطَعَتْ بِيَ الْحِبَالُ فِي سَفَرِي فَلاَ بَلاَغَ لِيَ الْيَوْمَ إِلاَّ بِاللَّهِ ثُمَّ بِكَ، أَسْأَلُكَ بِالَّذِي أَعْطَاكَ اللَّوْنَ الْحَسَنَ وَالْجِلْدَ الْحَسَنَ وَالْمَالَ بَعِيرًا أَتَبَلَّغُ عَلَيْهِ فِي سَفَرِي. فَقَالَ الْحُقُوقُ كَثِيرَةٌ. فَقَالَ لَهُ كَأَنِّي أَعْرِفُكَ أَلَمْ تَكُنْ أَبْرَصَ يَقْذَرُكَ النَّاسُ فَقِيرًا فَأَعْطَاكَ اللَّهُ؟ فَقَالَ: إِنَّمَا وَرِثْتُ هَذَا الْمَالَ كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ. فَقَالَ إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فَصَيَّرَكَ اللَّهُ إِلَى مَا كُنْتَ. قَالَ: وَأَتَى الأَقْرَعَ فِي صُورَتِهِ فَقَالَ: لَهُ مِثْلَ مَا قَالَ لِهَذَا وَرَدَّ عَلَيْهِ مِثْلَ مَا رَدَّ عَلَى هَذَا، فَقَالَ: إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فَصَيَّرَكَ اللَّهُ إِلَى مَا كُنْتَ. قَالَ: وَأَتَى الأَعْمَى فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ فَقَالَ: رَجُلٌ مِسْكِينٌ وَابْنُ سَبِيلٍ انْقَطَعَتْ بِيَ الْحِبَالُ فِي سَفَرِي فَلاَ بَلاَغَ لِيَ الْيَوْمَ إِلاَّ بِاللَّهِ ثُمَّ بِكَ أَسْأَلُكَ بِالَّذِي رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ شَاةً أَتَبَلَّغُ بِهَا فِي سَفَرِي فَقَالَ: قَدْ كُنْتُ أَعْمَى فَرَدَّ اللَّهُ إِلَيَّ بَصَرِى فَخُذْ مَا شِئْتَ وَدَعْ مَا شِئْتَ فَوَاللَّهِ لاَ أَجْهَدُكَ الْيَوْمَ شَيْئًا أَخَذْتَهُ لِلَّهِ فَقَالَ: أَمْسِكْ مَالَكَ فَإِنَّمَا ابْتُلِيتُمْ فَقَدْ رُضِيَ عَنْكَ وَسُخِطَ عَلَى صَاحِبَيْكَ).

==========

١ – هذا الحديث عظيم وفيه معتبر: فإن الأَوَلَين جحدا نعمة الله، فما أقرا لله بنعمه ولا نسبا النعمة إلى المنعم بها، ولا أديا حق الله فيهما بنعمه فحل عليهما السخط، وأما الأعمى فاعترف بنعم الله ونسبها إلى من أنعم عليه بها، وأدى حق الله فيها، فاستحق الرضا من الله.

٢ – أن شكر النعمة يكون بثلاثة أمور وهي:

- الإقرار بالنعمة، قال تعالى (وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ).
- ونسبتها إلى المنعم، قال تعالى (وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ).
- وبذلها فيما يجب، قال تعالى (اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْراً).

٣ – بيان أن زعْم الإنسان استحقاقه النعم المسداة إليه بعد ضراء أصابته منافٍ لكمال التوحيد.

٤ – أن من كمال التوحيد نسبة النعمة إلى الله، قال تعالى (وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ).

٥ – أن الرسول ﷺ يقص علينا أنباء بني إسرائيل لأجل الاعتبار والاتعاظ.

٦ – إثبات معجزة النبي ﷺ .

٧ – أن الدنيا دار ابتلاء وامتحان، كما قال تعالى (إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً).

٨ – أن الابتلاء يكون بالنفس والمال والولد.

٩ – أن المال فتنة لأكثر الناس.

١٠ – فيه مصداق لقوله تعالى (كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى. أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ).

١١ – أن الأكثر من الناس لا يشكر، كما قال تعالى (وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُور) وقال تعالى (وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ).

١٢ – نسبة النعمة إلى غير الله كفرٌ بها.

١٣ – أن نسبة النعمة لغير الله سبب لزوالها.

١٤ – أن شكر النعم سبب لبقائها وزيادتها، كما قال تعالى (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ).

١٥ – أن الابتلاء يكون بالخير والشر، كما قال تعالى (وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ)

١٦ – فيه مصداق لقول عبد الرحمن بن عوف (ابتلينا بالضراء فصبرنا، وابتلينا بالسراء فلم نصبر) رواه الترمذي.

١٧ – بيان قدرة الله بإبراء الأبرص والأقرع والأعمى.

١٨ – قدرة الملائكة على التشكل بصورة البشر.

١٩ – أن الملائكة أجسام وليسوا أرواح أو معاني.

عن سعد قال : قال ﷺ (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْعَبْدَ التَّقِيَّ الْغَنِيَ الْخَفِيّ) .

=========

١–الحديث دليل على فضل التقوى ، وأن الله يحب العبد التقي : الذي يفعل المأمورات ويتقي المحظورات .

ففيه فضل التقوى ، وأنها سبب لمحبة الله . قال تعالى (إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ).

فضائل التقوى:

أولاً: أنها سبب لتيسير الأمور.

قال تعالى (وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً).

ثانياً: أنها سبب لإكرام الله.

قال تعالى (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ).

ثالثاً: العاقبة لأهل التقوى.

قال تعالى (وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ).

رابعاً: أنها سبب في دخول الجنة.

قال تعالى (وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ).

وقال تعالى (وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ).

خامساً: أنها سبب لتكفير السيئات.

قال تعالى (وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْراً).

سادساً: أنها سبب لحصول البشرى لهم.

قال تعالى (الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَياةِ الدُّنْيَا).

سابعاً: أنها سبب للفوز والهداية.

قال تعالى (وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ).

ثامناً: أنها سبب للنجاة يوم القيامة.

قال تعالى (ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيّاً).

تاسعاً: أنها سبب لتفتيح البركات من السماء والأرض.

قال تعالى (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ).

عاشراً: أنها سبب للخروج من المأزق.

قال تعالى (وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ).

الحادي عشر: أنها سبب لمحبة الله.

قال تعالى (إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ).

الثاني عشر: أنها سبب للاهتداء بالقرآن.

قال تعالى (ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ).

الثالث عشر: بالتقوى تنال معية الله.

قال تعالى (وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ).

الرابع عشر: أنها خير زاد.

قال تعالى (وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى).

الخامس عشر: أنها من أسباب نيل الأجر العظيم.

قال تعالى (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ).

السادس عشر: أن الآخرة خير من الدنيا للمتقين.

قال تعالى (والْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً).

السابع عشر: أنها سبب لقبول الأعمال.

قال تعالى (قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ).

الثامن عشر: أن لباس التقوى خير لباس.

قال تعالى (وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ).

التاسع عشر: أنها من أسباب الرحمة.

قال تعالى (وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآياتِنَا يُؤْمِنُونَ).

العشرون: أنها من أسباب ولاية الله.

قال تعالى (أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ. الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ).

وقال تعالى (وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ).

قال الحسن: ما زالت التقوى بالمتقين حتى تركوا كثيراً من الحلال مخافة الحرام.

وقال الثوري: إنما سموا متقين، لأنهم اتقوا ما لا يُتقى.

مراتب التقوى :

قال ابن القيم: التقوى ثلاث مراتب:

إحداها: حميّة القلب والجوارح عن الآثام والمحرمات، والثانية: حميّتها عن المكروهات، والثالثة: الحمية عن الفضول وما لا يعني.

فالأولى تعطي العبد حياته، والثانية تفيده صحته وقوته، والثالثة تكسبه سروره وفرحه وبهجته.

٢-الحديث دليل على فضل الغنى وأن الله يحب الغني .

واختلف في المراد بالغني :

قيل : غنى المال .

وقيل : المراد غنى النفس ، وهو الصحيح .

قال النوويّ -رحمه الله-: المراد بالغنى: غنى النفس، هذا هو الغنى المحبوب .

لقوله ﷺ (ولكن الغني غنى النفس) .

ففِي الْحَدِيثِ بَيَانُ أَنَّ الْغِنَى: هُوَ غِنَى النَّفْسِ، وَهُوَ الْغِنَى الْمَحْبُوبُ عِنْدَ اللهِ .

فَفِي الصَّحِيحَيْنِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ، وَلَكِنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ) .

فمعنى الحديث: أنّ الغنى الحقيقي ليس عن كثرة متاع الدنيا، لأنّ كثيراً ممن وسع الله عليه في المال، يكون فقير النفس لا يقنع بما أُعطي، فهو يجتهد دائباً في الزيادة، ولا يبالي من أين يأتيه، فكأنه فقير من المال؛ لشدة شرهه وحرصه على الجمع.

وأنّ حقيقة الغنى: غنى النفس، الذي استغنى صاحبه بالقليل، وقنع به، ولم يحرص على الزيادة فيه، ولا ألح في الطلب، فكأنه غني واجد أبداً.

وغنى النفس هو باب الرضا بقضاء الله تعالى والتسليم لأمره ، علم أن ما عند الله خير للأبرار، وفى قضائه لأوليائه الأخيار.

وَهَذَا هُوَ حَقِيقَةُ الْغِنَى؛ الَّذِي هُوَ غِنًى عَنِ النَّاسِ، وَافْتِقَارٌ وَاسْتِغْنَاءٌ بِخَالِقِهِمْ، وَعَدَمُ الِالْتِفَاتِ إِلَى غَيْرِهِ، وَلَوْ لَمْ يَمْلِكِ الْعَبْدُ مِنَ الدُّنْيَا شَيْئًا.

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لأَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ (يَا أَبَا هُرَيْرَةَ! كُنْ وَرِعًا تَكُنْ مِنْ أَعْبَدِ النَّاسِ، وَارْضَ بِمَا قَسَمَ اللهُ لَكَ تَكُنْ مِنْ أَغْنَى النَّاسِ) .

فالغنى المحمود غنى النفس، وشبعها، وقلةُ حرصها؛ لا كثرة المال مع الحرص على الزيادة؛ لأنّ من كان طالباً للزيادة، لم يستغن بما معه؛ فليس له غنى.

وقد قال ﷺ (يا أبا ذرٍّ! أترى كثرةَ المالِ هو الغِنى؟ قلتُ: نعم يا رسولَ اللهِ! قال: فترى قِلَّةَ المالِ هو الفقرُ؟ قلتُ: نعم يا رسولَ اللهِ! قال: إنما الغِنى غِنى القلبِ، والفقرُ فقرُ القلبِ) .

وقد كان ﷺ يقول (اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى) .

وفي هذا فضل القناعة والاستعفاف عن الناس.

وقد قال ﷺ (قد أفلح من أسلم، ورزق كفافاً وقنعه الله بما آتاه).

وعن فضالة بن عبَيد. قال: قال رسول الله ﷺ (طوبى لمن هديَ للإسلام، وكان عيشه كفافاً وقنع) رواه الترمذي.

وقال تعالى (مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً).

فَسَّر الحياةَ الطيبة عليٌّ وابن عباس والحسن ﷺ فقالوا: الحياة الطيبة هي القناعة.

وفي هذا المعنى قال ابن الجوزي: من قنع طاب عيشه، ومن طمع طال طيشه.

وقال أحد الحكماء: أنت أخو العز ما التحفت بالقناعة.

وقال بعض الحكماء: وجدت أطول الناس غماً الحسود، وأهنأهم عيشاً القنوع.

وكلما كملت عبودية المسلم كلما استغنى عن الناس .

٣-قوله (**الْخَفِيّ**) .

قال ابن الأثير -رحمه الله-: الخفيّ هو المعتزل عن الناس، الذي يُخفي عليهم مكانه.

وقال النوويّ -رحمه الله-: وأما الخفي فبالخاء المعجمة ، الخامل المنقطع إلى العبادة، والاشتغال بأمور نفسه .

وقال ابن الجوزي رحمه الله : الإشارة بالخفي إلى خمول الذكر ، والغالب على الخامل السلامة " .

وقال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله : الخفي : هو الذي لا يظهر نفسه ، ولا يهتم أن يظهر عند الناس أو يشار إليه بالبنان أو يتحدث الناس عنه ، تجده من بيته إلى المسجد ، ومن مسجده إلى بيته ، ومن بيته إلى أقاربه وإخوانه ، يخفي نفسه .

ففي هذا : فضل الخمول، وعدم الظهور بين الناس، ولا سيّما في أيام الفتنة.

فطلب الشهرة مذموم بكل حال، والمؤمن محبت متواضع، لا يحب أن يشار إليه بالأصابع، ومن أعظم ما يفسد على المرء سعيه إلى ربه: حبه للشهرة، والشرف في الناس، والرئاسة عليهم .

روى الترمذي عن كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (مَا ذِئْبَانِ جَائِعَانِ أُرْسِلَا فِي غَنَمٍ بِأَفْسَدَ لَهَا مِنْ حِرْصِ الْمَرْءِ عَلَى الْمَالِ وَالشَّرَفِ لِدِينِهِ) .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : فَبَيَّنَ ﷺ أَنَّ الْحِرْصَ عَلَى الْمَالِ وَالشَّرَفِ فِي فَسَادِ الدِّينِ لَا يَنْقُصُ عَنْ فَسَادِ الذِّئْبَيْنِ الْجَائِعَيْنِ لِزَرِيبَةِ الْغَنَمِ وَذَلِكَ بَيِّنٌ ؛ فَإِنَّ الدِّينَ السَّلِيمَ لَا يَكُونُ فِيهِ هَذَا الْحِرْصُ وَذَلِكَ أَنَّ الْقَلْبَ إذَا ذَاقَ حَلَاوَةَ عُبُودِيَّتِهِ لِلَّهِ وَمَحَبَّتِهِ لَهُ لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ أَحَبَّ إلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ حَتَّى يُقَدِّمَهُ عَلَيْهِ وَبِذَلِكَ يُصْرَفُ عَنْ أَهْلِ الْإِخْلَاصِ لِلَّهِ السُّوءُ وَالْفَحْشَاءُ . (الفتاوى)

وهذه المحبة للشرف والشهرة هي من الأمراض الخفية في النفوس، ومهلكات القلب التي لا يكاد يتفطن إليها العبد إلا بعد أن تمضي به شوطاً بعيداً ، يشق عليه استدراكه ، وإصلاح ما أفسدته منه .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : كَثِيرًا مَا يُخَالِطُ النُّفُوسَ مِنْ الشَّهَوَاتِ الْخَفِيَّةِ مَا يُفْسِدُ عَلَيْهَا تَحْقِيقَ مَحَبَّتِهَا لِلَّهِ وَعُبُودِيَّتِهَا لَهُ وَإِخْلَاصِ دِينِهَا لَهُ كَمَا قَالَ شَدَّادُ بْنُ أَوْسٍ : يَا بَقَايَا الْعَرَبِ إنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ الرِّيَاءُ وَالشَّهْوَةُ الْخَفِيَّةُ ، قِيلَ لِأَبِي دَاوُد السجستاني : وَمَا الشَّهْوَةُ الْخَفِيَّةُ ؟ قَالَ : حُبُّ الرِّئَاسَةِ . (مجموع الفتاوى)

قال إبراهيم بن أدهم : ما صدق الله عبد أحب الشهرة .

قال إبراهيم النخعي والحسن البصري : "كفى فتنة للمرء أن يشار إليه بالأصابع في دين أو دنيا إلا من عصمه الله .

وقال ابن الجوزي رحمه الله : والغالب على الخامل السلامة .

قال الإمام الغزالي رحمه الله: اعلم- أصلحك الله- أن أصل الجاه هو انتشار الصيت والاشتهار، وهو مذموم، إلا من شهره الله تعالى لنشر دينه من غير تكلُّف طلب الشهرة منه، فالمذموم طلب الشهرة، فأما وجودها من جهة الله سبحانه من غير تكلُّف من العبد فليس بمذموم.

وقال بشر بن الحارث الحافي: ما أعلم أحدًا أحبَّ أن يُعرَف إلا ذهب دينُه وافتُضِح.

وقال هبة الله بن سعد بن طاهر الطبري رحمه الله: الشهرة آفة وكُلٌّ يتحرَّاها، والخمول راحة وكُلٌّ يتوقَّاها.

وقال أيوب السختياني رحمه الله: والله ما صدق اللهَ عبدٌ إلا سرَّه ألا يشعر بمكانه.

وقال بشر بن الحارث رحمه الله: ما اتقى اللهَ مَنْ أحبَّ الشهرة، لا تعمل لتُذكَر.

وقال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله: طوبى لمن أخمل اللهُ ذِكره .

وقال ابن المبارك: قال لي سفيان- رحمهما الله-: إياك والشهرة، فما أتيت أحدًا إلا وقد نهى عن الشهرة.

وقال أبو حازم المدني رحمه الله: اكتم حسناتك كما تكتم سيئاتك.

وقال رجل لبشر بن الحارث: أوصني، فقال: أخمل ذكرك، وطيِّب مَطْعَمَك.

٤-ستدل بحديث الباب من قال بفضل العزلة على الاختلاط بالناس، وقد اختلف العلماء في هذه المسألة:

القول الأول: العزلة أفضل واستدلوا:

أ-بحديث الباب.

ب-وبحديث أبي سعيد قال (قيل: يا رسول الله! أي الناس أفضل؟ فقال: مؤمن يجاهد في سبيل الله بنفسه وماله، قالوا: ثم من؟ قال: مؤمن في شعبٍ من الشعاب يتقي الله ويدعُ الناس من شره) متفق عليه.

القول الثاني: الخلطة أفضل إذا أمن على دينه.

ونسبه الحافظ ابن حجر للجمهور.

لحديث ابن عمر. قال: قال ﷺ (المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من المسلم الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم) رواه ابن ماجه.

قال السندي: الْحَدِيث يَدُلّ عَلَى أَنَّ الْمُخَالِطَ الصَّابِرَ خَيْرٌ مِنْ الْمُعْتَزِل . ا.هـ

وقال الصنعاني: فيه أفضلية من يخالط الناس مخالطة يأمرهم فيها بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحسن معاملتهم فإنه أفضل من الذي يعتزلهم ولا يصبر على المخالطة.

ولأن ذلك هو فعل الأنبياء . صلوات الله وسلامه عليهم . ومن بعدهم من الصحابة والتابعين، ومن بعدهم من علماء المسلمين وأخيارهم.

قال الحافظ ابن حجر: قال الجمهور الاختلاط أولى لما فيه من اكتساب الفوائد الدينية للقيام بشعائر الإسلام وتكثير سواد المسلمين وإيصال أنواع الخير إليهم من إعانة وإغاثة وعيادة وغير ذلك.

وقال النووي: مذهب الشافعي وأكثر العلماء أن الاختلاط أفضل بشرط رجاء السلامة من الفتن، وأجابوا عن هذا الحديث (مؤمن في شعبٍ من الشعاب يتقي الله ويدعُ الناس من شره) بأنه محمول على الاعتزال في زمن الفتن والحروب، أو هو فيمن لا يسلم الناس منه .

وهذا هو الراجح.

قال النووي : المختار تفضيل المخالطة لمن لا يغلب على ظنه أنه يقع في معصية فان أشكل الأمر فالعزلة أولى.

قال الحافظ: وهذا حيث لا يكون هناك فتنة عامة، فان وقعت الفتنة ترجحت العزلة، لما ينشأ فيها غالباً من الوقوع في المحذور، وقد تقع العقوبة بأصحاب الفتنة فتعم من ليس من أهلها، كما قال تعالى (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) ويؤيد التفصيل المذكور حديث أبي سعيد أيضاً (خير الناس رجل جاهد بنفسه وماله ورجل في شعب من الشعاب يعبد ربه ويدع الناس من شره). ... (الفتح)

٥-فضل العزلة إذا خاف الإنسان على دينه.

قال ابن رجب: فإن من خالط الفتن وأهل القتال على الملك، لم يسلم دينه من الإثم، إما بقتل معصوم، أو أخذ مال معصوم، أو المساعدة على ذلك، ونحوه، وكذلك لو غلب على الناس من يدعوهم إلى الدخول في كفر أو معصية حسُنَ الفرار منه.

وقال الخطابي: لو لم يكن في العزلة إلا السلامة من الغيبة ومن رؤية المنكر الذي لا يقدر على إزالته لكان ذلك خيراً كثيراً.

وتقدم حديث أبي سعيد (قيل: يا رسول الله! أي الناس أفضل؟ فقال: مؤمن يجاهد في سبيل الله بنفسه وماله، قالوا: ثم من؟ قال: مؤمن في شعبٍ من الشعاب يتقي الله ويدعُ الناس من شره) متفق عليه.

قال الحافظ ابن حجر في حديث أبي سعيد: وَالْخَبَر دَالّ عَلَى فَضِيلَة الْعُزْلَة لِمَنْ خَافَ عَلَى دِينه. (الفتح)

وقال السندي: فِيهِ أَنَّهُ يَجُوز الْعُزْلَة بَلْ هِيَ أَفْضلُ أَيَّام الْفِتَن . ا.هـ

وقال الحافظ: والخبر دال على فضيلة العزلة لمن خاف على دينه .

عن سَعْد بْن أَبِي وَقَّاص قال (وَاللَّهِ إِنِّي لأَوَّلُ رَجُلٍ مِنَ الْعَرَبِ رَمَى بِسَهْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَقَدْ كُنَّا نَغْزُو مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا لَنَا طَعَامٌ نَأْكُلُهُ إِلاَّ وَرَقُ الْحُبْلَةِ وَهَذَا السَّمُرُ حَتَّى إِنَّ أَحَدَنَا لَيَضَعُ كَمَا تَضَعُ الشَّاةُ ثُمَّ أَصْبَحَتْ بَنُو أَسَدٍ تُعَزِّرُنِي عَلَى الدِّينِ لَقَدْ خِبْتُ إِذًا وَضَلَّ عَمَلِي) .

==========

(**إِلَّا وَرَقُ الْحُبْلَةِ وَهَذَا السَّمُرُ**) (الْحُبْلَة) بِضَمّ الْحَاء الْمُهْمَلَة وَإِسْكَان الْمُوَحَّدَة . وَ(السَّمُر) بِفَتْحِ السِّين وَضَمّ الْمِيم وَهُمَا نَوْعَانِ مِنْ شَجَر الْبَادِيَة، كَذَا قَالَهُ أَبُو عُبَيْد وَآخَرُونَ، وَقِيلَ: الْحُبْلَة ثَمَر الْعِضَاة، وَهَذَا يَظْهَر عَلَى رِوَايَة الْبُخَارِيّ: إِلَّا الْحُبْلَة وَوَرَق السَّمُر). (نووي)

(**حَتَّى إِنَّ أَحَدَنَا لَيَضَعُ**) بالضاد المعجمة كناية عن الذي يخرج منه في حال التغوّط .

(**كَمَا تَضَعُ الشَّاةُ**) زاد بيان في روايته (والبعير) يعني: أنهم يضعون عند قضاء الحاجة؛ أي: يخرج منهم مثل البعر؛ لِيُبْسه، وعدم الغذاء المألوف. زاد في رواية للبخاريّ (ما له خِلْط) بكسر الخاء المعجمة، وسكون اللام؛ أي: يصير بَعْراً، لا يختلط بعضه ببعض من شدّة جفافه، وتفتّته .

(**ثُمَّ أَصْبَحَتْ بَنُو أَسَدٍ تُعَزِّرُنِي**) التَّعْزِير التَّوْقِيف عَلَى الْأَحْكَام وَالْفَرَائِض . وَقَالَ اِبْن جَرِير: مَعْنَاهُ تُقَوِّمنِي وَتُعَلِّمنِي، وَمِنْهُ تَعْزِير السُّلْطَان، وَهُوَ تَقْوِيمه بِالتَّأْدِيبِ . وَقَالَ الْجَرْمِيّ مَعْنَاهُ اللَّوْم وَالْعُتْب، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ تُوَبِّخنِي عَلَى التَّقْصِير فِيهِ .

(**عَلَى الدِّينِ**) وفي رواية البخاريّ (على الإسلام) أي: على الصلاة؛ لأنها عماد الإسلام، أو على عمدة شرائعه، والمراد: أنهم كانوا يؤدبوني، ويعلموني الصلاة، ويعيّروني بأني لا أحسنها .

(**لَقَدْ خِبْتُ**) أي : خسرت .

(**إِذًا**) أي : إذا لم أحسن الصلاة .

(**وَضَلَّ عَمَلِي**) أي: جميع طاعاتي، ومجاهداتي، ومسابقتي في الإسلام، وصِدق قدمي في الدِّين ، وفي رواية البخاريّ (خِبتُ إذاً، وضلَّ سعيي) .

١-الحديث دليل على زهد الصحابة فِي الدُّنْيَا ، وَالتَّقَلُّل مِنْهَا خاصة في أول الإسلام .

٢-الصَّبْر فِي طَاعَة الله تَعَالَى عَلَى الْمَشَاقّ الشَّدِيدَة .

٣- حب الصحابة للنبي ﷺ وتضحيتهم .

٤- حقارة الدنيا عندهم ورغبتهم بالدار الآخرة .

٥-فضل ومنقبة لسعد بن أبي وقاص :

أ-لسبقه في الإسلام .

ب- وهو أول من رمى بسهم في سبيل الله .

وقد جاء عند ابن سعد في "الطبقات" عن سعد: أن ذلك كان في السرية التي خرج فيها مع عُبيدة بن الحارث في ستين راكبًا، وهي أول السرايا بعد الهجرة، قاله في "الفتح" .

وقال في "العمدة": كان ذلك في سرية عُبيدة بن الحارث بن عبد المطلب، وكان القتال فيها أول حرب وقعت بين المشركين والمسلمين، وكانت هي أول سرية بعثها رسول الله ﷺ في السنة الأولى من الهجرة، بعث ناساً من المسلمين إلى رابغ؛ ليلقَوا عِيراً لقريش، فتراموا بالسهام، ولم يكن بينهم مسايفة؛ أي: مضاربة ومحاربة، وكان سعد أول من رمى، وكانوا ستين راكباً من المهاجرين، وفيهم سعد، وعقد له اللواء، وهو أول لواء عقده رسول الله ﷺ، فالتقى عُبيدة وأبو سفيان الأمويّ، وكان هو على المشركين، وهذا أول قتال جرى في الإسلام، وأول من رمى إليهم هو سعد .

٦-الحديث دليل علىَ جَوَاز مَدْح الْإِنْسَان نَفْسه عِنْد الْحَاجَة، فإن سعداً ﷺ إنما ذكر هذا لكون أهل الكَوفة اتّهموه حتى رموه بأنه لا يُحسن يصلي، فأراد دفع التهم عن نفسه بأنه أول من اعتنق هذا الإسلام، وأخذ تعاليمه من النَّبيّ ﷺ قبل كثير من الناس، وصلّى معه السنين العديدة، فكيف يتهمه أعراب أهل الكوفة الذين ما دخلوا الإسلام إلا على يديه؟ .

قال النووي: قال الله تعالى: (فَلا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ) اعلم أن ذكرَ محاسن نفسه ضربان: مذموم؛ ومحبوب، فالمذمومُ أن يذكرَه للافتخار وإظهار الارتفاع والتميّز على الأقران وشبه ذلك، والمحبوبُ أن يكونَ فيه مصلحة دينية، وذلك بأن يكون آمراً بمعروف، أو ناهياً عن منكر، أو ناصحاً أو مشيراً بمصلحة، أو معلماً، أو مؤدباً، أو واعظاً، أو مذكّراً، أو مُصلحاً بين اثنين، أو يَدفعُ عن نفسه شرّاً، أو نحو ذلك، فيذكر محاسنَه ناوياً بذلك أن يكون هذا أقربَ إلى قَبول قوله واعتماد ما يذكُره، أو أن هذا الكلام الذي أقوله لا تجدونه عند غيري فاحتفظوا به، أو نحو ذلك، وقد جاء في هذا المعنى ما لا يحصى من النصوص.

كقول النبيّ ﷺ (أنا النَّبِي لا كَذِبْ)، (أنا سَيِّدُ وَلَد آدَم)، (أنا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الأَرْضُ)، (أنا أَعْلَمُكُمْ باللهِ وأَتْقاكُم).

وأشباهه كثيرة.

وقال يوسف عليه السلام (اجْعَلْنِي على خَزَائِنِ الأَرْضِ إني حَفِيظٌ عَلِيمٌ).

وقال شعيب عليه السلام (سَتَجِدُنِي إنْ شاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ).

وقال عثمان ﷺ حين حُصر ما رويناه في " صحيح البخاري " أنه قال: ألستم تعلمون أن رسول الله ﷺ قال: " مَنْ جَهّزَ جَيْشَ العُسْرَةِ فَلَهُ الجَنَّةُ؟ فجهّزتهم، ألستم تعلمون أن رسول الله ﷺ قال: مَنْ حَفَرَ بِئرَ رُومَة فَلَهُ الجَنَّةُ، فحفرتها؟ فصدّقوه بما قال.

وروينا في " صحيحيهما " عن سعد بن أبي وقاص ﷺ أنه قال حين شكاه أهل الكوفة إلى عمرَ بن الخطاب ﷺ وقالوا: لا يُحسن يصلي، فقال سعد: والله إنّي لأول رجل من العرب رمى بسهم في سبيل الله تعالى، ولقد كنّا نغزو مع رسول الله ﷺ ... وذكر تمام الحديث.

وروينا في صحيح مسلم عن عليّ قال (والذي فلق الحبَّة وبرأ النسمةَ، إنه لعهدُ النبيّ ﷺ إليّ أنه لا يحبني إلا مؤمنٌ ولا يبغضني إلا منافق).

ونظائر هذا كثيرة لا تنحصر، وكلُّها محمولة على ما ذكرنا، وبالله التوفيق. (الأذكار).

وَقَالَ اِبْن الْجَوْزِيّ : إِنْ قِيلَ كَيْف سَاغَ لِسَعْدٍ أَنْ يَمْدَح نَفْسه وَمِنْ شَأْن الْمُؤْمِن تَرْك ذَلِكَ لِثُبُوتِ النَّهْي عَنْهُ، فَالْجَوَاب أَنَّ ذَلِكَ سَاغَ لَهُ لَمَّا عَيَّرَهُ الْجُهَّال بِأَنَّهُ لَا يُحْسِن الصَّلَاة، فَاضْطَرَّ إِلَى ذِكْر فَضْله، وَالْمِدْحَة إِذَا خَلَتْ عَنْ الْبَغْي وَالِاسْتِطَالَة وَكَانَ مَقْصُود قَائِلهَا إِظْهَار الْحَقّ وَشُكْر نِعْمَة اللَّه لَمْ يُكْرَه، كَمَا لَوْ قَالَ الْقَائِل: إِنِّي لَحَافِظٌ لِكِتَابِ اللَّه عَالِمٌ بِتَفْسِيرِهِ وَبِالْفِقْهِ فِي الد، قَاصِدًا إِظْهَار الشُّكْر أَوْ تَعْرِيف مَا عِنْده لِيُسْتَفَادَ وَلَوْ لَمْ يَقُلْ ذَلِكَ لَمْ يُعْلَم حَاله، وَلِهَذَا قَالَ يُوسُف عليه السلام (إِنِّي حَفِيظ عَلِيم) وَقَالَ عَلِيّ: سَلُونِي عَنْ كِتَاب اللَّه .

٧-لا يسلم أحد من الطعن، فإذا كان سعد من المبشرين بالجنة وما سلم من هذا الطعن فكيف يسلم غيره لا سيما في زمننا هذا.

عَنْ خَالِدِ بْنِ عُمَيْرٍ الْعَدَوِيِّ قَالَ (خَطَبَنَا عُتْبَةُ بْنُ غَزْوَانَ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ الدُّنْيَا قَدْ آذَنَتْ بِصُرْمٍ وَوَلَّتْ حَذَّاءَ وَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلاَّ صُبَابَةٌ كَصُبَابَةِ الإِنَاءِ يَتَصَابُّهَا صَاحِبُهَا وَإِنَّكُمْ مُنْتَقِلُونَ مِنْهَا إِلَى دَارٍ لاَ زَوَالَ لَهَا فَانْتَقِلُوا بِخَيْرِ مَا بِحَضْرَتِكُمْ فَإِنَّهُ قَدْ ذُكِرَ لَنَا أَنَّ الْحَجَرَ يُلْقَى مِنْ شَفَةِ جَهَنَّمَ فَيَهْوِى فِيهَا سَبْعِينَ عَامًا لاَ يُدْرِكُ لَهَا قَعْرًا وَوَاللَّهِ لَتُمْلأَنَّ أَفَعَجِبْتُمْ وَلَقَدْ ذُكِرَ لَنَا أَنَّ مَا بَيْنَ مِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الْجَنَّةِ مَسِيرَةُ أَرْبَعِينَ سَنَةً وَلَيَأْتِيَنَّ عَلَيْهَا يَوْمٌ وَهُوَ كَظِيظٌ مِنَ الزِّحَامِ وَلَقَدْ رَأَيْتُنِي سَابِعَ سَبْعَةٍ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا لَنَا طَعَامٌ إِلاَّ وَرَقُ الشَّجَرِ حَتَّى قَرِحَتْ أَشْدَاقُنَا فَالْتَقَطْتُ بُرْدَةً فَشَقَقْتُهَا بَيْنِي وَبَيْنَ سَعْدِ بْنِ مَالِكٍ فَاتَّزَرْتُ بِنِصْفِهَا وَاتَّزَرَ سَعْدٌ بِنِصْفِهَا فَمَا أَصْبَحَ الْيَوْمَ مِنَّا أَحَدٌ إِلاَّ أَصْبَحَ أَمِيرًا عَلَى مِصْرٍ مِنَ الأَمْصَارِ وَإِنِّي أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ فِي نَفْسِي عَظِيمًا وَعِنْدَ اللَّهِ صَغِيرًا وَإِنَّهَا لَمْ تَكُنْ نُبُوَّةٌ قَطُّ إِلاَّ تَنَاسَخَتْ حَتَّى يَكُونَ آخِرُ عَاقِبَتِهَا مُلْكًا فَسَتَخْبُرُونَ وَتُجَرِّبُونَ الأُمَرَاءَ بَعْدَنَا) .

==========

(**عَنْ خَالِدِ بْنِ عُمَيْرٍ الْعَدَوِيِّ**) البصريّ ثقة .

(**قَالَ : خَطَبَنَا عُتْبَةُ بْنُ غَزْوَانَ**) **قال القرطبيّ** -رحمه الله-: عتبة هذا ﷺ مازنيّ، وحليف لبني نوفل، قديم الإسلام، أسلم سابع سبعة كما قال، وهاجر، وشَهِد المشاهد مع رسول الله ﷺ بدراً، والمشاهد كلها، وأمّره عمر ﷺ على جيش، فتوجه إلى العراق، ففتح الأُبُلّة، والبصرة، ووليها، وبنى مسجدها الأعظم بالقصب، ثم إنه حجّ، فاستعفى عمر عن ولاية البصرة، فلم يُعفه، فقال: اللَّهُمَّ لا تردّني إليها، فسقط عن راحلته، فمات سنة سبع عشرة، وهو منصرف من مكة إلى البصرة، بموضع يقال له: معذر بني سُليم، قاله ابن سعد، ويقال: مات بالربذة، قاله المدائنيّ. انتهى.

(**فَحَمِدَ اللَّهَ**) الحمد : الثناء على المحمود مع المحبة له والإجلال .

(**وَأَثْنَى عَلَيْهِ**) الثناء تكرار الحمد .

(**ثُمَّ قَالَ أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ الدُّنْيَا قَدْ آذَنَتْ**) أي : أعلمت .

(**بِصُرْمٍ**) (الصُّرْم) بِالضَّمّ أَيْ الِانْقِطَاع وَالذَّهَاب .

(**وَوَلَّتْ**) أي : أدبرت وولت .

(**حَذَّاءَ**) أي : سريعة خفيفة .

(**وَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا**) أي : الدنيا .

(**إِلاَّ صُبَابَةٌ كَصُبَابَةِ الإِنَاءِ**) (الصُّبَابَة) بِضَمِّ الصَّاد الْبَقِيَّة الْيَسِيرَة مِنْ الشَّرَاب تَبْقَى فِي أَسْفَل الْإِنَاء .

(**يَتَصَابُّهَا صَاحِبُهَا**) أي : يشربها صاحبها .

(**وَإِنَّكُمْ مُنْتَقِلُونَ مِنْهَا**) أي : من هذه الدنيا القصيرة الحقيرة .

(**إِلَى دَارٍ لاَ زَوَالَ لَهَا**) وهي دار الآخرة .

(**فَانْتَقِلُوا بِخَيْرِ مَا بِحَضْرَتِكُمْ**) أي: ارتحلوا إلى الآخرة بخير ما يحضركم من أعمال البرّ .

(**فَإِنَّهُ قَدْ ذُكِرَ لَنَا أَنَّ الْحَجَرَ يُلْقَى مِنْ شَفَةِ جَهَنَّمَ**) من طرفها .

(**وَوَاللَّهِ لَتُمْلأَنَّ**) أي: لتكونن جهنم مملوءة من الإنس والجنّ، كما قال –عز وجل–: (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا) .

(**وَلَقَدْ ذُكِرَ لَنَا أَنَّ مَا بَيْنَ مِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الْجَنَّةِ**) المصراعان: البابان المغلقان على منفذ واحد " انتهى.

قال الحافظ ابن حجر :"قَوْله : (بَين مصراعين) المصراع الْبَاب ، وَلَا يُقَال : مصراع إِلَّا إِذا كَانَ ذَا درفين" انتهى .

والقاضي عياض :"والمصراع الباب ، ولا يقال له مصراع حتى يكونا اثنين .

وقال القاري (الْمِصْرَاعَيْنِ) أَيِ: الْبَابَيْنِ الْمَضْرُوبَيْنِ عَلَى مَدْخَلٍ وَاحِدٍ .

(**مَسِيرَةُ أَرْبَعِينَ سَنَةً**) أي: مسافة سير أربعين سنة .

(**وَلَيَأْتِيَنَّ عَلَيْهَا**) أي : على تلك المصاريع .

(**يَوْمٌ وَهُوَ كَظِيظٌ مِنَ الزِّحَامِ**) أي : ممتلئ .

(**وَلَقَدْ رَأَيْتُنِي سَابِعَ سَبْعَةٍ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ**) أي : واحداً من سبعة مع رسول الله ﷺ .

(**مَا لَنَا طَعَامٌ إِلاَّ وَرَقُ الشَّجَرِ**) أكلنا منه .

(**حَتَّى قَرِحَتْ أَشْدَاقُنَا**) أَيْ : صَارَ فِيهَا قُرُوح وَجِرَاح مِنْ خُشُونَة الْوَرَق الَّذِي نَأْكُلهُ وَحَرَارَته .

(**فَالْتَقَطْتُ بُرْدَةً**) أي: أخذت لقطة بُرْدة، وهي الشَّمْلة .

(**فَشَقَقْتُهَا بَيْنِي وَبَيْنَ سَعْدِ بْنِ مَالِكٍ**) وهو سعد بن ابي وقاص .

(**فَسَتَخْبُرُونَ**) بضمّ الموحّدة؛ أي: فستعلمون ما قلت لكم قريبًا من صيرورة النبوّة مُلكاً .

(**وَتُجَرِّبُونَ**) من التجربة .

(**الأُمَرَاءَ بَعْدَنَا**) حتَّى تجدوهم مصداقاً لِمَا قاله ﷺ في أحوالهم، وشؤونهم .

١–مشروعية البدء بحمد الله عند ابتداء الخطب .

٢–مشروعية الثناء على الله .

٣–أن الحمد غير الثناء .

٤–فضل الصحابة لصبرهم على الجوع وخشونة العيش .

٥-تضحية الصحابة من أجل الدعوة والدين .

٦-وجوب حب الصحابة والثناء عليهم لصبرهم وتحملهم المشاق والجوع والفقر مع رسول الله ﷺ .

٧-أن الدنيا دار فانية وسريعة الانقضاء .

وقد خطب النبي ﷺ أصحابه يوماً والشمس على رؤوس الجبال فقال: إنه لم يبق من الدنيا فيما مضى منها إلا كما بقي من يومكم هذا فيما مضى منه.

وأكبر عيب عيبت به الدنيا : سرعة زوالها وفنائها .

قال موسى عليه السلام: الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تعمروها.

وقال عيسى عليه السلام لأصحابه: من ذا الذي يبني على موج البحار داراً تلكم الدنيا فلا تتخذوها قراراً.

وقد خرج أبو الدرداء على أهل الشام ورآهم في ترف فقال لهم: مالي أراكم تجمعون ما لا تأخذون، وتبنون ما لا تسكنون، وتؤمّلون ما لا تأخذون، لقد جمعت الأقوام التي قبلكم وأمّنتْ، فما هو إلا قليل حتى أصبح جمعهم بوراً، وأملهم غروراً، وبيوتهم قبوراً، فجعل الناس يبكون حتى سمع نشيجهم من خارج المسجد.

وقال أبو داود وهو من تلاميذ الإمام أحمد بن حنبل: ما رأيت الإمام أحمد بن حنبل ذكر الدنيا.

قال ابن رجب: وقال الله تعالى عن مؤمن آل فرعون أنه قال لقومه (يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هي دار القرار) والمتاع: هو ما يتمتع به صاحبه برهة ثم ينقطع ويفنى.

فما عيبت الدنيا بأكثر من ذكر فنائها وتقلب أحوالها، وهو أدل دليل على انقضائها وزوالها، فتتبدل صحتها بالسقم، ووجودها بالعدم، وشبيبتها بالهرم، ونعيمها بالبؤس، وحياتها بالموت، فتفارق الأجسام النفوس وعمارتها بالخراب واجتماعها بفرقة الأحباب وكل ما فوق التراب تراب.

قال بعض السلف في يوم عيد وقد نظر إلى كثرة الناس وزينة لباسهم: هل ترون إلا خرقاً تبلى، أو لحماً يأكله الدود غداً .

كان الإمام أحمد رضي الله عنه يقول: يا دار تخربين ويموت سكانك.

قال ﷺ (لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء) رواه الترمذي.

٨-أن كل أحد سيرحل عن الدنيا إلى دار إما جنة وإما نار .

قال تعالى (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ) .

وقال تعالى (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ) .

وقال تعالى (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ) .

وقال تعالى (أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ) .

وقال تعالى (كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ. وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالْإِكْرَامِ).

وقال تعالى (قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذاً لا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلاً).

وقال تعالى (قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ).

فهو تعالى وحده هو الحي الذي لا يموت والإنس والجن يموتون، وكذلك الملائكة وحملة العرش، وينفرد الواحد الأحد القهار بالديمومة والبقاء، فيكون آخرًا كما كان أولاً.

كما كان ﷺ يقول (اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْك تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ. اللَّهُمَّ أَعُوذُ بعزَّتِكَ؛ لا إلهَ إلاَّ أَنْتَ أنْ تُضلَّني، أَنْتَ الحَيُّ الَّذِي لاَ تَمُوتُ، وَالجِنُّ والإنْسُ يَمُوتُون) مُتَّفَقٌ عَلَيه.

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته .... يوماً على آلة حدباء محمولُ

الموت: لا يرحم صغيراً، ولا يوقر كبيراً، ولا يخاف عظيماً، لا يستأذن على الملوك، ولا يلج من الأبواب.

تزود من الدنيا فإنك لا تدري .... إذا جن ليل هل تبقى إلى الفجر

الموت: يموت الصالحون ويموت الطالحون، ويموت المجاهدون ويموت القاعدون، يموت مريدوا الآخرة ويموت مريدوا الدنيا.

هو الموت ما منه ملاذ ومهرب .... متى حط عن نعشه ذاك يركب .

إنه جدير بمن الموت مصرعُه، والتراب مضجعه، والدود أنيسه، ومنكر ونكير جليسه، والقبر مقره، وبطن الأرض مستقره، والقيامة موعده، والجنة أو النار موعده، أنْ لا يكون له فكر إلا في الموت، ولا ذكر إلا له، ولا استعداد إلا لأجله، ولا تدبير إلا فيه، ولا تطلع إلا إليه، ولا تأهب إلا له.

قال الحسن: فضح الموت الدنيا فلم يترك لذي عقل عقلاً .

قال بعض العلماء لأحد إخوانه: احذر الموت في هذه الدنيا قبل أن تصير إلى دار تتمنى فيها الموت فلا تجده .

قال أبو الدرداء: إذا ذكرت الموتى فعد نفسك أحدهم .

قال الدّقاق: من أكثر من ذكر الموت أُكرمَ بثلاثة أشياء: تعجيل التوبة، وقناعة القلب، ونشاط العبادة، ومن نسي الموت عوقب بثلاثة أشياء: تسويف التوبة، وترك الرضا بالكفاف، والتكاسل في العبادة .

قالت عائشة لامرأة: أكثري ذكر الموت يرق قلبك.

وقال الأوزاعي: من أكثر ذكر الموت كفاه اليسير، ومن عرف أن منطقه من عمله قل كلامه.

وقال ثابت البناني: ما أكثر أحد ذكر الموت إلا رؤي ذلك في عمله.

وقال ابن عجلان: من جعل الموت نصب عينيه لم يبال بضيق الدنيا.

وقال إبراهيم التيمي: شيئان قطعا عني لذة الدنيا: ذكر الموت، والوقوف بين يدي الله.

وقال الحسن: من عرف الموت هانت عليه مصائب الدنيا.

وقال أبو الدرداء: من أكثر ذكر الموت قل فرحه وقل حسده.

وقال سعيد بن جبير: لو فارق ذكر الموت قلبي لخشيت أن يفسد عليّ قلبي.

كان محمد بن واسع إذا أراد أنْ ينام قال لأهله: أستودعكم الله، فلعلَّها أنْ تكون منيتي التي لا أقوم منها فكان هذا دأبه إذا أراد النوم.

وقال بكر المزني: إنِ استطاع أحدُكم أن لا يبيت إلا وعهدُه عند رأسه مكتوبٌ، فليفعل، فإنَّه لا يدري لعله أنْ يبيتَ في أهلِ الدُّنيا، ويُصبح في أهلِ الآخرة.

وكان أويسٌ إذا قيل له: كيف الزمانُ عليك؟ قال: كيف الزمانُ على رجل إنْ أمسى ظنَّ أنَّه لا يُصبحُ، وإنْ أصبح ظنَّ أنَّه لا يمسي فيبشر بالجنة أو النار؟

تــزود من الدنيــا فإنــك لا تــدري ------ إذا جـن ليـل هـل تعيـش إلى الفـجر

فكم من صحيـح مات من غير علة ------ وكم من ســقيم عـاش حينا من الدهر

وكم من فتى أمسى وأصبح ضاحكا ------ وأكفانه في الغيب تنسج وهو لا يدري

وكم من صغار يرتجى طول عمرهم ------ وقد أدخلت أجسامهم ظلمة القبر
وكم من عروس زينوها لزوجها ------ وقد قبضت أرواحهم ليلة القدر
فمن عاش ألفاً وألفين ------ فلا بد من يوم يسير إلى القبر

قال العلماء: تذكر الموت يردع عن المعاصي، ويلين القلب القاسي، ويذهب الفرح بالدنيا، ويهون المصائب فيها .

ونظر ابن مطيع ذات يوم إلى داره فأعجبه حسنها، فبكى وقال: والله لولا الموت لكنت بكِ مسروراً.

الموت بابٌ وكلُ الناس داخلُه .... يا ليت شعري بعد البابِ ما الدارُ .

لقد دعانا النبي ﷺ إلى الإكثار من ذكر الموت فقال ﷺ (أكثروا ذكر هاذم اللذات).

لأن الإكثار من ذكره: يزهد في الدنيا، ويرغب في الآخرة، ويحث على العمل والاجتهاد، يرضى بالقليل من الدنيا، يريح القلب من همّ الدنيا، ويقصر الأمل، يهون على العبد مصائب الدنيا، يمنع من الأشر والبطر والتوسع من الدنيا، يحث على التوبة والاستدراك، يرق القلب، يدعو إلى التواضع وترك الكبر والظلم .

قال الحسن: من أكثر من ذكر الموت هانت عليه الدنيا.

٩-أن الآخرة خير لمن اتقى .

قال الرازي: وإنما قلنا: إن الآخرة خير لوجوه:

الأول: أن نعم الدنيا قليلة، ونعم الآخرة كثيرة.

والثاني: أن نعم الدنيا منقطعة ونعم الآخرة مؤبدة.

والثالث: أن نعم الدنيا مشوبة بالهموم والغموم والمكاره، ونعم الآخرة صافية عن الكدرات.

والرابع: أن نعم الدنيا مشكوكة فإن أعظم الناس تنعماً لا يعرف أنه كيف يكون عاقبته في اليوم الثاني، ونعم الآخرة يقينية، وكل هذه الوجوه توجب رجحان الآخرة على الدنيا، إلا أن هذه الخيرية إنما تحصل للمؤمنين المتقين، فلهذا المعنى ذكر تعالى هذا الشرط وهو قوله: (لِمَنِ اتقى) وهذا هو المراد من قوله ﷺ (الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر).

١٠-الحديث دليل على وجوب الخوف من النار ، وأن قعرها بعيد وحرها شديد .

وقد جاء في صحيح مسلم عن أبي هريرة . قال : (كُنَّا مَعَ رَسُول الله ﷺ إِذْ سمع وجبة ، فَقَالَ: «هَلْ تَدْرُونَ مَا هَذَا؟» قُلْنَا: الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «هذَا حَجَرٌ رُمِيَ بِهِ فِي النَّارِ مُنْذُ سَبْعِينَ خَرِيفًا، فَهُوَ يَهْوِي فِي النَّارِ الآنَ حَتَّى انْتَهَى إِلَى قَعْرِها فَسَمِعْتُمْ وَجْبَتَهَا) رواه مسلم.

وعنه قال : قال ﷺ (إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ يَنْزِلُ بِهَا فِي النَّارِ أَبْعَدَ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ) .

وعَنه رضي الله عنه أنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ قال (إنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بالكَلِمةِ لا يَرى بها بَأسًا يَهوي بها في النَّارِ سَبعينَ خَريفًا). رواه الترمذي

١١-قوله (**وَإِنِّي أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ فِي نَفْسِي عَظِيمًا وَعِنْدَ اللَّهِ صَغِيرًا**) .

نستفيد: أنه متى كان العبد عظيمًا عند الله كان عظيمًا في السموات وفي الأرض، والدنيا والآخرة، ومتى كان العبد صغيرًا عند الله، كان صغيرًا في السموات وفي الأرض، وفي الدنيا والآخرة.

فنعوذ بالله أن يكون الواحد منا عظيمًا في نفسه صغيرًا عند الله.

١٢-متى يكون العبد عظيمًا عند الله؟

يكون العبد عظيمًا عند الله إذا كان من أهل طاعته، ومن أبرز تلك الطاعات:

الإقبال على القرآن تلاوة وحفظًا، وسماعًا وتدبُّرًا:

قال تعالى (إن هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا) .

وقال ﷺ (إن الله يَرفع بهذا الكتاب أقوامًا ويضَعُ به آخَرين) .

الحرص على الذِّكر والمداومة عليه:

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال النبيُّ ﷺ (يقول الله تعالى: أنا عند ظنِّ عبدي بي، وأنا معه إذا ذكَرني، فإن ذكَرني في نفسه ذكَرتُه في نفسي، وإن ذكرني في ملأٍ ذكرتُه في ملأٍ خيرٍ منهم...) رواه البخاري.

وعن أبي هريرة قال (كان رسول الله ﷺ يَسير في طريق مكَّة فمرَّ على جبلٍ يُقال له: جمدان، فقال: سيروا، هذا جُمْدَانُ، سبَق المفرِّدون ، قالوا: وما المفرِّدون يا رسول الله؟ قال: الذَّاكرون الله كثيرًا والذَّاكرات) رواه مسلم.

المواظبة على الصلوات والإكثار من النوافل:

عن ثوبانَ قال: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول (عليك بكثرة السجود؛ فإنك لن تَسجد لله سجدةً إلا رفعَك الله بها درجة، وحطَّ بها عنك خطيئة) . رواه مسلم

وعن ربيعة بن كعب قال (كنتُ أبيت مع النبي ﷺ آتيه بوَضوئه وحاجته، فقال: (سلني) فقلت: أسألُك مرافقتَك في الجنة، فقال: أوَ غير ذلك؟ ، فقلت: هو ذاك، فقال: أعنِّي على نفسك بكثرة السجود) .

ومن أشرف تلك الصلوات صلاة الليل :

وقال تعالى (كانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ) .

وقال ﷺ (واعلم أن شرف المؤمن قيامه بالليل، وعزَّه استغناؤه عن الناس) .

طلب العلم والدعوة إلى الله عز وجل، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

قال تعالى (يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) .

قال ابن القيم : فمن طلب العلم ليُحيي به الإسلام فهو من الصدِّيقين، ودرجته بعد درجة النبوة .

وقال سفيان بن عُيينة رحمه الله: أرفعُ الناس منزلةً عند الله مَن كان بين الله وبين عباده، وهم الأنبياء والعلماء .

التواضع:

قال ﷺ (وما تواضع أحدٌ لله إلاَّ رفعه الله) .

١٣-الحديث دليل على إخباره ﷺ عن الغَيْبِيَّاتِ.

١٤-وفيه إشارةٌ إلى اتِّساع الحالِ على الصَّحابةِ بعدَ ضِيقِه أولًا.

عنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ (قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ قَالَ « هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ فِي الظَّهِيرَةِ لَيْسَتْ فِي سَحَابَةٍ ». قَالُوا لاَ. قَالَ « فَهَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَيْسَ فِي سَحَابَةٍ ». قَالُوا لاَ. قَالَ « فَوَالَّذِي نَفْسِى بِيَدِهِ لاَ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ رَبِّكُمْ إِلاَّ كَمَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ أَحَدِهِمَا –قَالَ– فَيَلْقَى الْعَبْدَ فَيَقُولُ أَيْ فُلْ أَلَمْ أُكْرِمْكَ وَأُسَوِّدْكَ وَأُزَوِّجْكَ وَأُسَخِّرْ لَكَ الْخَيْلَ وَالإِبِلَ وَأَذَرْكَ تَرْأَسُ وَتَرْبَعُ فَيَقُولُ بَلَى. قَالَ فَيَقُولُ أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلاَقِيَّ فَيَقُولُ لاَ. فَيَقُولُ فَإِنِّي أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي. ثُمَّ يَلْقَى الثَّانِيَ فَيَقُولُ أَيْ فُلْ أَلَمْ أُكْرِمْكَ وَأُسَوِّدْكَ وَأُزَوِّجْكَ وَأُسَخِّرْ لَكَ الْخَيْلَ وَالإِبِلَ وَأَذَرْكَ تَرْأَسُ وَتَرْبَعُ فَيَقُولُ بَلَى أَيْ رَبِّ. فَيَقُولُ أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلاَقِيَّ فَيَقُولُ لاَ. فَيَقُولُ فَإِنِّي أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي. ثُمَّ يَلْقَى الثَّالِثَ فَيَقُولُ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ فَيَقُولُ يَا رَبِّ آمَنْتُ بِكَ وَبِكِتَابِكَ وَبِرُسُلِكَ وَصَلَّيْتُ وَصُمْتُ وَتَصَدَّقْتُ. وَيُثْنِي بِخَيْرٍ مَا اسْتَطَاعَ فَيَقُولُ هَا هُنَا إِذًا –قَالَ– ثُمَّ يُقَالُ لَهُ الآنَ نَبْعَثُ شَاهِدَنَا عَلَيْكَ. وَيَتَفَكَّرُ فِي نَفْسِهِ مَنْ ذَا الَّذِى يَشْهَدُ عَلَيَّ؟ فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ وَيُقَالُ لِفَخِذِهِ وَلَحْمِهِ وَعِظَامِهِ انْطِقِي فَتَنْطِقُ فَخِذُهُ وَلَحْمُهُ وَعِظَامُهُ بِعَمَلِهِ وَذَلِكَ لِيُعْذِرَ مِنْ نَفْسِهِ. وَذَلِكَ الْمُنَافِقُ وَذَلِكَ الَّذِى يَسْخَطُ اللَّهُ عَلَيْهِ)

[خ : ٦٥٧٣] .

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ (كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَضَحِكَ فَقَالَ « هَلْ تَدْرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ ». قَالَ قُلْنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، قَالَ « مِنْ مُخَاطَبَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ يَقُولُ يَا رَبِّ أَلَمْ تُجِرْنِي مِنَ الظُّلْمِ قَالَ يَقُولُ بَلَى. قَالَ فَيَقُولُ فَإِنِّي لاَ أُجِيزُ عَلَى نَفْسِى إِلاَّ شَاهِدًا مِنِّي قَالَ فَيَقُولُ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيدًا وَبِالْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ شُهُودًا –قَالَ– فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ فَيُقَالُ لأَرْكَانِهِ انْطِقِي. قَالَ فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ –قَالَ– ثُمَّ يُخَلَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلاَمِ –قَالَ– فَيَقُولُ بُعْدًا لَكُنَّ وَسُحْقًا. فَعَنْكُنَّ كُنْتُ أُنَاضِلُ).

==========

(**قَالَ : فَيَلْقَى الْعَبْدَ فَيَقُولُ أَيَّ فُلْ**) و(فُل) بضم الفاء، وسكون اللام، وتفتح، وتضم؛ أي: فلان .

(**أَلَمْ أُكْرِمْكَ**) بضمّ الهمزة، من الإكرام؛ أي: ألم أُفَضِّلك على سائر الحيوانات .

(**وَأُسَوِّدْكَ**) بتشديد الواو، من التسويد؛ أي: ألم أجعلك سيّداً في قومك .

(**وَأُزَوِّجْكَ**) من التزويج؛ أي: ألم أعطك زوجاً من جنسك، ومكّنتك منها، وجعلت بينك وبينها مودةً، ورحمةً، ومؤانسةً، وألفةً.

(**وَأَذَرْكَ**) أي: ألم أذرك، والمعنى: ألم أَدَعْك .

(**تَرْأَسُ**) أي: تكون رئيساً على قومك .

(**وَتَرْبَعُ**) **قال النوويّ** –رحمه الله–: أما ترأس فبفتح التاء، وإسكان الراء، وبعدها همزة مفتوحة، ومعناه: تصير رئيس القوم، وكبيرهم، وأما تربع، فبفتح التاء، والباء الموحدة، هكذا رواه الجمهور، وفي رواية ابن ماهان: ترتع بمثناة فوق، بعد الراء، ومعناه بالموحدة: تأخذ المرباع الذي كانت ملوك الجاهلية تأخذه من الغنيمة، وهو ربعها، يقال: ربعتهم؛ أي: أخذت ربع أموالهم، ومعناه: ألم أجعلك رئيساً مطاعًا، وقال القاضي بعد حكايته نحو ما ذكرته عندي أن معناه: تركتك مستريحاً، لا تحتاج إلى مشقة، وتعب، من قولهم: أربع على نفسك؛ أي: ارفُق بها، ومعناها بالمثناة: تتنعم، وقيل: تأكل، وقيل: تلهو، وقيل: تعيش في سعة.

(**ألم تجرني من الظلم؟**) أي: ألم تجعلني في إجارة منك من الظلم بقولك: (وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ) [فصلت: ٤٦].

(**لا أجيز**) أي: لا أقبل على نفسي إلا شاهدًا من جنسي.

(**فيختم على فيه**) أي: على فمه؛ قال تعالى (الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) وقال سبحانه: (يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) .

(**فيقال لأركانه**) أي: لأعضائه وأجزائه (انطقي).

(**فتنطق بأعماله**) أي: بأفعاله التي ارتكبها.

(**ثم يخلى**) أي: يترك .

(**بينه وبين الكلام**) أي: يرفع الختم من فيه؛ حتى يتكلم.

(**بعدًا لكن وسحقًا**) أي: فيقول العبد: هلاكًا لكم.

(**كنت أناضل**) أي: أدافع .

قال ابن الجوزي رحمه الله : المناضلة الرمي بالسهام والمراد بها ها هنا المدافعة عنها والاعتذار .

١-الحديث دليل على شهادة أعضاء الإنسان عليه يوم القيامة بما عمل .

قال اللهُ تعالى (وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ * وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ) .

قال ابنُ جَريرٍ: قَولُه (حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ) يَقولُ: حَتَّى إذا ما جاؤوا النَّارَ شَهِدَ عليهم سَمعُهم بما كانوا يُصْغُونَ به في الدُّنيا إليه، ويَستَمِعونَ له، وأبصارُهم بما كانوا يُبصِرونَ به ويَنظُرونَ إليه في الدُّنيا وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

وقال ابنُ كثيرٍ: (حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا) أي: وُقِفوا عليها، (شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) أي: بأعمالِهم مِمَّا قَدَّموه وأخَّروه، لا يُكتَمُ منه حَرفٌ. (وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا) أي: لاموا أعضاءَهم وجُلودَهم حينَ شَهِدوا عليهم، فعِندَ ذلك أجابَتْهمُ الأعضاءُ (قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ) أي: فهو لا يُخالَفُ ولا يُمانَعُ، وإليه تُرجَعونَ.

وقال السَّعديُّ: (حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا) أي: حَتَّى إذا ورَدوا على النَّارِ، وأرادوا الإنكارَ، أو أنكَروا ما عَمِلوه من المعاصي (شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ) عُمومٌ بَعدَ خُصوصٍ (بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) أي: شَهِدَ عليهم كُلُّ عُضوٍ من أعضائِهم، فكُلُّ عُضوٍ يَقولُ: أنا فعَلتُ كذا وكَذا يَومَ كذا وكَذا. وخَصَّ هذه الأعضاءَ الثَّلاثةَ؛ لأنَّ أكثَرَ الذُّنوبِ إنَّما تَقَعُ بها أو بسَبَبِها .

وقال سبحانه (الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) .

قال ابن كثير رحمه الله: هذا حال الكُفَّار والمنافقين يوم القيامة، حين ينكرون ما اجترموه في الدنيا، ويحلفون ما فعلوه، فيختم الله على أفواههم، ويستنطق جوارحهم بما عملت .

٢-من عقيدة أهل السنة والجماعة: الاعتقاد الجازم بأن المؤمنين يرون ربهم عياناً بأبصارهم في عرصة القيامة وفي الجنة، ويكلمهم ويكلمونه.

وهذه المسألة من المسائل التي وقع فيها النزاع بين أهل السنة وغيرهم، وقد اتفق عليها الأنبياء والمرسلون وجميع الصحابة والتابعون وأئمة الإسلام على تتابع القرون.

أ-قال تعالى: (وجوه يومئذ ناضرة. إلى ربها ناظرة). (ناضرة) أي حسنة، من النضارة. (ناظرة) من النظر.

قال شارح الطحاوية: وهي من أظهر الأدلة.

ب-وقال تعالى: (كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون).

قال شارح الطحاوية: احتج الشافعي وغيره من الأئمة رحمهم الله تعالى بهذه الآية على الرؤية لأهل الجنة، وسئل مالك عن هذه الآية فقال: لما حجب أعداؤه فلم يروه تجلى لأوليائه حتى يروه.

في الآية: أن أعظم عذاب الكفار هو الحجاب عن ربهم، وأعظم نعيم الجنة هو رؤية الله عز وجل.

ج-وقال تعالى (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة).

فالحسنى: الجنة، والزيادة: هي النظر إلى وجهه الكريم فسرها بذلك رسول الله ﷺ كما في حديث صهيب عند مسلم.

د-عن جرير بن عبد الله قال: كنا جلوساً مع النبي ﷺ إذ نظر إلى القمر ليلة البدر فقال: (إنكم سترون ربكم عياناً كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا) متفق عليه، يعني العصر والفجر. (لا تضامون) أي لا يلحقكم ضيم ولا مشقة في رؤيته.

معنى (كما ترون هذا القمر) يعني يراه المؤمنون في الجنة كما يرون هذا القمر، فليس المعنى أن الله مثل القمر، لأن الله ليس كمثله شيء، بل هو أعظم وأجل، لكن المراد من المعنى تشبيه الرؤية بالرؤية، فكما أننا نرى القمر ليلة البدر رؤية حقيقية ليس فيه اشتباه، فإننا سنرى ربنا عز وجل كما نرى هذا القمر رؤية حقيقية بالعين دون اشتباه.

هـ- عن أبي هريرة ﷺ: أن أناساً قالوا: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال النبي ﷺ (هل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر؟) قالوا: لا يا رسول الله. قال: (هل تضارون في رؤية الشمس ليس دونها سحاب؟) قالوا: لا. قال: (فإنكم ترونه كذلك). متفق عليه.

و- وعن أبي موسى. قال: قال رسول الله ﷺ (جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن يروا ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن) متفق عليه.

وأحاديث الرؤية متواترة كما نص على ذلك غير واحد من أهل العلم، منهم:

ابن القيم في حادي الأرواح، وابن أبي العز في شرح الطحاوية، والحافظ ابن حجر في فتح الباري.

٣-إيماء إلى أنه لا ينبغي الضحك إلا لأمر غريب، وحكم عجيب.

٤-شهادة الأعضاء يوم القيامة على ما كانت تفعل.

٥-عدل الله سبحانه وتعالى وحكمه بين العباد.

عن أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (اللَّهُمَّ اجْعَلْ رِزْقَ آلِ مُحَمَّدٍ قُوتًا) ، (كَفَافًا) .

[خ : ٦٤٦٠] .

==========

(**قُوتًا**) القُوتُ: ما يسُدُّ الرَّمَقَ، والمرادُ به الكَفافُ مِنَ العَيشِ .

١-الحديث دليل على فضل الزهد في الدنيا والتقلل منها وأخذ منها ما يكفي .

فهذا هدي النبي ﷺ .

كما في حديث الباب .

وهو من أسباب الفلاح .

قال ﷺ (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ وَرُزِقَ كَفَافًا، وَقَنَّعَهُ اللهُ بِمَا آتَاهُ) رواه مسلم .

٢-معنى الحديث :

قال النووي: قَالَ أَهْل اللُّغَة وَالْعَرَبِيَّة: الْقُوت مَا يَسُدّ الرَّمَق، وَفِيهِ فَضِيلَة التَّقَلُّل مِنْ الدُّنْيَا وَالِاقْتِصَار عَلَى الْقُوت مِنْهَا وَالدُّعَاء بِذَلِكَ.

وقال ابن بطال: فيه دليل على فضل الكفاف وأخذ البلغة من الدنيا والزهد فيما فوق ذلك، رغبة في توفر نعيم الآخرة وإيثاراً لما يبقى على ما يفنى، فينبغي أن تقتدي به أمته في ذلك.

وقال القرطبي معنى الحديث: أنه طلب الكفاف فإن القوت ما يقوت البدن ويكف عن الحاجة وفي هذه الحالة سلامة من آفات الغنى والفقر جميعاً والله أعلم.

وقال رحمه الله : أي ما يقوتهم ويكفيهم، بحيث لا يُشَوِّشهُم الجَهْد ، ولا تُرهقهم الفاقة، ولا تُذِلُّهُم المسألة والحاجة، ولا يكون أيضًا في ذلك فضول يخرج إلى التَّرف والتبسُّط في الدنيا، والركون إليها .

وقال الحافظ ابن حجر: أَيْ اِكْفِهِمْ مِنْ الْقُوت بِمَا لَا يُرْهِقُهُمْ إِلَى ذُلّ الْمَسْأَلَة ، وَلَا يَكُون فِيهِ فُضُول تَبْعَث عَلَى التَّرَفُّه وَالتَّبَسُّط فِي الدُّنْيَا.

وقال ابن الجوزي : القُوت: ما يُمْسِك الرَّمَق، يقال: ما عنده قُوت ليلة، وقِيْتُ ليلة، فكأنه طلب مقدار الكفاية من الرزق؛ لأن فضول الدنيا تُشغل القلب، وتخرج إلى حب الدنيا.

وقال الملا علي القاري-رحمه الله-: أي: ما يُكْسِبُ قُوَّة على الطاعة، ويَسُدُّ رَمَقًا في المعيشة.

٢-الحديث دليل على زهد النبي ﷺ في الدنيا، وعلى تقلُّلِهِ منها .

٣-إنما دعا النبي ﷺ بذلك لأن التوسع في الدنيا قد يشغل عن الآخرة .

قال الصنعاني -رحمه الله- (اللهُمَّ اجْعَلْ رِزْقَ آلِ مُحَمَّدٍ قُوتًا) هذا الدعاء صيانةً لآله من الدنيا، فإنَّ السَّعَة فيها لا تأتي إلا بالطغيان في الغالب (وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ) وقد ظهرت إجابة دعائه في آله منذ أمير المؤمنين علي ﷺ، والبتول، وما زال مَنْ بعدهم مِنْ صالحي أولادهم كذلك ممن سار سيرتهم، وقد خيَّر الله نبيه ﷺ بين أن يكون عبدًا نبيًّا، أو نبيًّا مَلِكًا، فاختار الأول.

٤-قال الطيبي -رحمه الله-: سلك ﷺ طريق الاقتصاد المحمود، فإنَّ كثرة المال تُلهي، وقِلَّته تُنْسِي، فما قلَّ منه وكفى، خيرٌ مما كثُر وألهى.

٥-قال ابن الملقن -رحمه الله-: الشارع سَأَلَ رتبةً علياء وهي الكَفاف، فقال: «اللهم اجعل رزق آل محمدٍ قُوتًا»، وفي لفظ: «كَفافًا» أخرجه مسلم، ومعلوم أنه لا يسأل إلا أفضل الأحوال، وأسنى المقامات والأعمال، وقد اتفق الجميع على أنَّ ما أحوج من الفقر مكروه، وما أبطر من الغنى مذموم.

ولابن ماجه عن أنس مرفوعًا (ما من غني ولا فقير إلا ودَّ يوم القيامة أنه أُوتي من الدنيا قُوتًا) فالكَفاف: حالة وسطى، وخير الأمور أوساطها، وهي حالة سليمة من آفات الغنى المطغي، ومن آفات الفقر الْمُدْقِع التي كان يتعوَّذ منهما .

٦-**قال ابن رسلان** -رحمه الله-:وأعلى الأحوال: الرزق الكَفاف، وفي الصحيح: أنَّ النبي ﷺ كان يقول: «اللهم اجعل رزق آل محمدٍ كَفافًا»، وفي صحيح ابن حبان والبيهقي (خير الذِّكْر الخفي، وخير الرزق أو العيش ما يكفي) وقد فسَّر طائفة من المفسرين قوله تعالى (وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى) قالوا: المراد: رزق يوم بيوم.

٧-قال ابن بطال: فيه: دليل على فضل الكَفاف، وأخذ البُلْغة من الدنيا، والزهد فيما فوق ذلك؛ رغبةً في توفير نعيم الآخرة، وإيثارًا لما يبقى على ما يفنى؛ لتقتدي بذلك أمته، ويرغبوا فيما رغب فيه نبيهم ﷺ .

٨-الحذر من فتنة الدنيا والتوسع فيها .

٩-ينبغي على الإنسان أن يكون استعداده وشغله للآخرة .

١٠-الاقتداء بالنبي ﷺ في الزهد في الدنيا .

١١-أن الدنيا ليست دار قرار .

عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ (مَا شَبِعَ آلُ مُحَمَّدٍ ﷺ مُنْذُ قَدِمَ الْمَدِينَةَ مِنْ طَعَامِ بُرٍّ ثَلاَثَ لَيَالٍ تِبَاعًا حَتَّى قُبِضَ) .

[خ : ٥٤١٦] .

وعنها . قَالَتْ (إِنْ كُنَّا آلَ مُحَمَّدٍ ﷺ لَنَمْكُثُ شَهْرًا مَا نَسْتَوْقِدُ بِنَارٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ التَّمْرُ وَالْمَاءُ) .

[خ : ٦٤٥٨] .

وعنها . قَالَتْ (تُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَمَا فِي رَفِّي مِنْ شَيْءٍ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ إِلاَّ شَطْرُ شَعِيرٍ فِي رَفٍّ لِي فَأَكَلْتُ مِنْهُ حَتَّى طَالَ عَلَيَّ فَكِلْتُهُ فَفَنِيَ) .

[خ : ٣٠٩٧] .

وعنها . قالت (تُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَدْ شَبِعْنَا مِنَ الأَسْوَدَيْنِ الْمَاءِ وَالتَّمْرِ) .

عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما، قَالَ: ذَكَرَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ ﷺ مَا أَصَابَ النَّاسُ مِنَ الدُّنْيَا، فَقَالَ (لَقَدْ رَأَيْتُ رسول الله ﷺ يَظَلُّ الْيَوْمَ يَلْتَوِي مَا يَجِدُ مِنَ الدَّقَلِ مَا يَمْلأُ بِهِ بَطْنَهُ) .

==========

(**مَا أَصَابَ النَّاسُ مِنَ الدُّنْيَا**) من لذاتها وشهواتها .

(**يَظَلُّ الْيَوْمَ يَلْتَوِي**) أي: يتقلّب ظهراً لبطن من الجوع .

(**مَا يَجِدُ مِنَ الدَّقَلِ**) وهو رديء التمر .

(**شَطْرُ شَعير**) أيْ: شَيْءٌ مِنْ شَعير،، كَذَا فَسَّرَهُ التُّرْمذيُّ.

(**فَكِلْتُهُ فَفَنِي**) بكسر النون؛ أي: فرغ، ونفِد، تعني أنها ما زالت تأكل منه قبل أن تكيله، فلما كالته نفِد، وفرغ .

١-في هذه الأحاديث : بيانُ ما كانتْ عليه حالُ النَّبيّ ﷺ في أوَّلِ الأمرِ مِن شِدَّةِ الحالِ وخُشونةِ العَيشِ والجهدِ.

٢-بيان ما كان عليه النبي ﷺ وأهله من قلة المعيشة، فإن العيش عيش الآخرة.

٣-بيان ما كان عليه أهل بيت النبي ﷺ وأصحابه من الصبر على خشونة العيش؛ لأن مقصودهم التخفف من تبعات الدنيا، حتى يصلوا إلى الآخرة، فيدخلوا الجنة قبل غيرهم ممن شغلتهم الدنيا .

قال القرطبيّ رحمه اللهُ : أحاديث هذا الباب كلها، وإن اختلفت ألفاظها تدل على أن النبيّ ﷺ لم يكن يديم الشّبَع، ولا الترفّه في العيش، لا هو، ولا من حوته بيوته، ولا آله، بل كانوا يأكلون ما خَشُن من المأكل الْعَلَق، ويقتصرون منه على ما يسدّ الرّمَق، معرضين عن متاع الدنيا، مُؤْثِرين ما يبقى على ما يفنى، ثم لم يزل كذلك حالهم مع إقبال الدنيا عليهم، واجتماعها بجذافيرها لديهم، إلى أن وصلوا إلى ما طلبوا، وظَفِروا بما فيه رغبوا.

٤-تذكير الناس بالنعم التي هم فيها والحث على شكر الله عليها .

٥-فضل عائشة في نقلها أحوال النبي ﷺ ومعيشته في بيته .

٦ - بيان معجزة للنبيّ ﷺ في تكثيره طعام عائشة - رضي الله عنها -، فكانت تأكل منه، وتنفق على المحتاجين حتى طال عليها الوقت، فكالته، فنفد.

٧-التوكل على الله في جميع الأمور .

٨-استحباب الاقتصاد في النفقة .

٩-قولها (**فكلته ففني**) جاء عند مسلم من طريق أبي الزبير عن جابر (أن أم مالك كانت تهدي للنبي ﷺ في عكة لها سمناً فيأتيها بنوها فيسألون الأدم فتعمد إلى العكة فتجد فيها سمناً، فما زال يقيم لها أدم بيتها حتى عصرته فأتت النبي ﷺ فقال لو تركتها ما زال قائماً) .

وقد استشكل هذا النهي مع الأمر بكيل الطعام وترتيب البركة على ذلك كما تقدم في البيوع من حديث المقدام بن معد يكرب بلفظ (كيلوا طعامكم يبارك لكم فيه).

وأجيب : بأن الكيل عند المبايعة مطلوب من أجل تعلق حق المتبايعين فلهذا القصد يندب، وأما الكيل عند الإنفاق فقد يبعث عليه الشح فلذلك كره ويؤيده: ما أخرجه مسلم: عن جَابِرٍ (أَنَّ رَجُلاً أَتَى النَّبِيَّ ﷺ يَسْتَطْعِمُهُ فَأَطْعَمَهُ شَطْرَ وَسْقِ شَعِيرٍ فَمَا زَالَ الرَّجُلُ يَأْكُلُ مِنْهُ وَامْرَأَتُهُ وَضَيْفُهُمَا حَتَّى كَالَهُ فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ : لَوْ لَمْ تَكِلْهُ لأَكَلْتُمْ مِنْهُ وَلَقَامَ لَكُم).

قال القرطبي: سبب رفع النماء من ذلك عند العصر والكيل والله أعلم الالتفات بعين الحرص مع معاينة ادرار نعم الله ومواهب كراماته وكثرة بركاته والغفلة عن الشكر عليها والثقة بالذي وهبها، والميل إلى الأسباب المعتادة عند مشاهدة خرق العادة، ويستفاد منه أن من رزق شيئاً أو أكرم بكرامة أو لطف به في أمر ما فالمتعين عليه موالاة الشكر ورؤية المنة لله تعالى ولا يحدث في تلك الحالة تغييراً والله اعلم.

عن عَبْد اللَّهِ بْنَ عَمْرِو (وَسَأَلَهُ رَجُلٌ فَقَالَ أَلَسْنَا مِنْ فُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ أَلَكَ امْرَأَةٌ تَأْوِي إِلَيْهَا قَالَ نَعَمْ. قَالَ أَلَكَ مَسْكَنٌ تَسْكُنُهُ قَالَ نَعَمْ قَالَ فَأَنْتَ مِنَ الأَغْنِيَاءِ قَالَ فَإِنَّ لِي خَادِمًا قَالَ فَأَنْتَ مِنَ الْمُلُوكِ) .

==========

(**عن عَبْد اللَّهِ بْنَ عَمْرِو**) الصحابي الجليل .

(**وَسَأَلَهُ رَجُلٌ**) لا يعرف اسمه .

(**فَقَالَ أَلَسْنَا مِنْ فُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ**) **قال القرطبيّ** رحمه الله: قول الرجل لعبد الله بن عمرو: "ألسنا من الفقراء؟ " سؤال تقرير، وكأنه سأل شيئًا من الفيء الذي قال الله تعالى فيه: (لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا) وكأنّ ذلك الرجل قال: ألسنا من الفقراء الذين يستحقّون من الفيء سهمًا بنصّ القرآن؟

(**فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ أَلَكَ امْرَأَةٌ تَأْوِي إِلَيْهَا**) أي: تضمها، وتسكن إليها، وتُقْبل عليها .

(**قَالَ**) الرجل .

(**نَعَمْ**) لي امرأة آوي إليها .

(**قَالَ أَلَكَ مَسْكَنٌ تَسْكُنُهُ**) أي : تأوي إليه .

(**قَالَ**) الرجل .

(**نَعَمْ**) لي منزل .

(**قَالَ فَأَنْتَ مِنَ الأَغْنِيَاءِ**) أي: أغنياء المهاجرين، فإن فقراءهم ما كان لهم امرأة، ولا مسكن .

(**قَالَ**) الرجل .

(**فَإِنَّ لِي**) زيادة على ذلك .

(**خَادِمًا**) يخدمني .

(**قَالَ فَأَنْتَ مِنَ الْمُلُوكِ**) **قال القرطبيّ** رحمه الله: قوله: "أنت من الملوك" لما أخبره أن له خادماً على جهة الإغناء، والمبالغة، لا أنه ألحقه بالملوك حقيقة، ولا بالأغنياء، ولا سلبه ذلك اسم الفقراء، إذ لم يكن له غير ما ذكر .

١-هذا الكلامُ مِن عَبدِ اللهِ للسَّائلِ مُبالَغةٌ، كأنَّ السَّائلَ قدْ بَلَغ غايةَ النَّعيمِ مِثلَ الملوكِ، وليْس أنَّه مِن الملوكِ حَقيقةً؛ إذ لا يَسلُبُه الخادمُ اسمَ الفَقرِ.

٢-وفي الحديثِ: بيانُ أنَّ مَن له زَوجةٌ ومَسكَنٌ يَسكُنُه ليْس مِن الفُقراءِ.

عن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ أن النبي ﷺ قال: (إِنَّ فُقَرَاءَ الْمُهَاجِرِينَ يَسْبِقُونَ الْأَغْنِيَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى الْجَنَّةِ، بِأَرْبَعِينَ خَرِيفاً) .

==========

١-الحديث دليل على أن الفقراء يدخلون الجنة قبل الأغنياء بهذه المدة .

وقد جاء عند الترمذي : عن أَبي هريرة ﷺ قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ (يدْخُلُ الْفُقَرَاءُ الْجَنَّةَ قَبْلَ الأَغْنِيَاءِ بِخَمْسِمائَةِ عَامٍ) رواه الترمذي .

٢-وقد ذكر غيرُ واحد من أهل العلم أن المعنى في دخول الفقراء قبل الأغنياء الجنة: هو خِفَّةُ الحساب عليهم؛ فليس عندهم من الأموال التي تقتضي الحساب عليها؛ من أين اكتسبوها، وفيمَ أنفقوها، كما ما عند الأغنياء؛ فلهذا خَفّ حسابُهم، وقصُرت مدته، وسبقوا الأغنياء إلى الجنة.

وهذه فضيلة من وجه واحد، وهو خِفة حساب الأموال، وما يتعلق بها؛ لكن لا يلزم أن يكونوا أفضل من أهل الأموال مطلقاً، ومن كل وجه، فلا يلزم أن تكون منزلتهم في الجنة، أعلى من منازل أهل الأموال، بل كلٌّ بحسب عمله، وما لَهُ عند الله؛ وهذا هو الأمر الأهم.

قال ابن تيمية : فالفقراء متقدمون في دخول الجنة لخفة الحساب عليهم، والأغنياء مؤخرون لأجل الحساب ... ثم إذا حوسب أحدهم، فإن كانت حسناته أعظم من حسنات الفقير، كانت درجته في الجنة فوقه ، وإن تأخر في الدخول، كما أن السبعين ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب، ومنهم عكاشة بن محصن، وقد يدخل الجنة - بحسابٍ - من يكون أفضل من أحدهم .

وقال ابن القيم رحمه الله : الفقراء يتقدمون في دخول الجنة لخفّة الحساب عليهم، والأغنياء يؤخرون لأجل الحساب.

ثم إذا حوسب أحدهم، فإن كانت حسناتُه أعظم من حسنات الفقراء، كانت درجتُه في الجنة فوقَه، وإن تأخر في الدخول .

٣-أن فتنة السراء قد تكون أعظم من فتنة الضراء .

قال ابن تيمية : غالب الخلق إنما يَسلمون من فتنة الفسوق والعصيان إذا لم يبتلوا بكثرة المال .

ولهذا أكثر من يدخل الجنة المساكين لأن فتنة الفقر أهون.

٤-استدل بهذه الأحاديث من قال : الفقير الصابر أفضل من الغني الشاكر ، وقد اختلف العلماء في هذه المسألة على قولين :

لقول الأول: أن الغني الشاكر أفضل من الفقير الصابر.

قال ال الحافظ : وصرح كثير من الشافعية بأن الغني الشاكر أفضل.

أ-لحديث أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ (أَنَّ فُقَرَاءَ الْمُسْلِمِينَ أَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَدْ ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالدَّرَجَاتِ الْعُلَى وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ. قَالَ: وَمَا ذَاكَ؟ قَالُوا: يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ، وَيَتَصَدَّقُونَ وَلا نَتَصَدَّقُ. وَيُعْتِقُونَ وَلا نُعْتِقُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَفَلا أُعَلِّمُكُمْ شَيْئًا تُدْرِكُونَ بِهِ مَنْ سَبَقَكُمْ، وَتَسْبِقُونَ مَنْ بَعْدَكُمْ. وَلا يَكُونُ أَحَدٌ أَفْضَلَ مِنْكُمْ، إِلاَّ مَنْ صَنَعَ مِثْلَ مَا صَنَعْتُمْ؟ قَالُوا: بَلَى، يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: تُسَبِّحُونَ وَتُكَبِّرُونَ وَتَحْمَدُونَ دُبُرَ كُلِّ صَلاةٍ: ثَلاثاً وَثَلاثِينَ مَرَّةً. قَالَ أَبُو صَالِحٍ: فَرَجَعَ فُقَرَاءُ الْمُهَاجِرِينَ، فَقَالُوا: سَمِعَ إِخْوَانُنَا أَهْلُ الأَمْوَالِ بِمَا فَعَلْنَا، فَفَعَلُوا مِثْلَهُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ) رواه مسلم .

قال النووي: وَفِي هَذَا الْحَدِيث دَلِيل لِمَنْ فَضَّلَ الْغَنِيّ الشَّاكِر عَلَى الْفَقِير الصَّابِر، وَفِي الْمَسْأَلَة خِلَاف مَشْهُور بَيْن السَّلَف وَالْخَلَف مِنْ الطَّوَائِف. وَاَللَّهُ أَعْلَم.

ب-ولقوله ﷺ (اليد العليا خير من اليد السفلى) متفق عليه .

ج-ولقوله ﷺ (نعم المال الصالح للرجل الصالح) رواه أحمد.

د- ولحديث سعد. قال: قال ﷺ (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْعَبْدَ التَّقِيَّ الْغَنِيَّ الْخَفِيَّ) رواه مسلم.

قال ابن حجر: وهو دال لما قلته سواء حملنا الغني فيه على المال أو على غنى النفس فإنه على الأول ظاهر وعلى الثاني يتناول القسمين فيحصل المطلوب.

هـ- أن الغني الشاكر نفعه متعدي، بخلاف الفقير الصابر فنفعه قاصرٌ على نفسه، فيكون الأول أفضل من الثاني كما في نظائرها من المسائل.

القول الثاني : الفقير الصابر.

لقوله ﷺ (يدخل الفقراء قبل الأغنياء بخمسمائة عام).

ولقوله ﷺ (اطلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء) رواه مسلم.

واختار شيخ الإسلام ابن تيمية أن من كان تقياً فهو أفضل.

قال ابن تيمية: قد تنازع كثير من متأخري المسلمين في الغني الشاكر والفقير الصابر أيهما أفضل فرجح هذا طائفة من العلماء والعباد ورجح هذا طائفة من العلماء والعباد وقد حكي في ذلك عن الامام أحمد روايتان، وأما الصحابة والتابعون فلم ينقل عنهم تفضيل أحد الصنفين على الآخر .

وقالت طائفة ثالثة: ليس لأحدهما على الآخر فضيلة إلا بالتقوى فأيهما كان أعظم إيماناً وتقوى كان أفضل، وإن استويا في ذلك استويا في الفضيلة وهذا أصح الأقوال، لأن الكتاب والسنة إنما تفضل بالإيمان والتقوى وقد قال الله تعالى (إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما).

وقال القرطبي: ذهب قوم إلى تفضيل الغني : لأن الغني مقتدر والفقير عاجز والقدرة أفضل من العجز، قال الماوردي: وهذا مذهب من غلب عليه حب النباهة، وذهب آخرون إلى تفضيل الفقير : لأن الفقير تارك والغني ملابس، وترك الدنيا أفضل من ملابستها . قال الماوردي: وهذا مذهب من غلب عليه حب السلامة.

وذهب آخرون إلى تفضيل التوسط بين الأمرين بأن يخرج من حد الفقر إلى أدنى مراتب الغنى ليصل إلى فضيلة الأمرين.

قال الماوردي: وهذا مذهب من يرى تفضيل الاعتدال، وأن خيار الأمور أوساطها.

وقال ابن هبيرة الوزير الحنبلي: ولو لم يكن في الفقر إلا أنه باب رضا الله ولو لم يكن في الغنى إلا أنه باب سخط الله، لأن الإنسان إذا رأى الفقير رضي عن الله في تقديره، وإذا رأى الغني تسخط بما هو عليه، وذلك يكفي في فضل الفقير على الغني.

٥-شدة فتنة المال .

٢ – باب لاَ تَدْخُلُوا مَسَاكِنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ إِلاَّ أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ

عَن عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ يَقُولُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لأَصْحَابِ الْحِجْرِ (لاَ تَدْخُلُوا عَلَى هَؤُلاَءِ الْقَوْمِ الْمُعَذَّبِينَ إِلاَّ أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَلاَ تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَهُمْ) .

[خ : ٣٣٨١] .

==========

(**قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لأَصْحَابِ الْحِجْرِ**) أي : في شأنهم ، وكان ذلك في غزوة تبوك .

وكانت ثمود بعد عاد، ومساكنهم مشهورة فيما بين الحجاز والشام إلى وادي القرى وما حوله، وقد مر رسول الله ﷺ على قراهم ومساكنهم، وهو ذاهب إلى تبوك سنة تسع.

قال الرازي: قال أبو عمرو بن العلاء: سميت ثموداً لقلة مائها من الثمد، وهو الماء القليل، وكانت مساكنهم الحجر بين الحجاز والشام وإلى وادي القرى، وقيل سميت ثمود لأنه اسم أبيهم الأكبر وهو ثمود بن عاد بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام .

(**لاَ تَدْخُلُوا عَلَى هَؤُلاَءِ الْقَوْمِ الْمُعَذَّبِينَ**) يعني: ديار هؤلاء، وهم أصحاب الحجر، قوم ثمود، وهؤلاء قوم صالح؛ وهذا يتناول مساكن ثمود وغيرهم، ممن هو كصفتهم، وإن كان السبب ورد فيهم .

(**أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَهُمْ**) أي : لئلا يصيبكم، ويجوز الجزم على أنها ناهية، وهو أوجه، وهو نهيٌ بمعنى الخبر، وفي الرواية التالية (حذراً أن يصيبكم مثل ما أصابهم) وفيه للبخاريّ بلفظ (أن يصيبكم) أي: خشية أن يصيبكم .

١-الحديث دليل على النهي عن سكنى ديار المعذبين .

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في فتح الباري: فيه الزجر عن السكن في ديار المعذبين والإسراع عند المرور بها.

وقال البغوي في شرح السنة: فيه دليل أن ديار هؤلاء لا يتخذ مسكناً ووطناً، لأنه لا يكون دهره باكياً أبداً، وقد نهى أن يدخلها إلا هكذا.

ونقله القاري في مرقاة المفاتيح ثم قال: ويلائمه ظاهر قوله تعالى تقريعاً وتوبيخاً (وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم) وفيه تنبيه نبيه على أن الأماكن لها تأثير من عند الله تعالى بالنسبة إلى سكانها محنة ومنحة.

وقال ابن بطال: قال المهلب: إنما هذا من جهة التشاؤم بالبقعة التي نزل بها سخط الله، يدل على ذلك قوله تعالى (وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال) فوبخهم تعالى على ذلك.

وقال النووي رحمه الله: فِيهِ: الْحَثّ عَلَى الْمُرَاقَبَة عِنْد الْمُرُور بِدِيَارِ الظَّالِمِينَ، وَمَوَاضِع الْعَذَاب ...، فَيَنْبَغِي لِلْمَارِّ فِي مِثْل هَذِهِ الْمَوَاضِع الْمُرَاقَبَة، وَالْخَوْف، وَالْبُكَاء، وَالِاعْتِبَار بِهِمْ، وَبِمَصَارِعِهِمْ، وَأَنْ يَسْتَعِيذ بِاَللَّهِ مِنْ ذَلِك.

وقد أفتى العلماء المعاصرون بحرمة زيارة أماكن المعذّبين، والذين ظلموا:

سئل الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: عن حكم قصد مدائن " صالح " بالزيارة.

فأجاب: أمَّا المرور عليها: فقد مرَّ بها النبي ﷺ لكنَّه أسرع عليه السلام، وقنَّع رأسه، وقال عليه السلام (لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين خشية أن يصيبكم ما أصابهم، فإن لم تكونوا باكيين فلا تدخلوا عليها) فلا يجوز للإنسان أن يذهب إلى هذه المدائن للتفرج، والنزهة، بل للاعتبار الذي يصحبه البكاء، وإلا فالسلامة في تركها، وقول الرسول ﷺ (أن يصيبكم ما أصابهم) ليس مراده العذاب العام؛ لأن هذه الأمَّة – والحمد لله – لا تعذب بصفة عامة، لكن أن يصيبكم ما أصابهم من قسوة القلب، والإعراض، والتولي عن الدِّين.

وحكمة ذلك: أن الناس الذين يذهبون إلى هذه البلاد على غير الوجه الذي أراد الرسول عليه السلام: سوف يقع في نفوسهم تعظيم هؤلاء؛ لما يرون من إحكام البناء، وشدته، وقوته، وإذا وقع تعظيم الكافر في قلب المؤمن: فإنه على خطر عظيم. (لقاء الباب المفتوح)

٢-ويلحق بديار ثمود غيرها لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ونبه على ذلك ابن حجر بقوله: "وهذا يتناول مساكن ثمود وغيرهم ممن هو كصفتهم وإن كان السبب ورد فيهم .

وقد ورد عن علي رضي الله عنه قوله: (إن حبيبي النبي ﷺ نهاني أن أصلي في أرض بابل فإنها ملعونة) .

وقال: ما كنت أصلي بأرض خسف بها ثلاث مرات .

وكره أحمد ذلك موافقة له .

وذكر شيخ الإسلام بأن الحديث المشهور في الحجر -المتقدم ذكره- يوافق هذا، فإنه إذا كان قد نهى عن الدخول إلى أرض العذاب دخل في ذلك الصلاة وغيرها من باب أولى، ويوافق ذلك قوله سبحانه عن مسجد الضرار: (لا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً) فإنه كان من أمكنة العذاب.

وبناء على ذلك فكل ما كان وقع عليه عذاب الله وسخطه وعقوبته لا يجوز دخوله إلا على الكيفية المذكورة في الحديث للعلة الجامعة بينه وبين ما ورد النص بشأنه كما تقدم.

٣-يجوز دخول ديار المعذبين بهذا الشرط : وهو الاعتبار والاتعاظ والتفكر ، ويدل للجواز :

أ- عموم الأدلة الآمرة بالاعتبار بأحوالهم .

كقوله تعالى: (وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ) أي: تمرون بديار هؤلاء الأقوام .

وقوله: (وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ) أي: أنكم تمرون عليها في سبيلكم وطريقكم .

وقوله: (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) .

وقوله: (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا) فدلت على جواز السفر إلى منازل هؤلاء ودخولها للعظة والعبرة والنظر في قوتهم وحيلهم مع قلة الإمكانات في ذلك الزمن والتفكر بقدرة الله وعظمته وجبروته وكيف أهلكهم وعاقبهم لما عصوه.

ب – أن النهي عن دخول ديار المعذبين استثني منه الدخول بهيئة مخصوصة من الخوف والبكاء مع الإسراع وعدم النزول وذلك للاتعاظ والاعتبار، وقرر الفقهاء جواز الدخول على هذه الهيئة لفعله ﷺ في ديار ثمود ووادي محسر فإنه لم يمنع الدخول مطلقاً فدل ذلك على جواز الدخول بتلك الهيئة لمصلحة راجحة.

أما دخولها للفرجة والسياحة والترويح باعتبارها تراثاً حضارياً أو دخولها للاستقرار والسكنى بها أو زيارتها للإعجاب بها وتعظيمها فإنه مورد النهي في الأحاديث السابقة.

وهو مخالف للحالة التي أمر ﷺ أن يتصف بها المؤمن في هذا الموقف وغالب زوارها الآن من هذا القبيل فتجدهم يمكثون فيها وتنتابهم الفرحة والاعتزاز بما يشاهدونه من آثار، إضافة إلى ما يصاحب ذلك من منكرات وتبرج وسفور وتعاطي للمحرمات وغيرها من المعاصي .

قال الشيخ ابن عثيمين : أنَّ السيرَ في الأرض في أرض المكذبين وبيان ما أحلَّ الله بهم من النكال إذا كان على سبيل العبرة فلا بأس به، على سبيل العبرة بما جرى لهم من الهلاك، لا العبرة بما كان لهم القوة، وبناء على ذلك نعرف أن الذين يذهبون الآن إلى ديار ثمود للاطِّلاع على قوتهم والاعتبار بصنعتهم على خطأ عظيم؛ لأنهم لم يسيروا في الأرض السيرَ الذي أمر الله به، بل ساروا في الأرض السير الذي نهى عنه رسول الله ﷺ فقد قال النبي عليه السلام: (لَا تَدْخُلُوا عَلَى هَؤُلَاءِ الْمُعَذَّبِينَ إِلَّا وَأَنْتُمْ بَاكُونَ أَنْ يُصِيبَكُمْ مَا أَصَابَهُمْ، فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَلَا تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ) .

٤-الاعتبار والاتعاظ والتفكر بما حل بالمكذبين والاتعاظ ... ومعنى التفكر والاعتبار الذي يشترط لزيارة ديار ثمود؟

أ-التفكر في عظمة الله سبحانه وشدة نقمته وعذابه لمن كفر به وأنه شديد المحال، فكل من دخل أماكن العذاب أو مرّ بها فينبغي عليه أن يستصحب الخوف من الله، والاستشعار لعظيم نقمة الله عز وجل، وأنه الجبّار المنتقم، فإذا شاء أَخَذَ أَخْذَ عزيزٍ مقتدرٍ (إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُون).

ب-الاعتبار بحال ثمود لما كفروا مع ما آتاهم الله من النعم والقوة، فاستحبوا العمى على الهدى، وضلوا بعد ما أرسل الله لهم الآيات والرسل، فما أغنت عنهم قوتهم وجبروتهم لما كفروا بالله، وكيف تعدى أثر وشؤم معصيتهم إلى المكان والماء والتراب.

ج- الاعتبار بحال الزائر نفسه، وعظم نعمة الله عليه بتوفيقه للإيمان، واعتباره بغيره، وتمكينه من الاستدراك، وإمهاله مع العصيان، ومسامحته مع الزلل، فيستدرك ما فاته ويحاسب نفسه . (كشف المشكل لابن الجوزي)

وينبغي أن يكون الاعتبار والتفكر مصاحباً للزائر طوال زيارته ويذكر نفسه به .

قال ابن حجر: "قوله: (إلا أن تكونوا باكين) ليس المراد الاقتصار في ذلك على ابتداء الدخول، بل دائمًا عند كل جزء من الدخول، وأما الاستقرار فالكيفية المذكورة مطلوبة فيه بالأولوية" (فتح الباري)

٥-أن الدَّاخِلَ دارَ قومٍ أُهْلِكوا بِخَسْفٍ أو عَذَابٍ إذا لم يَكُنْ باكيًا -إمَّا شَفَقَةً عليهم، وإمَّا خَوْفًا مِن حُلولِ مِثْلِه به- كان قَاسِيَ القلبِ قَليلَ الخشوعِ، فلا يَأْمَنُ إذا كان هكذا أنْ يُصِيبَه ما أصابَهُم.

٦-التَّفكُّرُ في أحوالِ مَن أهْلَكَهم اللهُ تعالَى، والحَذَرُ ممَّا وقَعوا فيه؛ والحذرُ مِن الغَفلةِ عن تَدبُّرِ الآياتِ؛ لأنَّ مَن رأَى ما حلَّ بالعُصاةِ ولم يَتنبَّهْ بذلك مِن غَفلتِه، ولم يَتفكَّرْ في حالِهم، ويَعتبِرْ بهم؛ فإنَّه يُخشَى حُلولُ العُقوبةِ به؛ فإنَّها إنَّما حلَّتْ بالعُصاةِ لغَفلتِهم عن التَّدبُّرِ، وإهمالِهم اليقظةَ والتَّذكُّرَ.

٣ – باب الإِحْسَانِ إِلَى الأَرْمَلَةِ وَالْمِسْكِينِ وَالْيَتِيمِ

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِي ﷺ قَالَ (السَّاعِي عَلَى الأَرْمَلَةِ وَالْمِسْكِينِ كَالْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ – وَأَحْسِبُهُ قَالَ – وَكَالْقَائِمِ لاَ يَفْتُرُ وَكَالصَّائِمِ لاَ يُفْطِرُ) .

[خ : ٥٣٥٣] .

==========

(**السَّاعِي**) المراد بالساعي: الكاسب لهما العامل لمؤنتهما، قاله النوويّ.

وقال في "الفتح": معني الساعي: الذي يذهب ويجيء في تحصيل ما ينفع الأرملة، والمسكين.

(**عَلَى الأَرْمَلَةِ**) هي: من لا زوج لها، سواء كانت تزوجت أم لا، وقيل: هي التي، فارقت زوجها.
قال ابن قتيبة: سُمّيت أرملة؛ لِمَا يحصل لها من الإرمال، وهو الفقر، وذهاب الزاد بفقد الزوج، يقال: أرمل الرجل إذا فني زاده.
(**والْمِسْكِينِ**) هو من لا شيء له، وقيل: من له بعض الشيء، وقد يقع على الضعيف، وفي معناه الفقير، بل بالأَولى عند بعضهم.
قال الصنعاني -رحمه الله-: (الساعي على الأرملة والمسكين) الذي يذهب ويجيء في مصالحهما، والأرملة: التي لا زوج لها، والمراد: الكافِل لهما، العامل لِمُؤْنَتِهِمَا الذي يذهب ويجيء في قضاء حوائجهم .
(**كَالْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللهِ**) أي: لإعلاء كلمة الله تعالى؛ أي: ثواب القائم بأمرهما، وإصلاح شأنهما، والإنفاق عليهما، كثواب الغازي في جهاده، فإن المال شقيق الروح، وفي بذله مخالفة النفس، ومطالبة رضا الرب.
(**كَالْقَائِمِ لاَ يَفْتُرُ وَكَالصَّائِمِ لاَ يُفْطِرِ**) هما عبارتان عن الصوم بالنهار، والقيام بالليل، كقولهم: نهاره صائم، وليله قائم، يريدون الديمومة.
١ - الحديث دليل على الفضل العظيم والأجر الكبير في السعي على الأرملة والمسكين.
فمعنى الحديث: أن من سعى على الأرملة، وهي من فقدت زوجها، أو من لا زوج لها، فعمل لها، وكذلك من سعى على حاجة المسكين، وهو من لا يجد كفايته، فإن أجره كأجر المجاهد في سبيل الله، وكأجر الصائم القائم .
قال القرطبي -رحمه الله-: وإنما شَبَّه الساعي على الأرملة بالمجاهد؛ لأن القيام على المرأة بما يُصْلِحُها وما يحفظها ويصونها لا يتصور الدوام عليه إلا مع الصبر العظيم، ومجاهدة النفس والشيطان؛ فإنهما يُكَسِّلان عن ذلك، ويُثَقِّلانه ويُفْسِدَان النِّيَّات في ذلك، وربما يَدْعُوَان بسبب ذلك إلى السوء، ويُسَوِّلَانِه؛ ولذلك قلَّ مَن يدوم على ذلك العمل، وأقلَّ مِن ذلك مَن يسلم منه، فإذا حصل ذلك العمل حصَلَت منه فوائد كَشْفِ كَرْبِ الضعفاء، وإبقاء رَمَقِهِم، وسَدِّ خُلَّتِهم، وصَوْنِ حُرْمَتِهم .
قال ابن هبيرة: والمراد أن الله تعالى يجمع له ثواب الصائم والقائم والمجاهد في دفعة؛ وذلك أنه قام للأرملة مقام زوجها الذي سلبها إياه القدر، وأرضاها عن ربها، وقام على ذلك المسكين الذي عجز عن قيامه بنفسه؛ فأنفق هذا فضل قوته، وتصدق بجَلَدِه؛ فكان نفعه إذا يكافئ الصوم والقيام والجهاد . انتهى.
قال ابن بطال: من عجز عن الجهاد والقيام (ونافلة) الصيام فليعمل بهذا الحديث ليحشر مع المجاهدين دون أن يخطو خطوة أو يلقى عدواً يرتاع بلقائه. وليحشر في زمرة القائمين والصائمين وهو طاعم نائم مدة حياته.
٢ - أن من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته.
عن ابن عمر رضي الله عنهما: أنَّ رَسُول الله ﷺ قَال (المسْلِمُ أَخُو المسْلِم، لا يَظْلِمهُ، وَلاَ يُسْلمُهُ. مَنْ كَانَ في حَاجَة أخيه، كَانَ اللهُ في حَاجَته، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِم كُرْبَةً، فَرَّجَ اللهُ عَنْهُ بها كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَومِ القِيَامَةِ) رواه مسلم.
وفي حديث أبي هريرة. قال: قال ﷺ (والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه) رواه مسلم.
وفي حَدِيثِ جَابِرٍ ﷺ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَال (مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَنْفَعَ أَخَاهُ فَلْيَفْعَل) رواه مسلم.
قال ابن رجب: وخرَّج الطبراني من حديث عمر مرفوعاً (أفضلُ الأعمال إدخالُ السُّرور على المؤمن: كسوت عورته، أو أشبعت جَوْعَتُه، أو قضيت له حاجة).

وبعث الحسنُ البصريُّ قوماً من أصحابه في قضاء حاجة لرجل وقال لهم: مرُّوا بثابت البناني، فخذوه معكم، فأتوا ثابتاً، فقال: أنا معتكف، فرجعوا إلى الحسن فأخبروه، فقال: قولوا له: يا أعمش أما تعلم أنَّ مشيك في حاجةِ أخيك المسلم خير لك مِنْ حجة بعد حَجَّةٍ؟ فرجعوا إلى ثابتٍ، فترك اعتكافه، وذهب معهم.

وخرَّج الإمام أحمد من حديث ابنةٍ لخبَّاب بن الأرت، قالت: خرج خبَّاب في سريَّةٍ، فكان النَّبيُّ ﷺ يتعاهدُنا حتى يحلُب عنْزةً لنا في جَفْنَةٍ لنا، فتمتلئ حتّى تفيضَ، فلمَّا قدم خبَّابٌ حلبَها، فعادَ حِلابها إلى ما كان.

وكان أبو بكر الصدّيق ﷺ يحلبُ للحيّ أغنامهم، فلمَّا استخلف، قالت جاريةٌ منهم: الآن لا يحلُبُها، فقال أبو بكر: بلى وإني لأرجو أن لا يغيّرني ما دخلتُ فيه عن شيءٍ كنتُ أفعلُه، أو كما قال.

وكان عمر يتعاهد الأرامل فيستقي لهنَّ الماءَ باللَّيل، ورآه طلحةُ بالليل يدخلُ بيتَ امرأةٍ، فدخلَ إليها طلحةُ نهاراً، فإذا هي عجوزٌ عمياءُ مقعدةٌ، فسألها: ما يصنعُ هذا الرَّجلُ عندك؟ قالت: هذا له منذ كذا وكذا يتعاهدني يأتيني بما يُصلِحُني، ويخرج عنّي الأذى، فقال طلحة: ثكلتك أمُّكَ طلحةُ، عثراتِ عمر تتبع؟

وكان أبو وائل يطوفُ على نساء الحيّ وعجائزهم كلَّ يوم، فيشتري لهنَّ حوائجهنّ وما يُصلِحُهُنَّ.

وقال مجاهد: صحبتُ ابنَ عمر في السفر لأخدمه، فكان يخدُمُني.

وكان كثيرٌ من الصَّالحِين يشترطُ على أصحابه في السفر أنْ يخدُمَهم. ... (جامع العلوم).

قال ابن القيم – رحمه الله – في وصف شيخ الإسلام ابن تيميه: كان شيخ الإسلام يسعى سعياً شديداً لقضاء حوائج الناس.

قال الذهبي عن شيخ الإسلام رحمه الله ابن تيمية: وله محبون من العلماء، والصلحاء، ومن الجند، والأمراء، ومن التجار والكبراء وسائر العامة تحبه، لأنه منتصب لنفعهم ليلًا ونهارًا، بلسانه وقلمه.

كان علي بن الحسين – رحمه الله – يحمل الخبز إلى بيوت المساكين في الظلام فلما مات فقدوا ذلك، كان ناس من أهل المدينة يعيشون ولا يدرون من أين معاشهم فلما مات علي بن الحسين فقدوا ذلك الذي كان يأتيهم بالليل.

٣-**قال ابن رجب**: وحب المساكين مستلزم لإخلاص العمل لله تعالى، والإخلاص هو أساس الأعمال الذي لا تثبت الأعمال إلا عليه.

ولم يزل السلف يوصون بحب المساكين:

كتب الثوري إلى بعض إخوانه: عليك بالفقراء والمساكين والدنو منهم ، فإن رسول الله ﷺ كان يسأل ربه حب المساكين.

ويروى عن أبي هريرة قال: كان جعفر بن أبي طالب يحب المساكين ويجلس إليهم ويحدثهم ويحدثونه، وكان النبي ﷺ يكنيه أبا المساكين.

وكانت زينب بنت خزيمة تسمى أم المساكين لكثرة إحسانها إليهم ، وتوفيت في حياة النبي ﷺ .

ومر الحسن بن علي على مساكين يأكلون ، فدعوه فأجابهم وأكل معهم وتلا (إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِين).

وكان ابن عمر لا يأكل غالباً إلا مع المساكين ، وكان يقول: لعل بعض هؤلاء أن يكون ملكاً يوم القيامة.

وكان سفيان الثوري يعظم المساكين ، ويجفو أهل الدنيا ، فكان الفقراء في مجلسه هم الأغنياء والأغنياء هم الفقراء.

وقال سليمان التيمي: كنا إذا طلبنا علية أصحابنا وجدناهم عند الفقراء والمساكين.

وقال الفضيل: من أراد عز الآخرة فليكن مجلسه مع المساكين.

٤ – من فوائد السعي في نفع المساكين أن الإنسان يشكر الله على ما أنعم الله عليه من الخير، ويحبهم.

وفي الحديث قال ﷺ (اللهم إني أسألك فعل الخيرات ... وحب المساكين).

قال ابن رجب: اعلم أن محبة المساكين لها فوائد كثيرة:

منها: أنها توجب إخلاص العمل لله.

لأن الإحسان إليهم لمحبتهم لا يكون إلا لله تعالى ، لأن نفعهم في الدنيا لا يرجى غالباً.

ومنها: أنها تزيل الكبْر.

لأن المستكبر لا يرضى مجالسة المساكين ، كما سبق عن رؤساء قريش والأعراب.

ومنها: أنه يوجب صلاح القلب وخشوعه.

ففي حديث أبي هريرة (أن رجلاً شكى إلى رسول الله ﷺ قسوة قلبه، فقال له: إن أحببتَ أن يلين قلبُك فأطعم المسكين، وامسح رأس اليتيم) رواه أحمد.

ومنها: أن مجالسة المساكين توجب رضى من يجالسهم برزق الله عز وجل ، وتعظم عنده نعمة الله.

ومجالسة الأغنياء توجب التسخط بالرزق ومد العين إلى زينتهم وما هم فيه، وقد نهى الله عز وجل نبيه ﷺ عن ذلك فقال تعالى (وَلا تَمُدَّنَ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى) وقال ﷺ (انظروا إلى من دونكم ، ولا تنظروا إلى من فوقَكم ، فإنه أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم).

ومنها: أن النبي ﷺ أوصى بحب المساكين.

قال أبو الدرداء (أوصاني رسول الله ﷺ أن أنظر إلى دوني، ولا أنظر إلى من فوقي، وأوصاني أن أحب المساكين وأن أدنو منهم).

وكان عون بن عبد الله يجالس الأغنياء فلا يزال في غم، لأنه لا يزال يرى من هو أحسن منه لباساً ومركباً وطعاماً ومسكناً، فتركهم وجالس المساكين فاستراح.

ويروى أن داود كان يجالس المساكين ويقول: مسكين بين مساكين.

٥ – حرص الإسلام على الفقراء والضعفاء.

٦ – فضل الجهاد في سبيل الله.

٧–أن الجهاد أنواع: فمنه الجهاد بالنفس، ومنه الجهاد بالمال، ومنه الجهاد بالكلمة.

٨–ينبغي للمحْسِن أن يُحْسِن على المحتاجين؛ لقوله: «الساعي...» وهذا يدل على حِرْصِهِ على الإحسان والإنفاق .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (كَافِلُ الْيَتِيمِ لَهُ أَوْ لِغَيْرِهِ أَنَا وَهُوَ كَهَاتَيْنِ فِي الْجَنَّةِ ». وَأَشَارَ مَالِكٌ بِالسَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى) .

==========

تنبيه : الحديث جاء عند البخاري : عن سهل بن سعد ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ (أَنَا وَكَافِلُ اليَتِيمِ فِي الجَنَّةِ هَكَذا» وَأَشارَ بالسَّبَّابَةِ وَالوُسْطَى، وَفَرَّجَ بَيْنَهُمَا) .

(أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيم) قال النووي: و"كَافِلُ الْيَتِيم": الْقَائِمُ بِأُمُورِهِ.

واليتيم في الشَّرع: هو مَن مات أبوه وهو دون البلوغ، وبعد البلوغ لا يسمَّى يتيمًا؛ لقول رسول الله ﷺ : لا يُتْمَ بعد احتِلام، ولا يُتْم على جارية إذا هي حاضت. رواه الطبراني، وقال الهيثمي: رجاله ثقات.

فلفظ اليتيم الوارد في الكتاب والسنَّة يُراد به مَن مات أبوه وهو لَمْ يبلُغ –من الذُّكور والإناث– الحُلُم.

(**السَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى**) إشارة إلى تقارب المنزلتين، وقال في "الفتح": قوله: "وأشار بإصبعيه السبابة"، في رواية الكشميهنيّ: "السبّاحة" بمهملة، بدل الموحّدة الثانية، و"السبّاحة" هي الإصبع التي تلي الإبهام، سُمّيت بذلك؛ لأنها يُسَبَّح بها في الصلاة، فيشار بها في التشهد لذلك، وهي السبابة أيضًا، لأنها يُسَبُّ بها الشيطان حينئذٍ.

وفي الرواية الأخرى للبخاري (وفرج بينهما) أي: بين السبابة والوسطى.

١ – الحديث دليل على فضل كفالة اليتيم، وأن ذلك من أسباب دخول الجنة ، وهذا الأجر سواء كان اليتيم له أو لغيره:

لقوله (كَافِلُ الْيَتِيمِ لَهُ أَوْ لِغَيْرِهِ).

قال النووي: قَوْله (لَهُ أَوْ لِغَيْرِهِ) فَالَّذِي لَهُ أَنْ يَكُون قَرِيبًا لَهُ كَجَدِّهِ وَأُمّه وَجَدَّته وَأَخِيهِ وَأُخْته وَعَمّه وَخَاله وَعَمَّته وَخَالَته وَغَيْرهمْ مِنْ أَقَارِبه، وَالَّذِي لِغَيْرِهِ أَنْ يَكُون أَجْنَبِيًّا. (نووي)

وأخرج البزار من حديث أبي هريرة موصولاً (من كفل يتيمًا ذا قرابة، أو لا قرابة له) وهذه الرواية تفسر المراد بالرواية التي قبلها.

وكفالة اليتيم من الأمور التي جاءت الشريعة بالحث عليها والترغيب بها:

قال تعالى (يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ).

وقال تعالى (وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ).

وقال النبي ﷺ (من ضم يتيماً بين مسلمين في طعامه وشرابه حتى يستغني عنه وجبت له الجنة) رواه أبو يعلى والطبراني وأحمد مختصراً بإسناد حسن كما قال الحافظ المنذري .

وعن أبي الدرداء ﷺ قال (أتى النبي ﷺ رجل يشكو قسوة قلبه؟ قال: أتحب أن يلين قلبك وتدرك حاجتك؟ ارحم اليتيم وامسح رأسه وأطعمه من طعامك يلن قلبك وتدرك حاجتك) رواه الطبراني.

وبخ سبحانه من لم يكرم يتيمًا.

فقال تعالى: (كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ).

وقرن دعَّه وهو قهره وظلمه بالتكذيب بيوم الدين.

فقال سبحانه: (فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ).

ونهى الله صفوة خلقه أن يقهر أحدًا منهم.

فقال تعالى (فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ).

وقد أمر الله بحفظ أموالهم، ونهى عن قربها إلا بالحسنى.

قال تعالى (وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّه).

ولا يتولى أموالهم إلا القوي الأمين، ونهى النبي ﷺ الضعيف أن يتولى شيئًا من أموالهم.

فقال ﷺ ("يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنِّي أَرَاكَ ضَعِيفًا، وَإِنِّي أُحِبُّ لَكَ مَا أُحِبُّ لِنَفْسِي، لا تَأَمَّرَنَّ عَلَى اثْنَيْنِ، وَلا تَوَلَّيَنَّ مَالَ يَتِيم) رواه مسلم.

وإطعام الأيتام سبب لدخول الجنة.

قال تعالى (وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيراً).

روى البخاري في الأدب المفرد: أن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما كان لا يأكل طعامًا إلا وعلى خوانه يتيم.

ومن أراد تليين قلبه فليطعم المسكين، وليمسح رأس اليتيم،

قال ﷺ (إِنْ أَرَدْتَ أَنْ يَلِينَ قَلْبُكَ، فَأَطْعِمِ الْمِسْكِينَ، وَامْسَحْ رَأْسَ الْيَتِيمِ) رواه أحمد.

وأطيب المال ما أُعطي منه اليتيم:

قال ﷺ (إِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، فَنِعْمَ صَاحِب المسلِم مَا أَعْطى مِنهُ المِسْكِين، واليَتِيم، وابْنَ السَّبِيل).

وعد الشارع الاعتداء على مال اليتيم من كبائر الذنوب.

قال تعالى (وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيراً).

وقال ﷺ (اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَات: وذكر منها: أَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ).

والإنفاق على اليتيم سبيل للنجاة من الكروب والخطوب والمزالق والمخاطر.

قال الله في كتابه العزيز: (فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ * يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَة).

ولقد جعل النبي ﷺ حق الضعيفين: اليتيم والمرأة من أولى الحقوق بالرعاية والعناية.

عَنْ أَبِي شُرَيْحٍ الْخُزَاعِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ (اللَّهُمَّ إِنِّي أُحَرِّجُ حَقَّ الضَّعِيفَيْنِ: حَقَّ الْيَتِيمِ، وَحَقَّ الْمَرْأَة).

٢ – معنى كفالة اليتيم:

قال النووي (كَافِل الْيَتِيم) الْقَائِم بِأُمُورِهِ مِنْ نَفَقَة وَكِسْوَة وَتَأْدِيب وَتَرْبِيَة وَغَيْر ذَلِكَ، وَهَذِهِ الْفَضِيلَة تَحْصُل لِمَنْ كَفَلَهُ مِنْ مَال نَفْسه، أَوْ مِنْ مَال الْيَتِيم بِوِلَايَةٍ شَرْعِيَّة.

وقال في "الفتح": قوله: (أنا وكافل اليتيم) أي: القيّم بأمره ومصالحه، وفي رواية (كافل اليتيم له، أو لغيره).

وقال ابن الأثير: (الكافل هو القائم بأمر اليتيم، المربي له).

ولما عرف النووي رحمه الله، في كتابه رياض الصالحين، كافل اليتيم بأنه القائم بأموره، قال شارحه: (ديناً ودنياً، وذلك بالنفقة والكسوة، وغير ذلك). (دليل الفالحين)

وقال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: كفالة اليتيم هي القيام بما يصلحه في دينه ودنياه؛ بما يصلحه في دينه من التربية والتوجيه والتعليم، وما أشبه ذلك، وما يصلحه في دنياه من الطعام والشراب والمسكن.

قال ابن بطال: حقّ على من سمع هذا الحديث أن يَعمل به؛ ليكون رفيق النبيّ ﷺ في الجنة، ولا منزلة في الآخرة أفضل من ذلك.

٣ – قوله (وَقَالَ بِإِصْبَعَيْهِ السَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى) زاد في رواية (وفرّج بينهما) أي: بين السبابة والوسطى.

وفيه إشارة إلى أن بين درجة النبيّ ﷺ وكافل اليتيم قَدْر تفاوت ما بين السبابة والوسطى، وهو نظير الحديث الآخر: "بُعثت أنا والساعة كهاتين ... " الحديث.

وزعم بعضهم أنه ﷺ لما قال ذلك استوت إصبعاه في تلك الساعة، ثم عادتا إلى حالهما الطبيعية الأصلية؛ تأكيدًا لأمر كفالة اليتيم، وتعقّبه الحافظ قائلًا: مثل هذا لا يثبت بالاحتمال، ويكفي في إثبات قرب المنزلة من المنزلة أنه ليس بين الوسطى والسبابة إصبع أخرى.

وقد وقع في رواية لأم سعيد عند الطبرانيّ: "معي في الجنة كهاتين– يعني: المسبحة والوسطى– إذا اتقى".

وَيحْتَمِل أن يكون المراد: قرب المنزلة حالة دخولي الجنة؛ لِمَا أخرجه أبو يعلي من حديث أبي هريرة ﷺ رفعه (أنا أول من يفتح باب الجنة، فإذا امرأة تبادرني، فأقول: من أنت؟ فتقول: أنا امرأة تأيمت على أيتام لي) ورواته لا بأس بهم.

وقوله (تبادرني) أي: لتدخل معي، أو تدخل في إثري.

وَيحْتَمِل أن يكون المراد مجموع الأمرين: سرعة الدخول، وعلوّ المنزلة. (الفتح)

٤ – قال الحافظ: قال شيخنا في شرح الترمذي: لعل الحكمة في كون كافل اليتيم يشبه في دخول الجنة، أو شبهت منزلته في الجنة بالقرب من النبي ﷺ أو منزلة النبي ﷺ: لكون النبي ﷺ شأنه أن يبعث إلى قوم لا يعقلون أمر دينهم فيكون كافلاً لهم ومعلماً ومرشداً، وكذلك كافل اليتيم يقوم بكفالة من لا يعقل أمر دينه بل، ولا دنياه، ويرشده، ويعلمه، ويحسن أدبه فظهرت مناسبة ذلك.

٥ – هل يدخل في كفالة اليتيم مَن يربِّي اليتيم ويُنفق عليه من مال اليتيم؟

فمثلاً بعض النَّاس يتوفَّى قريبه –كأخيه– ثمَّ يتزوَّج زوجته ويقوم بحضانة أبناء أخيه وتربيتهم؛ لكنَّه ينفق عليهم من المال الَّذي يأتيهم من قِبَل أبيهم، من معاش تقاعدي أو إرث، ولا ينفق عليهم من ماله الخاصِّ، فهل هذا داخل في كفالة اليتيم؟!

أجاب النووي بقوله: كافِل اليتيم القائم بأمورِه، من نفقة وكسْوة، وتأْديب وتربية، وغير ذلك، وهذه الفضيلة تحصُل لِمن كفله من مالِ نفسه أو من مال اليتيم بولاية شرعيّة.

٦ – من النماذج المشرقة لصغارٍ عاشوا حياة اليتم، ونفع الله بهم، وأصبحوا من علماء الأمة، وجهابذة العلم:

الإمام الشافعي رحمه الله، فقد أباه وهو دون العامين، فنشأ في حجر أمه في قلة من العيش، وضيق من الحال، يقول: كنت يتيمًا في حجر أمي، ولم يكن معها ما تعطي المعلم، وكان المعلم قد رضي مني أن أخْلفه إذا قام. وقد حفظ القرآن، وجالس العلماء، حتى ساد أهل زمانه.

ومنهم الإمام أحمد بن حنبل مات والده وهو حمل في بطن والدته، وعاش حياة فقر وفاقة، فحضنته أمه وأدبته، وأحسنت تربيته، قال رحمه الله: كانت أمي توقظني قبل الفجر بوقت طويل وعمري عشر سنين، وتدفئ لي الماء في الشتاء، ثم نصلي أنا وإياها ما شئنا من صلاة التهجد، ثم تنطلق بي إلى المسجد في طريق بعيد مظلم موحش لتصلي معي صلاة الفجر في المسجد، وتبقى معي حتى منتصف النهار تنتظر فراغي من طلب العلم وحفظ القرآن.

ومنهم الإمام البخاري صاحب الصحيح، فقد نشأ يتيمًا في صغره، وقرأ على ألف شيخ، وصنف كتابه الصحيح، وغيره من الكتب النافعة.

فبصبر الأمهات وجهادهن خرج هؤلاء العلماء الأفذاذ.

٤ – باب فَضْلِ بِنَاءِ الْمَسَاجِدِ

عن عُثْمَان بْن عَفَّانَ . قال : قال ﷺ (مَنْ بَنَى مَسْجِدًا يَبْتَغِى بِهِ وَجْهَ اللَّهِ بَنَى اللَّهُ لَهُ مِثْلَهُ فِي الْجَنَّةِ) .

[خ : ٤٥٠] .

==========

١ – قوله (**من بنى مسجداً**) التنكير فيه للشيوع، فيدخل التكبير والتصغير، ورفع في رواية أنس عند الترمذي (صغيراً أو كبيراً).

وزاد ابن أبي شيبة في حديث الباب من وجه آخر عن عثمان (ولو كمفحص قطاة) وهذه الزيادة عند ابن حبان من حديث أبي ذر، وعند الطبراني من حديث أنس وابن عمر، وعند أبي نعيم من حديث أبي بكر.

وحمل أكثر العلماء ذلك على المبالغة، لأن المكان الذي كمفحص القطاة لتضع فيه بيضها وترقد عليه، لا يكفي مقداره للصلاة فيه.

٢ – قوله (**يَبْتَغِي بِهِ وَجْهَ اللهِ**) أي: يطلب به رضا الله، فإن الباني للرياء والسمعة والمباهاة ليس بانياً لله، وأخرج الطبراني من حديث عائشة بزيادة (لا يريد به رياء ولا سمعة).

قال ابن الجوزي: من كتب اسمه على المسجد الذي يبنيه كان بعيداً من الإخلاص.

٣ – قوله (**بَنَى اللَّهُ لَهُ مِثْلَهُ فِي الْجَنَّةِ**) قال ابن الجوزي:

يحتمل أن يكون المراد أن فضله على بيوت الجنة كفضل المسجد على بيوت الدنيا.

وقيل: أن يكون معناه بنى الله له مثله في مسمى البيت، وأما صفته في السعة وغيرها فمعلوم فضلها، أنها مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، جاء عند أحمد (بنى الله له في الجنة أفضل منه) وللطبراني (أوسع منه) وقال ﷺ (إن مما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته ... أو مسجداً بناه ...).

٤ – الحديث دليل على مشروعية بناء المساجد.

عن عائشة – رضي الله عنها – قالت (أمر رسول الله ﷺ ببناء المساجد في الدور، وأن تنظف وتطيب). رواه أحمد وأبو داود والترمذي

٥ – قوله (**من بنى لله مسجداً**) يدل على أن الأجر المذكور يحصل ببناء المسجد، لا بجعل الأرض مسجداً من غير بناء، وأنه لا يكفي في ذلك تحويطه من غير حصول مسمى البناء.

٦ – قوله (**بنى الله له بيتاً في الجنة**) وفي رواية البخاري (مثله) وقد اختلف في معنى المماثلة:

فقال ابن العربي: مثله في القدر والمساحة، ويرد هذا زيادة (بيتاً أوسع منه) عند أحمد.

وقيل: مثله في الجودة والحصانة وطول البقاء، ويرد هذا أن بناء الجنة لا يخرب بخلاف بناء المسجد فلا مماثلة.

وقال النووي: وقيل: أن يكون معناه بنى الله له مثله في مسمى البيت، وأما صفته في السعة وغيرها فمعلوم فضلها، أنها مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

وقيل: يحتمل أن يكون المراد أن فضله على بيوت الجنة كفضل المسجد على بيوت الدنيا.

٧ – وقد سئل الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: شخصان أو ثلاثة أشخاص أو أكثر اشتركوا في بناء مسجد هل يكتب لكل واحد منهم أجر بناء مسجد، أم أقل من ذلك؟

فأجاب: قال تعالى (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ) كل واحد له أجر ما عمل، لكن يكون له أجر ثان من جهة ثانية وهي التعاون على البر، لأنه لولا اجتماع هؤلاء كل واحد أتى بقليل ما قام البناء، فنقول: له أجر عمله وله أجر المساعدة والمعاضدة، مثال ذلك: رجل أنفق مائة ريال صدقة له أجرها، أنفق مائة ريال في بناء مسجد، هذه النفقة صار فيها نفع من وجهين: أولاً: العمل، يعني: أجر هذه الدراهم، والثاني: المساعدة حتى يتكون المسجد، لكن إذا تبرع هذا الرجل للمسجد بعشرين ألفاً، وهذا بعشرين ريالاً، فلا يمكن أن نقول: هم سواء، كل له أجر البناء كاملاً، هذا لا يمكن.

انظر يا أخي! الثواب حسب العمل، نقول: هذا له أجر عمله على قدر ما أنفق، وله أجر التعاون على إقامة هذا المسجد. ... (لقاء الباب المفتوح)

٥ – باب الصَّدَقَةِ فِي الْمَسَاكِينِ

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِي ﷺ قَالَ (بَيْنَا رَجُلٌ بِفَلاَةٍ مِنَ الأَرْضِ فَسَمِعَ صَوْتًا فِي سَحَابَةٍ اسْقِ حَدِيقَةَ فُلاَنٍ. فَتَنَحَّى ذَلِكَ السَّحَابُ فَأَفْرَغَ مَاءَهُ فِي حَرَّةٍ فَإِذَا شَرْجَةٌ مِنْ تِلْكَ الشِّرَاجِ قَدِ اسْتَوْعَبَتْ ذَلِكَ الْمَاءَ كُلَّهُ فَتَتَبَّعَ الْمَاءَ فَإِذَا رَجُلٌ قَائِمٌ فِي حَدِيقَتِهِ يُحَوِّلُ الْمَاءَ بِمِسْحَاتِهِ فَقَالَ لَهُ يَا عَبْدَ اللَّهِ مَا اسْمُكَ قَالَ فُلاَنٌ. لِلاِسْمِ الَّذِى سَمِعَ فِي السَّحَابَةِ فَقَالَ لَهُ يَا عَبْدَ اللَّهِ لِمَ تَسْأَلُنِي عَنِ اسْمِى فَقَالَ إِنِّي سَمِعْتُ صَوْتًا فِي السَّحَابِ الَّذِى هَذَا مَاؤُهُ يَقُولُ اسْقِ حَدِيقَةَ فُلاَنٍ لِاسْمِكَ فَمَا تَصْنَعُ فِيهَا قَالَ أَمَّا إِذَا قُلْتَ هَذَا فَإِنِّي أَنْظُرُ إِلَى مَا يَخْرُجُ مِنْهَا فَأَتَصَدَّقُ بِثُلُثِهِ وَآكُلُ أَنَا وَعِيَالِي ثُلُثًا وَأَرُدُّ فِيهَا ثُلُثَهُ) .

==========

قَالَ (بَيْنَا رَجُلٌ بِفَلاَةٍ) أي: بصحراء واسعة .

(مِنَ الأَرْضِ فَسَمِعَ صَوْتًا فِي سَحَابَةٍ اسْقِ) أي: صوتًا قائلًا: اسق .

(حَدِيقَةَ فُلاَنٍ) لرجل سماه .

(فَتَنَحَّى ذَلِكَ السَّحَابُ) معنى "تنحى": قصد، يقال: تنحيت الشيء، وانتحيته، ونَحَوْته: إذا قصدته .

(فَأَفْرَغَ) أي : صب ذلك السحاب .

(مَاءَهُ فِي حَرَّةٍ) الحرة بفتح الحاء المهملة، وتشديد الراء: هي أرض ملبّسة حجارةً سُودًا .

(فَإِذَا شَرْجَةٌ) بفتح الشين المعجمة، وإسكان الراء، وجمعها شِرَاج بكسر الشين، وهي مسائل الماء في الْحِرَار .

(فَتَتَبَّعَ) ذلك الرجل الذي سمع الهاتف .

(الْمَاءَ) الواقع في تلك الشرجة ليعلم أين تذهب هذه الشرجة بالماء .

(قَالَ) صاحب الحديقة .

(هَذَا فَإِنِّي أَنْظُرُ إِلَى مَا يَخْرُجُ مِنْهَا) من الثمار .

(فَأَتَصَدَّقُ بِثُلُثِه) على الفقراء والمساكين .

(وَآكُلُ أَنَا وَعِيَالِي ثُلُثًا) العيال : أهل البيت، ومن يمونه الإنسان .

١–الحديث دليل على فضل الصدقة والإحسان إلى المساكين والفقراء ... وأن الإنفاق على المحتاجين وتفريج كرب المسلمين هي تجارة عظيمة مع الله سبحانه وتعالى لا يخسر صاحبها أبداً، لتفضّل الكريم سبحانه وتعالى على عباده المنفقين بالبركة والنماء، والخُلف في المال، وجعل الإنفاق سبباً من أسباب الرزق، وشاهد ذلك قوله تعالى (وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين) وقوله في الحديث القدسيّ (يا بن آدم أَنفق أُنفق عليك) متفق عليه .

وَلِهَذَا كَانَ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ التُّسْتَرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ يُكْثِرُ مِنَ الْإِنْفَاقِ؛ فَلَامَهُ بَعْضُهُمْ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ لَهُمْ: أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ رَجُلًا أَرَادَ أَنْ يَرْتَحِلَ مِنْ دَارٍ إِلَى دَارٍ؛ هَلْ يُبْقِي فِي الْأُولَى شَيْئًا؟ قَالُوا: لَا، قَالَ: فَإِنِّي مُرْتَحِلٌ مِنَ الدُّنْيَا إِلَى الْآخِرَةِ.

فضائل الصدقة:

الصدقة فضلها عظيم، وأجرها كبير، وجاءت النصوص الكثيرة في فضلها:

أولاً: أنها برهان على صدق إيمان صاحبها.

لحديث أبي مالك الأشعري. قال: قال ﷺ (والصدقة برهان) رواه مسلم.

قال ابن رجب: وأما الصدقة فهي برهان، ... فكذلك الصدقة برهان على صحة الإيمان.

ثانياً: أنها تطهير للنفس.

كما قال تعالى (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ).

ثالثاً: أنها تزيد المال.

قال ﷺ (ما نقصت صدقة من مال) رواه مسلم.

رابعاً: أنها تظلل صاحبها يوم القيامة.

كما في حديث (العبد في ظل صدقته يوم القيامة) رواه ابن حبان.

خامساً: مغفرة الذنوب:

وفي الحديث (والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار) رواه الترمذي.

سادساً: يكون في ظل الله يوم لا ظل إلا ظله.

كما في حديث (وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ).

سابعاً: سبب للنجاة من النار.

كما قال ﷺ للنساء (تصدقن، فإني رأيتكن أكثر أهل النار) متفق عليه.

وقال ﷺ (اتقوا النار ولو بشق تمرة) متفق عليه.

ثامناً: أن الله يضاعفها ولو كانت قليلة.

كما قال تعالى (يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ).

وقال ﷺ (إن الله يربي الصدقة كما يربي أحدكم فلوه) متفق عليه.

وعن أبي هُرَيْرَةَ قال. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (مَا تَصَدَّقَ أَحَدٌ بِصَدَقَةٍ مِنْ طَيِّبٍ – وَلاَ يَقْبَلُ اللَّهُ إِلاَّ الطَّيِّبَ – إِلاَّ أَخَذَهَا الرَّحْمَنُ بِيَمِينِهِ وَإِنْ كَانَتْ تَمْرَةً فَتَرْبُو فِي كَفِّ الرَّحْمَنِ حَتَّى تَكُونَ أَعْظَمَ مِنَ الْجَبَلِ كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ أَوْ فَصِيلَهُ) متفق عليه.

تاسعاً: درجة البر (الجنة) تنال بالإنفاق:

كما قال تعالى (لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ).

وكان ابن عمر إذا أعجبه شيء من ماله تصدق به.

عاشراً: صاحب الصدقة موعود بالخلف.

كما قال تعالى (وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ) أي: يخلفه عليكم في الدنيا بالبذل، وفي الآخرة بالجزاء والثواب.

الحادي عشر: سبب لدعاء الملائكة.

قال ﷺ (ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقاً خلفاً، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً) متفق عليه.

الثاني عشر: أن فيها انشراح الصدر، وراحة القلب وطمأنينته.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ ضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (مَثَلَ الْبَخِيلِ وَالْمُتَصَدِّقِ كَمَثَلِ رَجُلَيْنِ عَلَيْهِمَا جُنَّتَانِ مِنْ حَدِيدٍ قَدِ اضْطُرَّتْ أَيْدِيهِمَا إِلَى ثُدَيِّهِمَا وَتَرَاقِيهِمَا فَجَعَلَ الْمُتَصَدِّقُ كُلَّمَا تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ انْبَسَطَتْ عَنْهُ حَتَّى تُغَشِّيَ أَنَامِلَهُ وَتَعْفُوَ أَثَرَهُ وَجَعَلَ الْبَخِيلُ كُلَّمَا هَمَّ بِصَدَقَةٍ قَلَصَتْ وَأَخَذَتْ كُلُّ حَلْقَةٍ مَكَانَهَا». قَالَ فَأَنَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ بِإِصْبَعِهِ فِي جَيْبِهِ فَلَوْ رَأَيْتَهُ يُوَسِّعُهَا وَلاَ تَوَسَّع).

متفق عليه

الثالث عشر: الفضل الكبير.

كما في حديث الباب .

قال السمرقندي : عليك بالصدقة بما قلّ أو كثر، فإن في الصدقة عشر خصال محمودة خمس في الدنيا وخمس في الآخرة:

أما التي في الدنيا:

فأولها: تطهير المال كما قال النبي ﷺ (ألا إن البيع يحضره اللغو والحلف والكذب، فشوبوه بالصدقة).

والثاني: أن فيها تطهير البدن من الذنوب، كما قال الله تعالى (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ...).

والثالث: أن فيها دفع البلاء والأمراض، كما قال النبي ﷺ (داووا مرضاكم بالصدقة).

والرابع: أن فيها إدخال السرور على المساكين، وأفضل الأعمال إدخال السرور على المؤمنين.

والخامس: أن فيها بركة في المال وسعة في الرزق، كما قال تعالى (ومَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ).

وأما الخمس التي في الآخرة:

فأولها: أن تكون الصدقة ظلاً لصاحبها في شدة الحر.

والثاني: أن فيها خفة الحساب.

والثالث: أنها تثقل الميزان.

والرابع: جواز على الصراط.

والخامس: زيادة الدرجات في الجنة.

٢-الصدقة تنتج بالبركة والمعونة من الله .

٣-فضل أكل الإنسان من كسبه والإنفاق على العيال.

٤-من الملائكة من هو موكل بالأرزاق أو السحاب.

٥-إثبات كرامات الأولياء، فالْكَرَامَة ثَابِتَةٌ لِلْمُؤْمِنِ: فَلَا سَبِيلَ إِلَى إِنْكَارِهَا، فَقَدْ أَوْكَلَ اللَّهُ مَلَائِكَتَهُ يَسْقُونَ حَدِيقَتَهُ .

٦-الْمَلَائِكَةُ مُوَكَّلُونَ بِأَمْرِ اللَّهِ: فَاللَّهُ تَعَالَى أَوْكَلَ أُمُورَ تَدْبِيرِ الْكَوْنِ لِلْمَلَائِكَةِ الْكِرَامِ؛ كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: (فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا) فَقَدْ أَقْسَمَ اللَّهُ تَعَالَى بِالْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ وَكَّلَهُمُ اللَّهُ أَنْ يُدَبِّرُوا كَثِيرًا مِنْ أُمُورِ الْعَالَمِ الْعُلْوِيِّ وَالسُّفْلِيِّ؛ مِنَ الْأَمْطَارِ، وَالنَّبَاتِ، وَالْأَشْجَارِ، وَالرِّيَاحِ، وَالْبِحَارِ، وَالْأَجِنَّةِ، وَالْحَيَوَانَاتِ، وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ .

٧-الْعُبُودِيَّةُ أَعْظَمُ صِفَةٍ لِلْإِنْسَانِ: فَكُلٌّ مِنَ الرَّجُلَيْنِ وَصَفَ صَاحِبَهُ بِصِفَةِ الْعُبُودِيَّةِ، وَنَادَاهُ بِهَذَا النِّدَاءِ: "يَا عَبْدَ اللَّهِ".

٨-الْأَصْلُ هُوَ إِخْفَاءُ الْعَمَلِ الصَّالِحِ: وَعَدَمُ الْمُجَاهَرَةِ بِهِ، وَلَا يُعَرِّضُهُ لِلْبُطْلَانِ بِالرِّيَاءِ وَالسُّمْعَةِ، فَإِنِ اضْطُرَّ الْإِنْسَانُ أَنْ يُخْبِرَ عَنْ عَمَلِهِ الصَّالِحِ، وَاحْتِيجَ إِلَى ذَلِكَ؛ فَلَا بَأْسَ بِهِ، مَا دَامَ لَا يَقْصِدُ الرِّيَاءَ وَالسُّمْعَةَ؛ فَإِنَّ هَذَا الرَّجُلَ قَالَ لِصَاحِبِهِ: «أَمَّا إِذَا قُلْتَ هَذَا» أَيْ: فَسَأُخْبِرُكَ، وَلَوْلَا ذَلِكَ مَا أَخْبَرَ بِعَمَلِهِ، وَمِنَ السَّبْعَةِ السُّعَدَاءِ الَّذِينَ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: «وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا، حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ.

٩-الْجَزَاءُ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ: فَهَذَا الرَّجُلُ أَنْفَقَ فَأَنْفَقَ اللَّهُ عَلَيْهِ، عَرَفَ حَقَّ اللَّهِ، وَحُقُوقَ الْفُقَرَاءِ فِي مَالِهِ؛ فَعَرَفَهُ اللَّهُ تَعَالَى، وَأَمَدَّهُ مِنْ فَضْلِهِ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَنْفِقْ أُنْفِقْ عَلَيْكَ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ.

١٠- الْعَبْدُ الصَّالِحُ يُرْزَقُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ: فَهَذَا الْمُتَصَدِّقُ رُزِقَ مِنْ أَمْرَيْنِ: الْأَوَّلُ: رُزِقَ مِنْ مَاءِ السَّمَاءِ. الثَّانِي: رُزِقَ بِمَنْ يُخْبِرُهُ بِمَا يَدُلُّ عَلَى مَكَانَتِهِ عِنْدَ اللَّهِ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَمَا هَيَّأَ لَهُ هَذَا الْمُخْبِرَ، وَهَذَا مِنْ عَاجِلِ بُشْرَى الْمُؤْمِنِ.

١١-فَضْلُ النَّفَقَةِ عَلَى الْأَهْلِ وَالْعِيَالِ: وَهَذَا مِنْ أَفْضَلِ مَا يَتَقَرَّبُ بِهِ الْمُسْلِمُ إِلَى رَبِّهِ .

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (دِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَدِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ فِي رَقَبَةٍ، وَدِينَارٌ تَصَدَّقْتَ بِهِ عَلَى مِسْكِينٍ، وَدِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ عَلَى أَهْلِكَ، أَعْظَمُهَا أَجْرًا الَّذِي أَنْفَقْتَهُ عَلَى أَهْلِكَ) رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وَقَالَ ﷺ «وَلَسْتَ تُنْفِقُ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللَّهِ إِلَّا أُجِرْتَ بِهَا؛ حَتَّى اللُّقْمَةَ تَجْعَلُهَا فِي فِيّ امْرَأَتِكَ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ.

١٢- الإشارة إلى قيمة العمل ومكانته عند المسلم، فالرّجل ما اعتزل الدنيا أو تركها وراء ظهره، ولكنّه جدّ واجتهد، وبذل الأسباب، وسعى وراء الرّزق، ثم تصدّق بماله، وهذا هو حال الأمّة العاملة، تبني وتشيد، وتجد وتسعى، حتى تنال مكانتها بين الأمم .

٦ – باب مَنْ أَشْرَكَ فِي عَمَلِهِ غَيْرَ اللَّهِ

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِى تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ) .

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (مَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ اللَّهُ بِهِ وَمَنْ رَاءَى رَاءَى اللَّهُ بِهِ) .

[خ : ٦٤٩٩] .

==========

(أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ) لما كان المرائي قاصداً بعمله الله تعالى وغيره، كان قد جعل لله شريكاً، فإذا كان كذلك فالله تعالى هو الغني على الإطلاق، والشركاء بل جميع الخلق فقراء إليه بكل اعتبار، فلا يليق بكرمه وغناه التام أن يقبل العمل الذي جعل فيه له شريك.

(من عمل عملاً أشرك فيه غيري) أي: من قصد بذلك العمل الذي يعمله لوجهي غيري من المخلوقين.

(تركته وشركه) وفي رواية ابن ماجه (فأنا منه بريء وهو للذي أشرك) .

قوله **(مَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ اللَّهُ بِهِ، وَمَنْ رَاءَى رَاءَى اللَّهُ بِهِ)** .

قال النووي : قالَ الْعُلَمَاء : مَعْنَاهُ مَنْ رَايَا بِعَمَلِهِ ، وَسَمَّعَهُ النَّاس لِيُكْرِمُوهُ وَيُعَظِّمُوهُ وَيَعْتَقِدُوا خَيْره سَمَّعَ اللَّه بِهِ يَوْم الْقِيَامَة النَّاس ، وَفَضَحَهُ . وَقِيلَ : مَعْنَاهُ مَنْ سَمَّعَ بِعُيُوبِهِ ، وَأَذَاعَهَا ، أَظْهَرَ اللَّه عُيُوبه ، وَقِيلَ : أَسْمَعَهُ الْمَكْرُوه ، وَقِيلَ : أَرَاهُ اللَّه ثَوَاب ذَلِكَ مِنْ غَيْر أَنْ يُعْطِيه إِيَّاهُ لِيَكُونَ حَسْرَة عَلَيْهِ ، وَقِيلَ : مَعْنَاهُ مَنْ أَرَادَ بِعَمَلِهِ النَّاس أَسْمَعَهُ اللَّه النَّاس ، وَكَانَ ذَلِكَ حَظّه مِنْهُ .

وقال ابن حجر: قال الخطَّابي: المعنى مَنْ عمل عملاً على غير إخلاص يريد أن يراه الناس، ويسمعوه؛ جوزِيَ على ذلك بأن يُشهِّر اللهُ به ويفضحه، ويُظهر ما كان يُبطنه، وقيل : مَنْ قصد بعمله الجاه والمنزلة عند الناس، ولم يرد به وجه الله؛ فإنَّ اللهَ يجعله حديثاً عند الناس الذين أراد نيل المنزلة عندهم، ولا ثواب له في الآخرة، وقيل: المراد: مَنْ قصد بعمله أن يسمعه الناس، ويروه ليُعَظِّموه، وتعلو منزلته عندهم؛ حصل له ما قصد، وكان ذلك جزاؤه على عمله، ولا يُثاب عليه في الآخرة، وقيل: المعنى: مَنْ سَمَّع بعيوب الناس وأذاعها أظهر اللهُ عيوبه وسمَّعَه المكروه، وقيل معنى سمَّع الله به شهره أو ملأ أسماع الناس بسوء الثناء عليه في الدنيا أو في القيامة بما ينطوي عليه من خبث السريرة٤.

وقال ابن عثيمين- رحمه الله – عند قوله: من سَمَّعَ سَمَّعَ اللهُ به يعني: من قال قولاً يتعبد به الله، ورفع صوته بذلك حتى يسمعه الناس، ويقولون فلان كثير الذكر، كثير القراءة وما أشبه ذلك – فإن هذا قد سمَّع عباد الله يرائي بذلك – سمّع الله به أي فضحه وكشف أمره، وبيَّن عيبه للناس، وتبين لهم أنه مرائي، والحديث لم يقيد هل هو في الدنيا أو في الآخرة، فيمكن أن يسمع الله به في الدنيا فيكشف عيبه عند الناس، ويمكن أن يكون ذلك في الآخرة وهو أشد – والعياذ بالله – وأخزى، كما قال الله تعالى: وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لا يُنْصَرُونَ .

قال ابن حجر : الرياء إظهار العبادة لقصد رؤية الناس لها، فيحمدوا صاحبه .

١ – الحديث دليل على بطلان العمل الذي وقع فيه الرياء.

والرياء بكسر الراء وتخفيف التحتانية والمد وهو مشتق من الرؤية والمراد به: إظهار العبادة لقصد رؤية الناس لها فيحمدوا صاحبها.

والسمعة بضم المهملة وسكون الميم مشتقة من سمع والمراد بها: نحو ما في الرياء لكنها تتعلق بحاسة السمع والرياء بحاسة البصر .

٢ – خطر الرياء:

أولاً: أنه محبط للعمل.

قال الله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ...).

وقال سبحانه (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاؤُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلاً).

قال ابن كثير: لا إخلاص لهم ولا معاملة مع الله، بل إنما يشهدون الناس تقية لهم ومصانعة، ولهذا يتخلفون كثيرًا عن الصلاة التي لا يُرون فيها غالبًا كصلاة العشاء في وقت العتمة وصلاة الصبح في وقت الغلس.

ثانياً: هو من صفات المنافقين.

قال تعالى في المنافقين (يُرَاؤُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلاً).

وقال سبحانه وتعالى (قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً).

قال ابن كثير في قوله تعالى (فليعمل عملاً صالحاً) أي: ما كان موافقًا لشرع الله، وقوله (ولا يشرك بعبادة ربه أحداً) وهو الذي يُراد به وجه الله تعالى وحده لا شريك له.

وقال جل شأنه (وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ).

قال مجاهد في معنى هذه الآية: عملوا أعمالاً توهموا أنها حسنات فإذا هي سيئات.

وقال سفيان الثوري في هذه الآية: ويل لأهل الرياء، ويل لأهل الرياء، هذه آيتهم وقصتهم.

ثالثاً: هدد تعالى المرائين.

قال سبحانه موضحًا عقوبة المرائين يوم القيامة (فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ. الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ سَاهُونَ الذين يراءون وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ).

رابعاً: أول من يقضى عليه يوم القيامة المرائي بعمله.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ (إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا قَالَ فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا قَالَ قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ. قَالَ كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لأَنْ يُقَالَ جَرِيءٌ. فَقَدْ قِيلَ. ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا قَالَ فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا قَالَ تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ. قَالَ كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ عَالِمٌ. وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ هُوَ قَارِئٌ. فَقَدْ قِيلَ ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ. وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا قَالَ فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا قَالَ مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلاَّ أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ قَالَ كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ هُوَ جَوَادٌ. فَقَدْ قِيلَ ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ) رواه مسلم.

فهذا الحديث دليل على خطر الرياء، وأن أول من تسعر بهم النار الشهيد والكريم والعالم إذا كان العمل ليس لله.

قال النووي: قَوْله ﷺ فِي الْغَازِي وَالْعَالِم وَالْجَوَاد وَعِقَابهمْ عَلَى فِعْلهمْ ذَلِكَ لِغَيْرِ اللَّه، وَإِدْخَالهمْ النَّار: دَلِيل عَلَى تَغْلِيظ تَحْرِيم الرِّيَاء وَشِدَّة عُقُوبَته، وَعَلَى الْحَثّ عَلَى وُجُوب الْإِخْلَاص فِي الْأَعْمَال، كَمَا قَالَ اللَّه تَعَالَى (وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّه مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّين) وَفِيهِ: أَنَّ الْعُمُومِيَّات الْوَارِدَة فِي فَضْل الْجِهَاد إِنَّمَا هِيَ لِمَنْ أَرَادَ اللَّه تَعَالَى بِذَلِكَ مُخْلِصًا، وَكَذَلِكَ الثَّنَاء عَلَى الْعُلَمَاء وَعَلَى الْمُنْفِقِينَ فِي وُجُوه الْخَيْرَات كُلّه مَحْمُول عَلَى مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ لِلَّهِ تَعَالَى مُخْلِصًا.

خامساً: أن الله يفضح المرائين.

كما في حديث الباب (مَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ اللَّهُ بِهِ، وَمَنْ يُرَائِي يُرَائِي اللَّهُ بِهِ).

سادساً: يقال للمرائين يوم القيامة: اذهبوا اطلبوا الثواب ممن كنتم تراءون لهم.

عن أبي سعيد بن أبي فضالة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول (إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم القيامة، ليوم لا ريب فيه، نادى منادٍ: من كان أشرك في عمله لله أحداً فليطلب ثوابه من عنده، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك) رواه الترمذي.

سابعاً: خافه النبي ﷺ علينا.

عن أبي سعيد مرفوعاً (ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال؟ قالوا: بلى، قال: الشرك الخفي، يقوم الرجل فيصلي فيزين صلاته لما يرى من نظر رجل) رواه أحمد.

ثامناً: لا يدخل الجنة.

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال النبي ﷺ (من تعلم علماً مما يبتغى به وجه الله تعالى لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة) رواه أبو داود.

تاسعاً: ليس له في الآخرة نصيب.

عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ (بشر هذه الأمة بالسناء والدين والرفعة والتمكين في الأرض، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له في الآخرة من نصيب) رواه احمد.

٣ – من أقوال السلف:

عن شداد بن أوس قال عند موته: إن أخوف ما أخاف عليكم: الرياء، الشهوة الخفية.

قال سهل: لا يعرف الرياء إلا مخلص.

وقال ابن القيم: وكل ما لم يكن لله فبركته منزوعة.

وكان الثوري يقول: كل شيء أظهرته من عملي فلا أعده شيئاً.

وعن عبدة قال: إن أقرب الناس من الرياء آمنهم منه.

وقال الربيع بن خثيم: كل ما لا يراد به وجه يضمحل.

قال ابن رجب: ما ينظر المرائي إلى الخلق في عمله إلا لجهله بعظمة الخالق .. المرائي يزوّر التواقيع على اسم الملك ليأخذ البراطيل لنفسه ويوهم أنه من خاصة الملك وهو ما يعرفه بالكليه ... نقش المرائي على الدرهم الزائد اسم الملك ليروج والبهرج ما يجوز إلا على غير الناقد.

قال ابن القيم: أنفع العمل أن تغيب فيه عن الناس بالإخلاص.

وقال رحمه الله: كل نفس يخرج في غير ما يقرب إلى الله، فهو حسرة على العبد في معاده، ووقفة له في طريق سيره، أو نكسة إن استمر، أو حجاب إن انقطع به .

من أقوال ابن قدامة في الرياء:

قال رحمه الله: اعلم أن أصل الرياء حب الجاه والمنزلة، وإذا فُصل رجع إلى ثلاثة أصول:

أولاً: حب لذة الحمد.

ثانياً: الفرار من ألم الذم.

ثالثاً: الطمع فيما في أيدي الناس

وقال: واعلم أن أكثر الناس إنما هلكوا لخوف مذمة الناس، وحب مدحهم، فصارت حركاتهم كلها على ما يوافق رضى الناس، رجاء المدح، وخوفاً من الذم، وذلك من المهلكات.

وقال: ولم يزل المخلصون خائفين من الرياء الخفي، يجتهدون في مخادعة الناس عن أعمالهم الصالحة، ويحرصون على إخفائها أعظم ما يحرص الناس على إخفاء فواحشهم، كل ذلك رجاء أن يخلص عملهم ليجازيهم الله تعالى في القيامة بإخلاصهم.

وقال: ومن الدواء النافع (في علاج الرياء) أن يعود نفسه إخفاء العبادات، وإغلاق الأبواب دونها، كما نغلق الأبواب دون الفواحش، فإنه لا دواء في الرياء مثل إخفاء الأعمال. ... (مختصر منهاج القاصدين)

قال ابن الجوزي في صيد الخاطر: ثم تأملت العلماء والمتعلمين، فرأيت القليل من المتعلمين عليه أمارة النجابة؛ لأن أمارة النجابة طلب العلم للعمل به، وجمهورهم يطلب منه ما يصيره شبكة للكسب إما ليأخذ قضاء مكان، أو ليصير قاضي بلد، أو قدر ما يتميز به عن أبناء جنسه، ثم يكتفي.

وقال ابن رجب: ومن علامات العلم النافع أنه يدل صاحبه على الهرب من الدنيا وأعظمها الرئاسة والشهرة والمدح فالتباعد عن ذلك والاجتهاد في مجانبته من علامات العلم النافع.

فإذا وقع شيء من ذلك من غير قصد واختيار كان صاحبه في خوف شديد من عاقبته بحيث أنه يخشى أن يكون مكراً واستدراجاً كما كان الإمام أحمد يخاف ذلك على نفسه عند اشتهار اسمه وبعد صيته.

وقال الذهبي: ينبغي للعالم أن يتكلم بنية وحسن قصد، فإن أعجبه كلامه فليصمت، وإن أعجبه الصمت فلينطق، ولا يفتر عن محاسبة نفسه فإنها تحب الظهور والثناء.

وقال أبو قلابة لأيوب السختياني: يا أيوب إذا أحدث الله لك علمًا فأحدث لله عبادة، ولا يكونن همك أن تحدث به الناس.

وفي ترجمة ابن جريج: قال الوليد بن مسلم سألت الأوزاعي وسعيد بن عبد العزيز وابن جريج: لمن طلبتم العلم؟!! كلهم يقول: لنفسي. غير أنَّ ابن جريج فإنَّه قال: طلبته للناس.

قال الذهبي – رحمه الله – تعليقًا على هذا الخبر: " قلت: ما أحسن الصدق، واليوم تسأل الفقيه الغبي لمن طلبت العلم؟ فيبادر ويقول: طلبته لله، ويكذب إنَّما طلبه للدنيا، ويا قلة ما عرف منه.

وقال عبد الله بن المعتز: علم المنافق في قوله، وعلم المؤمن في عمله.

قال عمر بن الخطاب: من خلصت نيته في الحق، ولو على نفسه، كفاه الله ما بينه وبين الناس، ومن تزين بما ليس فيه شانه الله.

وكان من دعاء عمر: اللهم اجعل عملي كله صالحاً واجعله لوجهك خالصاً ولا تجعل لأحد فيه شيئاً.

وقال ابن القيم: العمل لأجل الناس وابتغاء الجاه والمنزلة عندهم، ورجائهم للضر والنفع منهم: لا يكون من عارف بهم البتة، بل جاهل بشأنهم، وجاهل بربه، فمن عرف الناس أنزلهم منازلهم، ومن عرف الله أخلص له أعماله وأقواله.

وقال: إن كل من أعرض عن شيء من الحق وجحده، وقع في باطل مُقابل لما أعرض عنه من الحق وجحده، حتى في الأعمال، من رغب عن العمل لوجه الله وحده ابتلاه الله بالعمل لوجوه الخلق، فرغب عن العمل لمن ضَره ونفعه وموته وحياته وسعادته بيده، فابتليَ بالعمل لمن لا يملك له شيئاً من ذلك، وكذلك من رغب عن إنفاق ماله في طاعة الله ابتُليَ بإنفاقه لغير الله وهو راغم.

وقال: الوقوف عند مدح الناس وذمهم: علامة انقطاع القلب وخلوه من الله وأنه لم تباشره روح محبته ومعرفته ولم يذق حلاوة التعلق به والطمأنينة إليه.

علمه بأنه عبد محض والعبد لا يستحق على خدمته لسيده عوضاً ولا أجرة إذ هو يخدمه بمقتضى عبوديته.

٤ – وَاعْلَمْ أَنَّ الْعَمَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ أَقْسَامٌ:

فَتَارَةً يَكُونُ رِيَاءً مَحْضًا، بِحَيْثُ لَا يُرَادُ بِهِ سِوَى مُرَاءَاتِ الْمَخْلُوقِينَ لِغَرَضٍ دُنْيَوِيٍّ .

كَحَالِ الْمُنَافِقِينَ فِي صَلَاتِهِمْ، كَمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ (وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا).

وَقَالَ تَعَالَى (فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ – الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ – الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ) .

وَكَذَلِكَ وَصَفَ اللَّهُ تَعَالَى الْكَفَّارَ بِالرِّيَاءِ فِي قَوْلِهِ (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ) .

وَهَذَا الرِّيَاءُ الْمَحْضُ لَا يَكَادُ يَصْدُرُ مِنْ مُؤْمِنٍ فِي فَرْضِ الصَّلَاةِ وَالصِّيَامِ، وَقَدْ يَصْدُرُ فِي الصَّدَقَةِ الْوَاجِبَةِ أَوِ الْحَجِّ، وَغَيْرِهِمَا مِنَ الْأَعْمَالِ الظَّاهِرَةِ، أَوِ الَّتِي يَتَعَدَّى نَفْعُهَا، فَإِنَّ الْإِخْلَاصَ فِيهَا عَزِيزٌ .

وَهَذَا الْعَمَلُ لَا يَشُكُّ مُسْلِمٌ أَنَّهُ حَابِطٌ وَأَنَّ صَاحِبَهُ يَسْتَحِقُّ الْمَقْتَ مِنَ اللَّهِ وَالْعُقُوبَةَ .

وَتَارَةً يَكُونُ الْعَمَلُ لِلَّهِ، وَيُشَارِكُهُ الرِّيَاءُ .

فَإِنْ شَارَكَهُ مِنْ أَصْلِهِ فَالنُّصُوصُ الصَّحِيحَةُ تَدُلُّ عَلَى بُطْلَانِهِ وَحُبُوطِهِ أَيْضًا.

وَفِي " صَحِيحِ مُسْلِمٍ " عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشَرِيكَهُ) وَخَرَّجَهُ ابْنُ مَاجَهْ، وَلَفْظُهُ (فَأَنَا مِنْهُ بَرِيءٌ، وَهُوَ لِلَّذِي أَشْرَك) .

وَأَمَّا إِنْ كَانَ أَصْلُ الْعَمَلِ لِلَّهِ، ثُمَّ طَرَأَتْ عَلَيْهِ نِيَّةُ الرِّيَاءِ :

فَإِنْ كَانَ خَاطِرًا وَدَفَعَهُ، فَلَا يَضُرُّهُ بِغَيْرِ خِلَافٍ .

وَإِنِ اسْتَرْسَلَ مَعَهُ، فَهَلْ يُحْبَطُ بِهِ عَمَلُهُ أَمْ لَا يَضُرُّهُ ذَلِكَ وَيُجَازَى عَلَى أَصْلِ نِيَّتِهِ؟ فِي ذَلِكَ اخْتِلَافٌ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ مِنَ السَّلَفِ قَدْ حَكَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَابْنُ جَرِيرٍ الطَّبَرِيُّ، وَرَجَّحَا أَنَّ عَمَلَهُ لَا يَبْطُلُ بِذَلِكَ، وَأَنَّهُ يُجَازَى بِنِيَّتِهِ الْأُولَى وَهُوَ مَرْوِيٌّ عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ وَغَيْرِهِ.

وَيُسْتَدَلُّ لِهَذَا الْقَوْلِ بِمَا خَرَّجَهُ أَبُو دَاوُدَ فِي " مَرَاسِيلِهِ " عَنْ عَطَاءٍ الْخُرَاسَانِيِّ «أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ بَنِي سَلَمَةَ كُلَّهُمْ يُقَاتِلُ، فَمِنْهُمْ مَنْ يُقَاتِلُ لِلدُّنْيَا، وَمِنْهُمْ مَنْ يُقَاتِلُ نَجْدَةً، وَمِنْهُمْ مَنْ يُقَاتِلُ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ، فَأَيُّهُمُ الشَّهِيدُ؟ قَالَ: كُلُّهُمْ إِذَا كَانَ أَصْلُ أَمْرِهِ أَنْ تَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا» .

وَذَكَرَ ابْنُ جَرِيرٍ أَنَّ هَذَا الِاخْتِلَافَ إِنَّمَا هُوَ فِي عَمَلٍ يَرْتَبِطُ آخِرُهُ بِأَوَّلِهِ، كَالصَّلَاةِ وَالصِّيَامِ وَالْحَجِّ، فَأَمَّا مَا لَا ارْتِبَاطَ فِيهِ كَالْقِرَاءَةِ وَالذِّكْرِ وَإِنْفَاقِ الْمَالِ وَنَشْرِ الْعِلْمِ، فَإِنَّهُ يَنْقَطِعُ بِنِيَّةِ الرِّيَاءِ الطَّارِئَةِ عَلَيْهِ، وَيَحْتَاجُ إِلَى تَجْدِيدِ نِيَّةٍ.

فَأَمَّا إِذَا عَمِلَ الْعَمَلَ لِلَّهِ خَالِصًا، ثُمَّ أَلْقَى اللَّهُ لَهُ الثَّنَاءَ الْحَسَنَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ بِذَلِكَ .

فَفَرِحَ بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ، وَاسْتَبْشَرَ بِذَلِكَ، لَمْ يَضُرَّهُ ذَلِكَ.

وَفِي هَذَا الْمَعْنَى جَاءَ حَدِيثُ أَبِي ذَرٍّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ (سُئِلَ عَنِ الرَّجُلِ يَعْمَلُ الْعَمَلَ لِلَّهِ مِنَ الْخَيْرِ وَيَحْمَدُهُ النَّاسُ عَلَيْهِ، فَقَالَ: تِلْكَ عَاجِلُ بُشْرَى الْمُؤْمِنِ) . خَرَّجَهُ مُسْلِمٌ (جامع العلوم والحكم)

قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله : اتصال الرياء بالعبادة على ثلاثة أوجه :

الوجه الأول : أن يكون الباعث على العبادة مراءاة الناس مِن الأصل ؛ كمن قام يصلِّي مراءاة الناس ، مِن أجل أن يمدحه الناس على صلاته ، فهذا مبطل للعبادة .

الوجه الثاني : أن يكون مشاركاً للعبادة في أثنائها ، بمعنى : أن يكون الحامل له في أول أمره الإخلاص لله ، ثم طرأ الرياء في أثناء العبادة ، فهذه العبادة لا تخلو من حالين :

الحال الأولى : أن لا يرتبط أول العبادة بآخرها ، فأولُها صحيح بكل حال ، وآخرها باطل .

مثال ذلك : رجل عنده مائة ريال يريد أن يتصدق بها، فتصدق بخمسين منها صدقةً خالصةً، ثم طرأ عليه الرياء في الخمسين الباقية؛ فالأُولى صدقة صحيحة مقبولة، والخمسون الباقية صدقة باطلة لاختلاط الرياء فيها بالإخلاص .

الحال الثانية : أن يرتبط أول العبادة بآخرها : فلا يخلو الإنسان حينئذٍ مِن أمرين :

الأمر الأول : أن يُدافع الرياء ولا يسكن إليه، بل يعرض عنه ويكرهه: فإنه لا يؤثر شيئاً لقوله ﷺ إن الله تجاوز عن أمتي ما حدَّثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم .

الأمر الثاني : أن يطمئنَّ إلى هذا الرياء ولا يدافعه : فحينئذٍ تبطل جميع العبادة ؛ لأن أولها مرتبط بآخرها .

مثال ذلك: أن يبتدئ الصلاة مخلصاً بها لله تعالى، ثم يطرأ عليها الرياء في الركعة الثانية، فتبطل الصلاة كلها لارتباط أولها بآخرها.

الوجه الثالث : أن يطرأ الرياء بعد انتهاء العبادة: فإنه لا يؤثر عليها ولا يبطلها؛ لأنها تمَّت صحيحة فلا تفسد بحدوث الرياء بعد ذلك .

وليس مِن الرياء أن يفرح الإنسان بعلم الناس بعبادته ؛ لأن هذا إنما طرأ بعد الفراغ من العبادة .

وليس مِن الرياء أن يُسرَّ الإنسان بفعل الطاعة؛ لأن ذلك دليل إيمانه، قال النبي ﷺ مَن سرَّته حسنته وساءته سيئته فذلك المؤمن.

وقد سئل النبي ﷺ عن ذلك فقال : " تلك عاجل بشرى المؤمن " .

٥-بيان غنى الله تعالى.

٦ - بيان عظم حق الله تبارك وتعالى.

٧ - باب التَّكَلُّمِ بِالْكَلِمَةِ يَهْوِي بِهَا فِي النَّارِ

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ (إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مَا يَتَبَيَّنُ مَا فِيهَا يَهْوِي بِهَا فِي النَّارِ أَبْعَدَ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ) .

[٦٤٧٧] .

==========

(مَا يَتَبَيَّن مَا فِيهَا يُهْوِي بِهَا فِي النَّار) مَعْنَاهُ لَا يَتَدَبَّرهَا وَيُفَكِّر فِي قُبْحهَا ، وَلَا يَخَاف مَا يَتَرَتَّب عَلَيْهَا ، وَهَذَا كَالْكَلِمَةِ عِنْد السُّلْطَان وَغَيْره مِنْ الْوُلَاة ، وَكَالْكَلِمَةِ تُقْذَف ، أَوْ مَعْنَاهُ كَالْكَلِمَةِ الَّتِي يَتَرَتَّب عَلَيْهَا إِضْرَار مُسْلِم وَنَحْو ذَلِكَ . (نووي)

جاء عند البخاري : عن أبي هريرة . عن النبيّ ﷺ قَالَ (إِنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللهِ تَعَالَى مَا يُلْقِي لَهَا بَالًا يَرْفَعُهُ اللهُ بِهَا دَرَجاتٍ، وإِنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلَمَةِ مِنْ سَخَطِ اللهِ تَعَالَى لاَ يُلْقِي لَهَا بَالًا يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ) .

١-الحديث دليل على خطر اللسان، وأن عدم حفظ اللسان سبب لدخول النيران .

كما في أحاديث الباب (وإِنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلَمَةِ مِنْ سَخَطِ اللهِ تَعَالَى لاَ يُلْقِي لَهَا بَالًا يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ) .

عن أَبي هريرة ﷺ قَالَ : سُئِلَ رسولُ الله ﷺ عَنْ أكثرِ مَا يُدْخِـلُ النَّاسَ الْجَنَّةَ ؟ قَالَ : (تَقْوَى اللهِ وَحُسنُ الخُلُقِ) وَسُئِلَ عَنْ أَكْثَرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ النَّارَ، فَقَالَ (الفَمُ وَالفَرْجُ) . رواه الترمذي .

وعن بِلالِ بن الحارِثِ المُزَنِيّ ﷺ: أنَّ رسول الله ﷺ قَالَ (إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللهِ تَعَالَى مَا كَانَ يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ يَكْتُبُ اللهُ لَهُ بِهَا رِضْوَانَهُ إِلَى يَومِ يَلْقَاهُ، وإِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللهِ مَا كَانَ يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ يَكْتُبُ اللهُ لَهُ بِهَا سَخَطَهُ إِلَى يَوْمِ يَلْقَاهُ) . رواه الترمذي .

وأكثر ما كان يخافه النبي ﷺ على هذه الأُمَّة هو اللسان :

فقد جاء في حديث سفيان الثقفي قال: قلت: يا رسول الله، ما أخوف ما تخاف عليَّ؟ فأخذ بلسان نفسه، (ثم قال: هذا). رواه الترمذي

وعلّم ﷺ أصحابه التعوذ من شر اللسان :

فعن شكل بن حميد ﷺ قال (أتيت النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله، علمني تعوذًا أتعوذ به، قال: فأخذ بكفِّي فقال: قل: اللهم إني أعوذ بك من شر سمعي، ومن شر بصري، ومن شر لساني، ومن شر قلبي، ومن شر مَنِيِّي؛ يعني: فَرْجَه) . رواه الترمذي

كان أبو بكر ﷺ يُمسك بلسانه ويقول: "هذا الذي أوردني الموارد .

وقال عمر ﷺ: "من كثُر كلامه كثُر سَقْطُه، ومن كثر سقطه كثرت ذنوبه .

وقال ابن مسعود ﷺ: "ما من شيء أحوج إلى طول سجن من اللسان" .

وكان ابن عباس ﷺ يمسك بلسانه ويقول: "ويحك قل خيرًا تَغْنَمْ، واسكت عن سوء تسلَمْ، وإلا فاعلم أنك ستندم".

وقال الحسن ﷺ: "ما عقل دينه من لم يحفظ لسانه" .

وقال ابن القيم –رحمه الله– عند ما قال : "وأما اللفظات فحفظها بألا يخرج لفظة ضائعة، بألا يتكلم إلا فيما يرجو فيه الربح والزيادة في دِينه، فإذا أراد أن يتكلم بالكلمة نظر؛ هل ربح فائدة أم لا؟ فإن لم يكن فيها ربح أمسك عنها، وإن كان فيها ربح نظر؛ هل تفوت بها كلمة هي أربح منها فلا يضيعها بهذه؟ "إلى أن قال: "ومن العجب أن الإنسان يهون عليه التحفظ والاحتراز من أكل الحرام والظلم والزنا والسرقة وشرب الخمر، ومن النظر إلى المحرم وغير ذلك.

ويصعب التحرز من حركة لسانه، حتى ترى الرجل يشار إليه بالدِّين والزهد والعبادة، وهو يتكلم بالكلمات من سخط الله لا يلقي لها بالًا، ينزل بالكلمة الواحدة منها أبعد ما بين المشرق والمغرب، وكم ترى من رجل متورع عن الفواحش والظلم، ولسانه يفري أعراض الأحياء والأموات ولا يبالي ما يقول؛ وإذا أردت أن تعرف ذلك فانظر فيما رواه مسلم في صحيحه من حديث جندب بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ قال رجل: والله لا يغفر الله لفلان! فقال الله (من ذا الذي يتألى علي أني لا أغفر لفلان؟ قد غفرتُ له وأحبطتُ عملكَ) .

فهذا العابد الذي عبد الله ما شاء أن يعبده، أحبطت هذه الكلمة عمله كله، ثم قال أبو هريرة – صاحب الرواية الأخرى من الحديث –: "تكلم بكلمة أوبقتْ دنياه وآخرته .

٣– **قال النووي** – رحمه الله – اعلم أنه ينبغي لكل مكلَّف أن يحفظ لسانَه عن جميع الكلام إلا كلامًا ظهرت فيه المصلحة، ومتى استوى الكلام وتَرْكُه في المصلحة؛ فالسنَّة الإمساك عنه؛ لأنه قد ينجرُّ الكلام المباح إلى حرام، أو مكروه؛ وذلك كثير في العادة، والسلامة لا يعدلها شيء . انتهى .

قال الشاعر :

احفظْ لسانكَ أيها الإنسانُ لا يلدغنَّك إنه ثُعبانُ
كم في المقابر مِن قتيلِ لسانِه كانت تهاب لقاءه الشُّجعانُ

وقال آخر:

يُصاب الفتى مِن عثْرةٍ بلسانه وليس يصاب المرءُ مِن عثْرة الرِّجْلِ
فعثرتُه في القول تُذهب رأسه وعثرتُه في الرِّجْل تَبْرَا على مَهْل

٤–فضل حفظ اللسان :

أولاً : من أسباب دخول الجنان .

عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ (مَنْ يَضْمَنْ لِي مَا بَيْنَ لَحَيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ أَضْمَنْ لَهُ الْجَنَّةَ) . رواه البخاري

وعند الترمذي عن أَبي هريرة ﷺ قَالَ : قَالَ رسول الله ﷺ (مَنْ وَقَاهُ اللهُ شَرَّ مَا بَيْنَ لَحَيَيْهِ، وَشَرَّ مَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ دَخَلَ الجَنَّةَ) . رواه الترمذي

ثالثاً : حفظ اللسان من علامات الإيمان .

قال ﷺ (من كان يؤمن بالله واليوم فليقل خيراً أو ليصمت) .

رابعاً : حفظ اللسان سبب للنجاة .

عن عقبة بن عامرٍ ﷺ قَالَ : قُلْتُ : يَا رسولَ اللهِ مَا النَّجَاةُ ؟ قَالَ (أَمْسِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ، وَلْيَسَعْكَ بَيْتُكَ، وابْكِ عَلَى خَطِيئَتِكَ) .

وقال ﷺ (من صمت نجا) .

فإمساك اللسان سبب للنجاة : لأن في ذلك سلامة من الكلام في الأعراض والنيات ، وسلامة من التصنيف والتحليلات .

إذا رُمتَ أنْ تَحيا سَليماً مِن الأذى *** وَدينُكَ مَوفورٌ وعِرْضُكَ صَينُ
لِســـانُكَ لا تَذكُرْ بِهِ عَــورَةَ امرئٍ *** فَكُلُّكَ عَوراتٌ وللنّاسِ ألسُنُ

خامساً : حفظ اللسان سبب للسيادة ورفعة الدرجات .

كان الأحنف بن قيس سيد بني تميم .

قال: قال لي عمر: يَا أَحْنَفُ، مَنْ كَثُرَ كَلَامُهُ كَثُرَ سَقَطُهُ، وَمَنْ كَثُرَ سَقَطُهُ قَلَّ حَيَاؤُهُ، وَمَنْ قَلَّ حَيَاؤُهُ قَلَّ وَرَعُهُ، وَمَنْ قَلَّ وَرَعُهُ مَاتَ قَلْبُهُ.

سادساً : حفظ اللسان علامة الإسلام الحقيقي .

سئل ﷺ أي المسلمين أفضل؟ فقال: "من سلم المسلمون من لسانه و يده" .

سابعاً : حفظ اللسان سبب لغفران الذنوب .

قال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا . يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا) .

ثامناً : حفظ اللسان سبب للفوز برضوان الله تعالى .

قال ﷺ (إِنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ الله تَعَالَى مَا يُلْقِي لَهَا بَالاً يَرْفَعُهُ اللهُ بِهَا دَرَجاتٍ) .

وقال ﷺ (إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللهِ تَعَالَى مَا كَانَ يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ يَكْتُبُ اللهُ لَهُ بِهَا رِضْـوَانَهُ إِلَى يَومِ يَلْقَاه). رواه الترمذي

تاسعاً : حفظ اللسان علامة على حسن إسلام الإنسان .

قال ﷺ (من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه) .

فمن حسن إسلامه : لا ينشغل بالقيل والقال ، ولا بتتبع عورات الناس .

من حسن إسلامه : قل كلامه ، وكثر ذكره ، وطال فكره .

من حسن إسلامه : انشغل بعبادة ربه ، وطاعة مولاه ، والتزود إلى يوم يلقاه .

من حسن إسلامه : أكثر من الأذكار ، واستغفر بالليل والنهار ، وأطال قراءة القرآن .

من حسن إسلامه : استعد للقاء ربه ، قبل غياب شمسه ، ورحيل يومه .

عاشراً : حفظ اللسان سبب للنجاة من النيران .

عن مُعَاذٍ ﷺ قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ، أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يُدْخِلُنِي الجَنَّةَ وَيُبَاعِدُنِي مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: (لَقَدْ سَأَلتَ عَنْ عَظِيمٍ، وإِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ: ... ألاَ أُخْبِرُكَ بِمِلاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ!) قُلْتُ: بلَى يَا رَسولَ اللهِ، فَأَخَذَ بِلِسانِهِ وقال (كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا) قُلْتُ: يَا رسولَ الله وإِنَّا لَمُؤاخَذُونَ بما نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ فقالَ (ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ! وَهَلْ يَكُبُّ الناسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلاَّ حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟) .

قال رجل للقمان الحكيم كيف وصلت إلى ما وصلت إليه، فقال لقمان بأمرين : بقلة كلامي، وعدم تدخلي فيما لا يعنيني .

وقال لابنه: يا بني إذا افتخر الناس بكلامهم فافتخر أنت بسكوتك .

قيل في مأثور الحكم: إذا تم العقل نقص الكلام .

قال الإمام النووي رحمه الله: بلغنا أن قس بن ساعدة وأكثم بن صيفي إجتمعا فقال أحدهما لصاحبه: كم وجدت في ابن آدم من العيوب ؟ فقال: هي أكثر من أن تحصى، والذي أحصيته ثمانية آلاف عيب؛ فوجدت خصلةً إن استعملتها سترت العيوب كلها ! قال: ما هي ؟ قال: ﴿ حفظ اللسان ﴾

وقيل : الحكمة عشرة أجزاء تسعة منها الصمت والعاشرة قلة الكلام .

وقيل : راحة الجسم في قلة الطعام، وراحة النفس في قلة الآثام، وراحة القلب في قلة الاهتمام، وراحة اللسان في قلة الكلام .

قال الأوزاعي : ما بلي أحد في دينه ببلاء أضر عليه من طلاقة لسانه .

٨ – باب عُقُوبَةِ مَنْ يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَلاَ يَفْعَلُهُ وَيَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ وَيَفْعَلُهُ

عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْد قال : قال رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ (يُؤْتَى بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُ بَطْنِهِ فَيَدُورُ بِهَا كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِالرَّحَى فَيَجْتَمِعُ إِلَيْهِ أَهْلُ النَّارِ فَيَقُولُونَ يَا فُلاَنُ مَا لَكَ أَلَمْ تَكُنْ تَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ فَيَقُولُ بَلَى قَدْ كُنْتُ آمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَلاَ آتِيهِ وَأَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ) .

[خ : ٣٢٦٧] .

=========

(**فَتَنْدَلِقُ**) من الاندلاق، وهو الخروج بسرعة.

(**أَقْتَابُ بَطْنِهِ**) الأقتاب الأمعاء.

(**فَيَقُولُ: بَلَى، كُنْتُ آمُرُ بِالمَعْرُوفِ وَلا آتِيهِ**) أي: لا أفعل ذلك المعروف.

(**وأَنْهَى عَنِ المُنْكَرِ وَآتِيه**) أي: أفعل ذلك المنكر.

١ – الحديث فيه التحذير الشديد وذم ممن يأمر بمعروف ولا يأتيه، وينهى عن منكر ويأتيه .

قَالَ الله تَعَالَى (أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ) .

وَقالَ تَعَالَى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ) .

وَقالَ تَعَالَى إخباراً عن شعيب ﷺ (وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ) .

قال الرازي: قوله (أفلا تعقلون) فهو تعجب للعقلاء من أفعالهم ونظيره قوله تعالى: (أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون) وسبب التعجب وجوه:

الأول: أن المقصود من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إرشاد الغير إلى تحصيل المصلحة وتحذيره عما يوقعه في المفسدة، والإحسان إلى النفس أولى من الإحسان إلى الغير وذلك معلوم بشواهد العقل والنقل فمن وعظ ولم يتعظ فكأنه أتى بفعل متناقض لا يقبله العقل فلهذا قال (أفلا تعقلون).

الثاني: أن من وعظ الناس وأظهر علمه للخلق ثم لم يتعظ صار ذلك الوعظ سبباً لرغبة الناس في المعصية لأن الناس يقولون أنه مع هذا العلم لولا أنه مطلع على أنه لا أصل لهذه التخويفات وإلا لما أقدم على المعصية فيصير هذا داعياً لهم إلى التهاون بالدين والجراءة على المعصية، فإذا كان غرض الواعظ الزجر عن المعصية ثم أتى بفعل يوجب الجراءة على المعصية فكأنه جمع بين المتناقضين، وذلك لا يليق بأفعال العقلاء، فلهذا قال (أفلا تعقلون).

الثالث: أن من وعظ فلا بد وأن يجتهد في أن يصير وعظه نافذاً في القلوب، والإقدام على المعصية مما ينفر القلوب عن القبول، فمن وعظ كان غرضه أن يصير وعظه مؤثراً في القلوب، ومن عصى كان غرضه أن لا يصير وعظه مؤثراً في القلوب، فالجمع بينهما متناقض غير لائق بالعقلاء، ولهذا قال علي ﷺ: قصم ظهري رجلان: عالم متهتك وجاهل متنسك.

وقال السعدي : وسمى العقل عقلاً لأنه يعقل به ما ينفعه من الخير، وينعقل به عما يضره، وذلك أن العقل يحث صاحبه أن يكون أول فاعل لما يأمر به، وأول تارك لما ينهى عنه، فمن أمر غيره بالخير ولم يفعله، أو نهاه عن الشر فلم يتركه، دل على عدم عقله وجهله، خصوصاً إذا كان عالماً بذلك، قد قامت عليه الحجة .

٢-التوبيخ بالآية السابقة بسبب ترك فعل البر لا بسبب الأمر بالبر، فإن الأمر بالمعروف وهو واجب، ولكن الواجب والأولى أن يفعل مع أمرهم به ولا يتخلف عنهم، فكل من الأمر بالمعروف وفعله واجب، لا يسقط أحدهما بترك الآخر على أصح قولي العلماء.

وذهب بعضهم إلى أن مرتكب المعاصي لا ينهى غيره عنها، وهذا ضعيف .

قال ابن كثير: والصحيح: أن العالم يأمر بالمعروف وإن لم يفعله، وينهى عن المنكر وإن ارتكبه ، قال مالك عن ربيعة: سمعت سعيد بن جبير يقول: لو كان المرء لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر حتى لا يكون فيه شيء ما أمر أحد بمعروف ولا نهى عن منكر. قال مالك: وصدق من ذا الذي ليس فيه شيء؟

وقال الشوكاني: الهمزة في قوله (أَتَأْمُرُونَ الناس بالبر) للاستفهام مع التوبيخ للمخاطبين، وليس المراد توبيخهم على نفس الأمر بالبر، فإنه فعل حسن مندوب إليه، بل بسبب ترك فعل البر المستفاد من قوله (وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُم).

وقال السعدي: وليس في الآية أن الإنسان إذا لم يقم بما أمر به أنه يترك الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، لأنها دلت على التوبيخ بالنسبة إلى الواجبين، وإلا فمن المعلوم أن على الإنسان واجبين: أمر غيره ونهيه، وأمر نفسه ونهيها، فترك أحدهما، لا يكون رخصة في ترك الآخر، فإن الكمال أن يقوم الإنسان بالواجبين، والنقص الكامل أن يتركهما، وأما قيامه بأحدهما دون الآخر، فليس في رتبة الأول، وهو دون الأخير، وأيضاً فإن النفوس مجبولة على عدم الانقياد لمن يخالف قوله فعله، فاقتداؤهم بالأفعال أبلغ من اقتدائهم بالأقوال المجردة.

فالذي عليه عامة العلماء من السلف والخلف: أنه لا يشترط فيمن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر: أن يكون عدلاً في نفسه غير مرتكب لشيءٍ من المنكرات أو المعاصي؛ لأن في هذا الشرط سداً لباب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فمن ذا الذي يسلم من المعاصي والذنوب؟!.

ولأن الواجب على الإنسان أمران: اجتناب المنكر، والنهي عنه، فإذا أخلَّ بأحدهما، لا يسقط عنه الآخر.

قال أبو بكر بن العربي: وَلَيْسَ مِنْ شَرْطِهِ أَنْ يَكُونَ عَدْلًا عِنْدَ أَهْلِ السُّنَّةِ، وَقَالَتْ الْمُبْتَدِعَةُ: لَا يُغَيِّرُ الْمُنْكَرَ إلَّا عَدْلٌ.

وَهَذَا سَاقِطٌ؛ فَإِنَّ الْعَدَالَةَ مَحْصُورَةٌ فِي قَلِيلٍ مِنْ الْخَلْقِ، وَالنَّهْيُ عَنْ الْمُنْكَرِ عَامٌّ فِي جَمِيعِ النَّاس. (أحكام القرآن)

وقال النووي رحمه الله: قَالَ الْعُلَمَاءُ: وَلَا يُشْتَرَطُ فِي الْآمِرِ وَالنَّاهِي أَنْ يَكُونَ كَامِلَ الْحَالِ، مُمْتَثِلًا مَا يَأْمُرُ بِهِ، مُجْتَنِبًا مَا يَنْهَى عَنْهُ، بَلْ عَلَيْهِ الْأَمْرُ وَإِنْ كَانَ مُخِلًّا بِمَا يَأْمُرُ بِهِ، وَالنَّهْيُ وَإِنْ كَانَ مُتَلَبِّسًا بِمَا يَنْهَى عَنْهُ.

فَإِنَّهُ يَجِبُ عَلَيْهِ شَيْئَانِ: أَنْ يَأْمُرَ نَفْسَهُ وَيَنْهَاهَا، وَيَأْمُرَ غَيْرَهُ وَيَنْهَاهُ، فَإِذَا أَخَلَّ بِأَحَدِهِمَا، كَيْفَ يُبَاحُ لَهُ الْإِخْلَالُ بِالْآخَرِ؟!

وقال الحافظ ابن حجر: "وَأَمَّا مَنْ قَالَ لَا يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ إِلَّا مَنْ لَيْسَتْ فِيهِ وَصْمَةٌ، فَإِنْ أَرَادَ أَنَّهُ الْأَوْلَى فَجَيِّدٌ، وَإِلَّا فَيَسْتَلْزِمُ سَدَّ بَابِ الْأَمْرِ إِذَا لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ غَيْرُه" . (الفتح)

وأما حديث الباب، والآيات السابقة، فالمقصود منها ذم من يترك فعل المعروف الذي يأمر به، وذم من يرتكب المنكر الذي ينهى عنه، وليس فيها ذمه على الأمر بالمعروف أو النهي عن المنكر.

٣-ينبغي على من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر: أن يكون ممتثلاً ما يأمر به، منتهيا عما ينهى عنه.

قال القاضي أبو يعلى: "والأولى أن يكون الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر من أهل الستر والصيانة والعدالة والقبول عند الناس؛ لأنه إذا كان بهذه الصفة رَهِبَه المأمور، وربما استجاب إليه ورجع إلى قوله ...؛ ولأن من هذه صفته فكلامه أوقع في النفوس وأقرب إلى القلوب.

٤ – توبيخ العالم المخالف لما يأمر به.

٥ – أن من أمر بمعروف ولم يفعله، أو نهى عن منكر وفعله من هذه الأمة، ففيه شبه من اليهود.

٩ – باب النَّهْيِ عَنْ هَتْكِ الإِنْسَانِ سِتْرَ نَفْسِهِ

عن أبي هريرة . قال : قال رسول الله ﷺ (كُلُّ أُمَّتِي مُعَافَاةٌ إِلاَّ الْمُجَاهِرِينَ وَإِنَّ مِنَ الإِجْهَارِ أَنْ يَعْمَلَ الْعَبْدُ بِاللَّيْلِ عَمَلاً ثُمَّ يُصْبِحُ قَدْ سَتَرَهُ رَبُّهُ فَيَقُولُ يَا فُلاَنُ قَدْ عَمِلْتُ الْبَارِحَةَ كَذَا وَكَذَا وَقَدْ بَاتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ فَيَبِيتُ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ وَيُصْبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ اللَّهِ عَنْهُ) .

[خ : ٦٠٦٩] .

==========

(مُعَافى) اسم مفعول من العافية، وهو إما بمعنى عفا الله عنه، وإما سلمه الله وسلم منه.

(إلاَّ المُجَاهِرِينَ) وهم الذين جاهروا بمعاصيهم وأظهروها، وكشفوا ما ستر الله تعالى عليهم، فيتحدثون بها لغير ضرورة ولا حاجة.

(البَارِحَةَ) هي أقرب ليلة مضت من وقت القول.

١ – الحديث دليل على أن المسلم إذا ابتلي بمعصية أن يستر على نفسه ويبادر إلى التوبة.

٢ – الحديث دليل على عظم ذنب من يجاهر بالمعصية.

عن ابن عمر ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول (اجتنبوا هذه القاذورات التي نهى الله تعالى عنها فمن ألم بشيء منها فليستتر بستر الله وليتب إلى الله فإنه من يبد لنا صفحته نقم عليه كتاب الله) رواه الحاكم والبيهقي.

قالَ ابن بَطّال: فِي الجَهر بِالمعصِيَةِ استِخفاف بِحَقّ الله ورَسُوله وبِصالِحِي المؤمِنِينَ، وفِيهِ ضَرب مِنَ العِناد لَهُم، وفِي السِّتر بِها السَّلامَة مِنَ الاستِخفاف، لأَنَّ المعاصِي تُذِلّ أَهلها، ومِن إِقامَة الحَدّ عَلَيهِ إِن كانَ فِيهِ حَدّ ومَن التَّعزِير إِن لَم يُوجِب حَدًّا، وإِذا تَمَحَّضَ حَقّ الله فَهُو أَكرَم الأَكرَمِينَ ورَحمَته سَبَقَت غَضَبه، فَلِذَلِكَ إِذا سَتَرَهُ فِي الدُّنيا لَم يَفضَحهُ فِي الآخِرَة، والَّذِي يُجاهِر يَفُوتهُ جَمِيع ذَلِكَ. (فتح الباري)

قال العيني: أنَّ ستْر الله مستلزم لستْر المؤمن على نفسه، فمن قصد إظهار المعصية والمجَاهرة، فقد أغضب الله تعالى فلم يَسْتُره، ومن قصد التَّسَتُّر بها حياءً من ربّه ومن النَّاس، مَنَّ الله عليه بِسِتره إيَّاه.

٣ – مفاسد المجاهرة بالمعاصي:

أولاً: أنها استخفاف بأوامر الله عز وجل ونواهيه.

ثانياً: أنها تؤدي إلى اعتياد القبائح واستمرائها وكأنها أمور عادية لا شيء فيها.

ثالثاً: أنها بمثابة دعوة للغير إلى ارتكاب المعاصي وإشاعة الفساد ونشر للمنكرات.

رابعاً: أنها ربما أدت إلى استحلال المعصية فيكفر بذلك والعياذ بالله.

خامساً: أنها دليل على سوء الخلق والوقاحة وقلة أدب صاحبها.

سادساً: أنها دليل على قسوة القلب واستحكام الغفلة من قلب المجاهر.

هذا وإن صور المجاهرة بالمعاصي – في هذا العصر – كثيرة جداً، لا يمكن استقصاؤها.

إِذَا لَمْ تَخْشَ عَاقِبَةَ اللَّيَالِي * وَلَمْ تَسْتَحِ فَاصْنَعْ مَا تَشَاءُ

فَلاَ وَاللَّهِ مَا فِي الْعَيْشِ خَيْرٌ * وَلاَ الدُّنْيَا إِذَا ذَهَبَ الْحَيَاءُ

يَعِيشُ الْمَرْءُ مَا اسْتَحْيَا بِخَيْرٍ * وَيَبْقَى الْعُودُ مَا بَقِيَ اللِّحَاءُ

عَنْ مَيْمُوْنٍ قَال: مَنْ أَسَاءَ سِرّاً، فَلْيَتُبْ سِرّاً، وَمَنْ أَسَاءَ عَلاَنِيَةً، فَلْيَتُبْ عَلاَنِيَةً فَإِنَّ النَّاس يُعَيِّرُوْنَ وَلاَ يَغْفِرُوْنَ، وَالله يَغْفِرُ وَلاَ يعيّر.

وإذا خلوت بريبة في ظلمة * * * والنفس داعية إلى الطغيان

فاستحيي من نظر الإله وقل لها * * * إن الذي خلق الظلام يراني

قال ابن تيمية: ... وَكَذَلِكَ أَصْحَابُ الْمَتَاجِرِ وَالْأَمْوَالِ إذَا سَمِعَ أَحَدُهُمْ بِالْمَكَاسِبِ تَحَرَّكَتْ دَاعِيَتُهُ إلَى ذَلِكَ وَكَذَلِكَ أَهْلُ الْفُرَجِ وَالتَّنَزُّهِ إذَا رَأَوْا مَنْ يَقْصِدُ ذَلِكَ تَحَرَّكُوا إلَيْهِ وَهَذِهِ الدَّوَاعِي كُلُّهَا مَرْكُوزَةٌ فِي نُفُوسِ بَنِي آدَمَ وَالْإِنْسَانُ ظَلُومٌ جَهُولٌ. وَكَذَلِكَ ذِكْرُ آثَارِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تُذَكِّرُ بِهِ وَتُحَرِّكُ مَحَبَّتَهُ فَالْمُبْتَلَى بِالْفَاحِشَةِ وَالْعِشْقِ إذَا ذَكَرَ مَا بِهِ لِغَيْرِهِ تَحَرَّكَتْ نَفْسُ ذَلِكَ الْغَيْرِ إلَى جِنْسِ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ النُّفُوسَ مَجْبُولَةٌ عَلَى حُبِّ الصُّوَرِ الْجَمِيلَةِ فَإِذَا تَصَوَّرَتْ جِنْسًا تَحَرَّكَ إلَيْهَا الْمَحْبُوبُ. وَلِهَذَا نَهَى اللَّهُ تَعَالَى عَنْ إشَاعَةِ الْفَاحِشَةِ. وَكَذَلِكَ أَمَرَ بِسَتْرِ الْفَوَاحِشِ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ (مَنْ أُبْتُلِيَ مِنْ هَذِهِ الْقَاذُورَاتِ بِشَيْءٍ فَلْيَسْتَتِرْ بِسَتْرِ اللَّهِ فَإِنَّهُ مَنْ يُبْدِ لَنَا صَفْحَتَهُ نُقِمْ عَلَيْهِ كِتَابَ اللَّهِ) وَقَالَ (كُلُّ أُمَّتِي مُعَافًى إلَّا الْمُجَاهِرِينَ وَإِنَّ مِنْ الْمُجَاهَرَةِ أَنْ يَبِيتَ الرَّجُلُ عَلَى الذَّنْبِ قَدْ سَتَرَهُ اللَّهُ فَيُصْبِحُ يَتَحَدَّثُ بِهِ) فَمَا دَامَ الذَّنْبُ مَسْتُورًا فَعُقُوبَتُهُ عَلَى صَاحِبِهِ خَاصَّةً وَإِذَا ظَهَرَ وَلَمْ يُنْكَرْ كَانَ ضَرَرُهُ عَامًّا فَكَيْفَ إذَا كَانَ فِي ظُهُورِهِ تَحْرِيكٌ لِغَيْرِهِ إلَيْهِ.

٤ – قُبح المجاهرة بالمعصية بعد ستر الله تعالى.

٥ – الجهر بالمعصية يدل على استخفاف بحق الله ورسوله وصالحي المؤمنين.

٦ – في المجاهرة بالمعصية إشاعة الفاحشة بين المؤمنين.

١٠ – باب تَشْمِيتِ الْعَاطِسِ وَكَرَاهَةِ التَّثَاؤُبِ

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ عَطَسَ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ رَجُلاَنِ فَشَمَّتَ أَحَدَهُمَا وَلَمْ يُشَمِّتِ الآخَرَ فَقَالَ الَّذِى لَمْ يُشَمِّتْهُ عَطَسَ فُلاَنٌ فَشَمَّتَّهُ وَعَطَسْتُ أَنَا فَلَمْ تُشَمِّتْنِي. قَالَ (إِنَّ هَذَا حَمِدَ اللَّهَ وَإِنَّكَ لَمْ تَحْمَدِ اللَّهَ) .

[خ : ٦٢٢١] .

عن أَبِي مُوسَى . قال : قال رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ (إِذَا عَطَسَ أَحَدُكُمْ فَحَمِدَ اللَّهَ فَشَمِّتُوهُ فَإِنْ لَمْ يَحْمَدِ اللَّهَ فَلاَ تُشَمِّتُوهُ) .

عن سَلَمَةَ بْن الأَكْوَعِ (سَمِعَ النَّبِي ﷺ وَعَطَسَ رَجُلٌ عِنْدَهُ فَقَالَ لَهُ «يَرْحَمُكَ اللَّهُ». ثُمَّ عَطَسَ أُخْرَى فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: الرَّجُلُ مَزْكُومٌ) .

==========

١–مباحث تشميت العاطس :

يشرع للعاطس أن يحمد الله .

لقوله (إِنَّ هَذَا حَمِدَ اللَّهَ وَإِنَّكَ لَمْ تَحْمَدِ اللَّهَ) .

ولقوله (إِذَا عَطَسَ أَحَدُكُمْ فَحَمِدَ اللَّهَ فَشَمِّتُوهُ فَإِنْ لَمْ يَحْمَدِ اللَّهَ فَلاَ تُشَمِّتُوهُ) .

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (إِذَا عَطَسَ أَحَدُكُمْ فَلْيَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَلْيَقُلْ لَهُ أَخُوهُ، أَوْ صَاحِبُهُ يَرْحَمُكَ اللَّهُ فَإِذَا قَالَ لَهُ يَرْحَمُكَ اللَّهُ فَلْيَقُلْ يَهْدِيكُمُ اللَّهُ وَيُصْلِحُ بَالَكُم) رواه البخاري .

الحكمة من الحمد للعاطس.

قال الحليميّ رَحِمَهُ اللهُ: الحكمة في مشروعية الحمد للعاطس، أن العطاس يدفع الأذى من الدماغ الذي فيه قوة الفكر، ومنه منشأ الأعصاب التي هي معدن الحس، وبسلامته تسلم الأعضاء، فيظهر بهذا أنها نعمة جليلة، فناسب أن تقابل بالحمد لله، لِمَا فيه من الإقرار لله بالخلق والقدرة، وإضافة الخلق إليه، لا إلى الطبائع.

وقال ابن القيم: وَلَمّا كَانَ الْعَاطِسُ قَدْ حَصَلَتْ لَهُ بِالْعُطَاسِ نِعْمَةٌ وَمَنْفَعَةٌ بِخُرُوجِ الْأَبْخِرَةِ الْمُحْتَقِنَةِ فِي دِمَاغِهِ الّتِي لَوْ بَقِيَتْ فِيهِ أَحْدَثَتْ لَهُ أَدْوَاءً عَسِرَةً شُرِعَ لَهُ حَمْدُ اللهِ عَلَى هَذِهِ النّعْمَةِ مَعَ بَقَاءِ أَعْضَائِهِ عَلَى الْتِئَامِهَا وَهَيْئَتِهَا بَعْدَ هَذِهِ الزّلْزَلَةِ الّتِي هِيَ لِلْبَدَنِ كَزَلْزَلَةِ الْأَرْضِ لَهَا.

وقال ابن هبيرة: إذا عطس الإنسان استدل بذلك من نفسه على صحة بدنه وجودة هضمه واستقامت قوته فينبغي له أن يحمد الله.

وقالَ بن دَقِيقِ الْعِيدِ: وَمِنْ فَوَائِدِ التَّشْمِيتِ تَحْصِيلُ الْمَوَدَّةِ وَالتَّأْلِيفُ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَتَأْدِيبُ الْعَاطِسِ بِكَسْرِ النَّفْسِ عَنِ الْكِبْرِ وَالْحَمْلِ عَلَى التَّوَاضُعِ لِمَا فِي ذِكْرِ الرَّحْمَةِ مِنَ الْإِشْعَارِ بِالذَّنْبِ الَّذِي لَا يعرى عَنهُ أَكثر الْمُكَلّفين. ... (الفتح)

كيفية حمد الله بعد العطاس.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (إِذَا عَطَسَ أَحَدُكُمْ فَلْيَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ...) .

قال النووي : اخْتَلَفَ الْعُلَمَاء فِي كَيْفِيَّة الْحَمْد: فَقِيلَ: يَقُول: الْحَمْد لِلَّهِ. وَقِيلَ: الْحَمْد لِلَّهِ رَبّ الْعَالَمِينَ، وَقِيلَ: الْحَمْد لِلَّهِ عَلَى كُلّ حَال، وَقَالَ اِبْن جَرِير: هُوَ مُخَيَّر بَيْن هَذَا كُلّه، وَهَذَا هُوَ الصَّحِيح وَأَجْمَعُوا عَلَى أَنَّهُ مَأْمُور بِالْحَمْدِ لِلَّهِ. (نووي)

حكم تشميت العاطس إذا حمد الله.

قال النووي: وَاجْتَمَعَتْ الْأُمَّة عَلَى أَنَّهُ مَشْرُوع، ثُمَّ اِخْتَلَفُوا فِي إِيجَابه. ... (نووي)

وقد اختلف العلماء في حكم تشميت العاطس إذا حمد الله على أقوال:

فقيل: واجب.

قال النووي: فَأَوْجَبَهُ أَهْل الظَّاهِر، وَابْن مَرْيَم مِنْ الْمَالِكِيَّة عَلَى كُلّ مَنْ سَمِعَهُ.

أ- لحديث أبي هريرة. قال: قال ﷺ (حقُّ المسْلِم عَلَى المسْلِم ستٌّ: إِذَا لَقيتَهُ فَسَلِّمْ عَلَيهِ، وَإِذَا دَعَاكَ فَأجبْهُ، وإِذَا اسْتَنْصَحَكَ فَانْصَحْ لَهُ، وإِذَا عَطَسَ فَحَمِدَ الله فَشَمِّتْهُ، وَإِذَا مَرِضَ فَعُدْهُ، وَإِذَا مَاتَ فَاتَّبِعْه) متفق عليه.

ب- ولحديث البراء قال (أمرنا رَسُول الله ﷺ بسبع، ونهانا عن سبع: أَمَرَنَا بعيَادَة المرِيض، وَاتِّبَاعِ الجَنَازَة، وتَشْمِيتِ العَاطسِ،...).

ج- وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قال (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْعُطَاسَ وَيَكْرَهُ التَّثَاؤُبَ فَإِذَا عَطَسَ فَحَمِدَ اللَّهَ فَحَقٌّ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ سَمِعَهُ أَنْ يُشَمِّتَهُ ...).

قال ابن حجر: وقد أخذ بظاهرها ابن مزين من المالكية، وقال به جمهور أهل الظاهر وقال بن أبي جمرة قال جماعة من علمائنا إنه فرض عين وقواه بن القيم في حواشي السنن فقال: جاء بلفظ الوجوب الصريح، وبلفظ الحق الدال عليه، وبلفظ على الظاهرة فيه، وبصيغة الأمر التي هي حقيقة فيه، وبقول الصحابي أمرنا رسول الله ﷺ قال: ولا ريب أن الفقهاء أثبتوا وجوب أشياء كثيرة بدون مجموع هذه الأشياء.

وقال ابن القيم: فَظَاهِرُ الْحَدِيثِ الْمَبْدُوءِ بِهِ: أَنَّ التَّشْمِيتَ فَرْضُ عَيْنٍ عَلَى كُلِّ مَنْ سَمِعَ الْعَاطِسَ يَحْمَدُ اللَّهَ، وَلَا يُجْزِئُ تَشْمِيتُ الْوَاحِدِ عَنْهُمْ، وَهَذَا أَحَدُ قَوْلَيِ الْعُلَمَاءِ، وَاخْتَارَهُ ابن أبي زيد، وَأَبُو بَكْرِ بْنُ الْعَرَبِيِّ الْمَالِكِيَّانِ، وَلَا دَافِعَ لَه. (زاد المعاد)

وقيل: فرض كفاية.

ورجحه أبو الوليد بن رشد وأبو بكر بن العربي وقال به الحنفية وجمهور الحنابلة.

قال ابن مفلح: تشميت العاطس وجوابه فرض كفاية.

وقيل: مستحب.

وذهب عبد الوهاب وجماعة من المالكية إلى أنه مستحب ويجزئ الواحد عن الجماعة وهو قول الشافعية. (الفتح)

قال النووي: وَمَذْهَب الشَّافِعِيّ وَأَصْحَابه وَآخَرِينَ أَنَّهُ سُنَّة وَأَدَب، وَلَيْسَ بِوَاجِب.

قال ابن حجر: والراجح من حيث الدليل القول الثاني، والأحاديث الصحيحة الدالة على الوجوب لا تنافي كونه على الكفاية، فإن الأمر بتشميت العاطس وإن ورد في عموم المكلفين ففرض الكفاية يخاطب به الجميع على الأصح ويسقط بفعل البعض.

أن التشميت إنما يُشرع لمن حمد الله.

قال ابن العربيّ: وهو مجمع عليه.

أ-لحديث أبي هريرة السابق (فَإِذَا عَطَسَ فَحَمِدَ اللَّهَ فَحَقٌّ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ سَمِعَهُ أَنْ يُشَمِّتَهُ).

ب- وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ (عَطَسَ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ رَجُلاَنِ فَشَمَّتَ أَحَدَهُمَا وَلَمْ يُشَمِّتِ الآخَرَ فَقَالَ الَّذِى لَمْ يُشَمِّتْهُ عَطَسَ فُلاَنٌ فَشَمَّتَّهُ وَعَطَسْتُ أَنَا فَلَمْ تُشَمِّتْنِي. قَالَ: إِنَّ هَذَا حَمِدَ اللَّهَ وَإِنَّكَ لَمْ تَحْمَدِ اللَّهَ).

لا يشمت من لم يحمد الله.

لحديث أبي موسى الأشعري أن النبي ﷺ قال (إذا عطس أحدكم فحمد الله فشمتوه، فإن لم يحمد الله فلا تشمتوه).

قال النووي: هَذَا تَصْرِيح بِالْأَمْرِ بِالتَّشْمِيتِ إِذَا حَمِدَ الْعَاطِس، وَتَصْرِيح بِالنَّهْيِ عَنْ تَشْمِيته إِذَا لَمْ يَحْمَدهُ فَيُكْرَه تَشْمِيته إِذَا لَمْ يَحْمَد، فَلَوْ حَمِدَ وَلَمْ يَسْمَعهُ الْإِنْسَان لَمْ يُشَمِّتهُ. وَقَالَ مَالِك: لَا يُشَمِّتهُ حَتَّى يَسْمَع حَمْده. قَالَ: فَإِنْ رَأَيْت مِنْ يَلِيه شَمَّتَهُ فَشَمِّتْهُ.

وقال ابن حجر: لكن هل النهي فيه للتحريم، أو للتنزيه؟ الجمهور على الثاني.

هل يشرع التشميت لمن علم أنه حمد الله لكنه لم يسمعه.

نعم يشرع له التشميت، لعموم الأمر به لمن عطس فحمد.

وقال النوويّ: المختار أنه يشمّته مَن سَمِعه دون غيره، وحكى ابن العربيّ اختلافًا فيه، ورجح أنه يشمته، وكذا نقله ابن بطال وغيره عن مالك.

يحمد الله العاطس في الصلاة.

عن مُعَاذِ بْنِ رِفَاعَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ (صَلَّيْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَعَطَسْتُ فَقُلْتُ الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ مُبَارَكًا عَلَيْهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى. فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ انْصَرَفَ فَقَالَ «مَنِ الْمُتَكَلِّمُ فِي الصَّلاَةِ». فَلَمْ يَتَكَلَّمْ أَحَدٌ ثُمَّ ...). رواه الترمذي

دل الحديث على مشروعية الحمد للعاطس في الصلاة، ويؤيده عموم الأحاديث الواردة بمشروعيته، فإنها لم تفرق بين الصلاة وغيرها.

وبذلك قال الجمهور من الصحابة والتابعين، وقال به الإمام مالك والشافعي وأحمد، على خلاف بينهم: هل يسر بذلك أو يجهر به، والصحيح من قولي العلماء ومذهب أحمد أنه يجهر بذلك، ولكن بقدر ما يسمع نفسه؛ لئلا يشوش على المصلين.

لكن من عطس في الصلاة ثم حمد الله، فإنه لا يجوز لمن سمعه أن يشمته؛ لأن التشميت من كلام الناس، فلا يجوز في الصلاة، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه أنكر على من شمت العاطس في الصلاة، ثم قال له: (إن هذه الصلاة لا يحل فيها شيء من كلام الناس هذا، وإنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن) أخرجه الإمام مسلم.

هل يستحب لمن حضر من عطس ولم يحمد الله أن يذكره أم لا؟

قال النوويّ: ويستحب لمن حضر من عطس، فلم يحمد أن يذكّره بالحمد؛ ليحمد، فيشمته، وقد ثبتَ ذلك عن إبراهيم النخعيّ، وهو من باب النصيحة، والأمر بالمعروف.

وقيل: لا يستحب.

لأن النبيّ ﷺ لم يذكّر الذي عطس، فلم يحمد.

وهذا الذي فهمه أبو موسى الأشعريّ ﷺ، ففعل بعد النبيّ ﷺ مثل ما فعل النبيّ ﷺ شمّت من حمد، ولم يشمّت من لم يحمد.

رد العاطس على المشمت:

عنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (إِذَا عَطَسَ أَحَدُكُمْ فَلْيَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَلْيَقُلْ لَهُ أَخُوهُ، أَوْ صَاحِبُهُ يَرْحَمُكَ اللَّهُ فَإِذَا قَالَ لَهُ يَرْحَمُكَ اللَّهُ فَلْيَقُلْ يَهْدِيكُمُ اللَّهُ وَيُصْلِحُ بَالَكُم) رواه البخاري .

وعَنْ سَالِمِ بْنِ عُبَيْدٍ ﷺ قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ ﷺ (إِذَا عَطَسَ أَحَدُكُمْ فَلْيَقُلْ : الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، وَلْيَقُلْ لَهُ مَنْ يَرُدُّ عَلَيْهِ : يَرْحَمُكَ اللَّهُ ، وَلْيَقُلْ : يَغْفِرُ اللَّهُ لَنَا وَلَكُمْ) رواه أبو داود .

قال النووي: وَاخْتَلَفُوا فِي رَدّ الْعَاطِس عَلَى الْمُشَمِّت، فَقِيلَ: يَقُول: يَهْدِيكُمْ اللَّه وَيُصْلِح بَالكُمْ، وَقِيلَ: يَقُول: يَغْفِر اللَّه لَنَا وَلَكُمْ، وَقَالَ مَالِك وَالشَّافِعِيّ: يُخَيَّر بَيْن هَذَيْنِ، وَهَذَا هُوَ الصَّوَاب، وَقَدْ صَحَّتْ الْأَحَادِيث بِهِمَا. (نووي)

قد خُصّ من عموم الأمر بتشميت العاطس جماعة:

أ-من لم يحمد. كما تقدم.

ب- الكافر.

فقد أخرج أبو داود، وصححه الحاكم، من حديث أبي موسى الأشعريّ قال (كانت اليهود يتعاطسون عند النبيّ ﷺ رجاء أن يقول. يرحمكم الله، فكان يقول: يهديكم الله، ويصلح بالكم).

ج- من عطس والإمام يخطب.

فإن الكلام بأنواعه حرام والإمام يخطب.

٢-من آداب العاطس أن يخفض بالعطس صوته، ويرفعه بالحمد، وأن يغطي وجهه.

لئلا يبدو من فيه، أو أنفه ما يؤذي جليسه، ولا يلوي عنقه يمينًا ولا شمالًا؛ لئلا يتضرر بذلك.

قال ابن العربيّ: الحكمة في خفض الصوت بالعطاس أن في رفعه إزعاجًا للأعضاء، وفي تغطية الوجه أنه لو بدر منه شيء آذى جليسه، ولو لوى عنقه صيانة لجليسه لم يأمن من الالتواء، وقد شاهدنا من وقع له ذلك.

عن أبي هريرة ﷺ قال (كان النبيّ ﷺ إذا عطس وضع يده على فيه، وخفض صوته) رواه أبو داود.

٢-سَمِعَ النَّبِي ﷺ وَعَطَسَ رَجُلٌ عِنْدَهُ فَقَالَ لَهُ (يَرْحَمُكَ اللَّهُ ». ثُمَّ عَطَسَ أُخْرَى فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: الرَّجُلُ مَزْكُومٌ) .

ظاهر الحديث أنه يكف عن تشميت العاطس بعد المرة الأولى، وقد اختلف العلماء في هذه المسألة على أقول:

القول الأول : أنه يشمت في المرة الأولى ، ثم يقال له في الثانية : إنك مزكوم .

وهذا اختيار الحسن البصري ، ومجاهد ، وابن حبان .

لحديث الباب ، فهو نص .

القول الثاني : أنه يشمت مرتين ، ثم يقال في الثالثة : إنك مزكوم .

وهذا ظاهر اختيار الترمذي ، واختاره ابن العربي .

القول الثالث : أنه يشمت ثلاثاً ، ثم يقال له في الرابعة : إنك مزكوم .

واختاره: قتادة، والإمام مالك، وابن عبد البر، والنووي، وابن حجر . لورود بعض النصوص التي لا تسلم أسانيدها من مقال:

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ (إِنْ عَطَسَ فَشَمِّتْهُ ثُمَّ إِنْ عَطَسَ فَشَمِّتْهُ ، ثُمَّ إِنْ عَطَسَ فَشَمِّتْهُ ، ثُمَّ إِنْ عَطَسَ فَقُلْ : إِنَّكَ مَضْنُوكٌ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ لَا أَدْرِي أَبَعْدَ الثَّالِثَةِ أَوْ الرَّابِعَةِ) رواه مالك .

وعَنْ سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (يُشَمَّتُ الْعَاطِسُ ثَلَاثًا ، فَمَا زَادَ فَهُوَ مَزْكُومٌ) رواه ابن ماجه .

قال النووي رحمه الله : إذا تكرر العطاس من إنسان متتابعاً، فالسنة أن يشمته لكل مرة إلى أن يبلغ ثلاث مرات. روينا في "صحيح مسلم" وسنن أبي داود والترمذي عن سلمة بن الأكوع ﷺ أنه سمع النبي ﷺ وعطس عنده رجل ، فقال له : يرحمك الله، ثم عطس أخرى، فقال له رسول الله ﷺ : الرجل مزكوم" هذا لفظ رواية مسلم.

وأما رواية أبي داود والترمذي فقالا: قال سلمة: " عطس رجل عند رسول الله ﷺ وأنا شاهد، فقال رسول الله ﷺ : يرحمك الله ، ثم عطس الثانية أو الثالثة، فقال رسول الله ﷺ : يرحمك الله ، هذا رجل مزكوم . (كتاب الأذكار)

وسئل الشيخ ابن عثيمين رحمه الله : هل يلزم تشميت العاطس على صفة واحدة ولو تكرر العطاس ثلاث مرات فأكثر؟

فأجاب: "إذا عطس ثلاث مرات وأنت تشمته في كل مرة فقل له بعد الثالثة: عافاك الله؛ لأن ذلك يكون زكاماً، فقل: عافاك الله، إنك مزكوم، وإنما تقول: عافاك الله وتقول: إنك مزكوم؛ لئلا يتوهم أنك دعوت له بأن يعافيه الله تعالى من معصية فعلها أو ذنب فعله، فتقول: إنك مزكوم، تخبره أنك إنما سألت له العافية من أجل هذا فقط .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ (التَّثَاؤُبُ مِنَ الشَّيْطَانِ فَإِذَا تَثَاءَبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَكْظِمْ مَا اسْتَطَاعَ) .

[خ : ٣٢٨٩] .

عن أبي سعيد . قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (إِذَا تَثَاوَبَ أَحَدُكُمْ فَلْيُمْسِكْ بِيَدِهِ عَلَى فِيهِ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَدْخُلُ) .

==========

١-مباحث التثاؤب :

التثاؤب من الشيطان .

لقوله ﷺ (التَّثَاؤُبُ مِنَ الشَّيْطَانِ) .

نسبته إلى الشيطان، لأن التثاؤب دليل الكسل والفتور وثقل البدن وامتلائه واسترخائه، والشيطان يدعو إلى مثل هذه الأمور.

قال النووي: قوله ﷺ (التَّثَاؤُب مِنْ الشَّيْطَان) أَيْ : مِنْ كَسَله وَتَسَبُّبه، وَقِيلَ: أُضِيفَ إِلَيْهِ لِأَنَّهُ يُرْضِيه. وَفِي الْبُخَارِيّ أَنَّ النَّبِيّ ﷺ قَالَ: "إِنَّ اللَّه تَعَالَى يُحِبّ الْعُطَاس، وَيَكْرَه التَّثَاؤُب" قَالُوا: لِأَنَّ الْعُطَاس يَدُلّ عَلَى النَّشَاط وَخِفَّة الْبَدَن، وَالتَّثَاؤُب بِخِلَافِهِ لِأَنَّهُ يَكُون غَالِبًا مَعَ ثِقَل الْبَدَن وَامْتِلَائِهِ، وَاسْتِرْخَائِهِ وَمَيْله إِلَى الْكَسَل. وَإِضَافَته إِلَى الشَّيْطَان لِأَنَّهُ الَّذِي يَدْعُو إِلَى الشَّهَوَات. وَالْمُرَاد التَّحْذِير مِنْ السَّبَب الَّذِي يَتَوَلَّد مِنْهُ ذَلِكَ، وَهُوَ التَّوَسُّع فِي الْمَأْكَل وَإِكْثَار الْأَكْل . (شرح مسلم)

ماذا يفعل من تثاءب:

أولاً: أن يرده ما استطاع.

لحديث أبي هريرة (... فَإِذَا تَثَاوَبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَرُدَّهُ مَا اسْتَطَاعَ).

أن يأخذ في أسباب رده.

لقوله (فَإِذَا تَثَاءَبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَكْظِمْ مَا اسْتَطَاعَ).

ثانياً: أن يضع يده على فيه.

لقوله ﷺ (إِذَا تَثَاوَبَ أَحَدُكُمْ فَلْيُمْسِكْ بِيَدِهِ عَلَى فِيهِ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَدْخُلُ) .

تشتد كراهية التثاوب في الصلاة .

لقوله (إِذَا تَثَاوَبَ أَحَدُكُمْ فِي الصَّلاَةِ فَلْيَكْظِمْ مَا اسْتَطَاعَ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَدْخُلُ) فقيده حال الصلاة.

قال ابن العربيّ رَحِمَهُ اللهُ: ينبغي كظم التثاؤب في كل حالة، وإنما خَصّ الصلاة؛ لأنها أَولى الأحوال بدفعه؛ لِمَا فيه من الخروج عن اعتدال الهيئة، واعوجاج الخلقة.

أمر المتثاوب أن يكظم التثاؤب لأمور:

أولاً: إن لم يفعل دخل الشيطان.

لقوله (إذا تثاءب أحدكم فليمسك بيده على فيه، فإن الشيطان يدخل).

ثانياً: إن لم يفعل فإنه يضحك الشيطان منه.

قال ﷺ (التثاؤب من الشيطان فليرده ما استطاع، فإذا قال: ها، ضحك منه الشيطان) رواه البخاري.

ثالثاً: أن فتح الفم وإخراج صوت منه أمر مستقبح ومستقذر.

قال النووي: قَالَ الْعُلَمَاء: أُمِرَ بِكَظْمِ التَّثَاؤُب وَرَدّه وَوَضْع الْيَد عَلَى الْفَم لِئَلَّا يَبْلُغ الشَّيْطَان مُرَاده مِنْ تَشْوِيه صُورَته، وَدُخُوله فَمه، وَضَحِكَهُ مِنْهُ. وَاَللَّهُ أَعْلَم.

٢-هل الأفضل أن يضع على فمه اليد اليسرى أم اليمنى؟

استحب غير واحد من أهل العلم أن يكون باليد اليسرى؛ لأنه من باب دفع الأذى، وقاعدة الشريعة: تقديم اليمين في كل ما كان من باب الكرامة، وتقديم الشمال في كل ما كان من باب المهانة.

وذكروا أن ذلك يكون بوضع ظهر كفه اليسرى على فمه؛ لأنه من باب دفع الشيطان، فيكون دفعه بباطنها، فإن كظمه باليمنى حصل أصل السنة، وحينئذ يكون بوضع باطنها على الفم.

قال المناوي رحمه الله (فليضع يده) أي ظهر كف يسراه كما ذكره جمع، ويتجه أنه للأكمل وأن أصل السنة يحصل بوضع اليمين. قيل: لكنه يجعل بطنها على فيه عكس اليسرى.

وقال السفاريني رحمه الله: وَقَالَ لِي شَيْخُنَا التَّغْلِبِيُّ فَسَّحَ اللَّهُ لَهُ فِي قَبْرِهِ: إنْ غَطَّيْت فَمَك فِي التَّثَاؤُبِ بِيَدِك الْيُسْرَى فَبِظَاهِرِهَا، وَإِنْ كَانَ بِيَدِك الْيُمْنَى فَبِبَاطِنِهَا.

قَالَ وَالْحِكْمَةُ فِي ذَلِكَ: لأَنَّ الْيُسْرَى لِمَا خَبُثَ وَلا أَخْبَثَ مِنْ الشَّيْطَانِ، وَإِذَا وَضَعَ الْيُمْنَى فَبَطْنَهَا: لأَنَّهُ أَبْلَغُ فِي الْغِطَاءِ، وَالْيُسْرَى مُعَدَّةٌ لِدَفْعِ الشَّيْطَانِ، وَإِذَا غَطَّى بِظَهْرِ الْيُسْرَى فَبَطْنُهَا مُعَدٌّ لِلدَّفْعِ. (غذاء الألباب)

وقال الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله: وإذا غلبه فإنه ينبغي تغطية فمه بيده اليسرى؛ لأنه من باب دفع الخبث؛ فإن الشيطان خبيث. ويكون الذي يلي فمه ظهر كفه؛ لأنه من باب الدفع والمنع، يدفع الشيطان ويمنعه لا يدخل.

٣-**قال الحافظ ابن حجر:** ومن الخصائص النبوية ما أخرجه ابن أبي شيبة والبخاري في التاريخ من مرسل يزيد بن الأصم قال (ما تثاءب النبي ﷺ قط) وأخرج الخطابي من طريق مسلمة بن عبد الملك بن مروان قال: (ما تثاءب نبي قط) ومسلمة أدرك بعض الصحابة وهو صدوق، ويؤيد ذلك ما ثبت: أن التثاؤب من الشيطان.

٤-الشيطان يأكل.

عَنْ جَابِرٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ (لاَ تَأْكُلُوا بِالشِّمَالِ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَأْكُلُ بِالشِّمَالِ) رواه مسلم.

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ (إِذَا دَخَلَ الرَّجُلُ بَيْتَهُ فَذَكَرَ اللَّهَ عِنْدَ دُخُولِهِ وَعِنْدَ طَعَامِهِ قَالَ الشَّيْطَانُ لاَ مَبِيتَ لَكُمْ وَلاَ عَشَاءَ. وَإِذَا دَخَلَ فَلَمْ يَذْكُرِ اللَّهَ عِنْدَ دُخُولِهِ قَالَ الشَّيْطَانُ أَدْرَكْتُمُ الْمَبِيتَ. وَإِذَا لَمْ يَذْكُرِ اللَّهَ عِنْدَ طَعَامِهِ قَالَ أَدْرَكْتُمُ الْمَبِيتَ وَالْعَشَاءَ) رواه مسلم.

ويبول:

كما في حديث ابن مسعود. قَالَ (ذُكِرَ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ رَجُلٌ نَامَ لَيْلَةً حَتَّى أَصْبَحَ قَالَ «ذَاكَ رَجُلٌ بَالَ الشَّيْطَانُ فِي أُذُنَيْهِ». أَوْ قَالَ «فِي أُذُنِهِ») متفق عليه.

ويضحك.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (التَّثَاؤُبُ مِنَ الشَّيْطَانِ فَإِذَا تَثَاءَبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَرُدَّهُ مَا اسْتَطَاعَ فَإِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا قَالَ هَا ضَحِكَ الشَّيْطَانُ) رواه البخاري.

ويبكي.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (إِذَا قَرَأَ ابْنُ آدَمَ السَّجْدَةَ فَسَجَدَ اعْتَزَلَ الشَّيْطَانُ يَبْكِي يَقُولُ يَا وَيْلَهُ -وَفِي رِوَايَةِ أَبِي كُرَيْبٍ يَا وَيْلِي- أُمِرَ ابْنُ آدَمَ بِالسُّجُودِ فَسَجَدَ فَلَهُ الْجَنَّةُ وَأُمِرْتُ بِالسُّجُودِ فَأَبَيْتُ فَلِيَ النَّارُ) رواه مسلم.

ويهرب.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ . قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ (إِذَا نُودِيَ بِالصَّلاَةِ أَدْبَرَ الشَّيْطَانُ وَلَهُ ضُرَاطٌ حَتَّى لاَ يَسْمَعَ الأَذَانَ).

١١ – باب فِي أَحَادِيثَ مُتَفَرِّقَةٍ

عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (خُلِقَتِ الْمَلاَئِكَةُ مِنْ نُورٍ وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ) .

==========

١-الحديث دليل على إثبات الملائكة .

٢-الحديث دليل على أن الملائكة خلقت من نور .

فالملائكة أجسام نورانية ، وليست -كما يزعم بعض الجهال- أرواحاً بلا أجسام، ولا هي أيضاً: أنفس خيرة فارقت أجسادها، أو قوى علوية، أو معان سامية، أو هي هذه الكواكب، وغير ذلك من الأقوال الباطلة .

قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: الملائكة أجسام، وليست أرواحاً بلا أجسام، ولكن الله عز وجل حجبهم عنا، جعلهم عالماً غيبياً، كما أن الجن أجسام ولكن الله عز وجل حجبهم فجعلهم عالماً غيبياً.

وقد تظهر الملائكة في صورة إنسان، كما جاء جبريل إلى رسول الله ﷺ مرة بصورة دحية الكلبي، ومرة بصورة رجل غريب لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه الصحابة، وعليه ثياب بيض، شعره أسود، وجلس إلى النبي ﷺ وسأله عن الإسلام والإيمان والإحسان والساعة وأشراطها . (شرح رياض الصالحين)

وقال الشيخ أيضاً : الملائكة أجسام بلا شك، كما قال الله عزّ وجل: (جَاعِلِ الْمَلاَئِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ) وقال النبي ﷺ: (أطت السماء) والأطيط: صرير الرحل، أي إذا كان على البعير حمل ثقيل، تسمع له صريراً من ثقل الحمل، ويدل لهذا حديث جبريل عليه السلام: أن له ستمائة جناح قد سد الأفق، والأدلة على هذا كثيرة .

وأما من قال: إنهم أرواح لا أجسام لهم، فقوله منكر وضلال، وأشد منه نكارةً من قال: إن الملائكة كناية عن قوى الخير التي في نفس الإنسان، والشياطين كناية عن قوى الشر، فهذا من أبطل الأقوال . انتهى .

٣-الإيمان بالملائكة من أركان الإيمان.

قال ﷺ في بيان أركان الإيمان (أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره) متفق عليه.

خلقهم الله من نور.

كما في حديث الباب .

يعبدون الله لا يملون.

كما قال تعالى (يسبحون الليل والنهار لا يفترون). ومعنى لا يفترون: لا يضعفون.

وقال تعالى (فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون).

عددهم كثير لا يعلم عددهم إلا الله.

كما قال تعالى (وما يعلم جنود ربك إلا هو).

وقال ﷺ في البيت المعمور في السماء السابعة (فإذا هو يدخله في كل يوم سبعون ألف ملك، لا يعودون إليه آخر ما عليهم). رواه مسلم

ونعرف أسماء بعضهم.

إسرافيل (الذي ينفخ في الصور) **وجبريل** (هو الذي يأتي بالوحي) **وميكائيل** (هو الذي موكل بالقطر).

وهؤلاء كان النبي ﷺ يتوسل بربوبية الله لهم في دعاء الاستفتاح في صلاة الليل فيقول (اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون. اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم) رواه مسلم.

مالك (خازن النار).

قال تعالى (ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون).

رضوان.

قال ابن كثير: وخازن الجنة ملك يقال له رضوان، جاء مصرحاً به في بعض الأحاديث.

٣-قوله (**خُلِقَتِ الْمَلاَئِكَةُ مِنْ نُورٍ**) استدل بعض العلماء بهذا على أن إبليس ليس من الملائكة، وهذه المسألة اختلف فيها العلماء على قولين:

القول الأول: أن إبليس ليس من الملائكة بل هو من الجن.

أ-للآية التي في سورة الكهف (إلا إبليس كان من الجن) والجن غير الملائكة، وهذا نص قرآني صريح في محل النزاع.

ب- ولأن الملائكة معصومين من ارتكاب الكفر الذي ارتكبه إبليس كما قال تعالى عنهم (لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ).

ج- ولقوله ﷺ (خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار) رواه مسلم.

د- أن إبليس له نسل وذرية قال الله تعالى (أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو).

وقالوا إن استثناء الله إياه منهم لا يدل على كونه من جملتهم، وإنما استثناه منهم، لأنه كان مأموراً بالسجود معهم، فلما دخل معهم في الأمر جاز إخراجه بالاستثناء منهم.

القول الثاني: أنه أصله كان من الملائكة. ونسب هذا القول القرطبي لجمهور العلماء.

قال القاسمي: قاله ابن عباس، وابن مسعود، وسعيد بن المسيب، واختاره الشيخ موفق الدين، والشيخ أبو الحسن الأشعري، وأئمة المالكية، وابن جرير الطبري. قال البغوي: هذا قول أكثر المفسرين.

لأنه سبحانه أمر الملائكة بالسجود لآدم. قال تعالى: (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ) فلولا أنه من الملائكة، لما توجه الأمر إليه بالسجود، ولو لم يتوجه الأمر إليه بالسجود لم يكن عاصياً، ولما استحق الخزي والنكال.

وقالوا: فإخراجه بالاستثناء منهم دليل على أنه منهم.

٤-الحديث دليل على أن الجن مخلوق من نار .

٥-**فإن قيل** : كيف يعذَّب إبليس في النار وقد خُلق من النار : فالجواب عنه :

أنه لا يلزم من كون الجن خلقوا من نار أن يكونوا الآن ناراً ، كما أن الإنس خلقوا من تراب وليسوا الآن تراباً .

قال أبو الوفاء بن عقيل : " أضاف الشياطين والجان إلى النار حسب ما أضاف الإنسان إلى التراب والطين والفخار، والمراد به في حق الإنسان أن أصله الطين، وليس الآدمي طيناً حقيقة، لكنه كان طيناً، كذلك الجان كان ناراً في الأصل " . انتهى .

وإذا كان الإنس خلقوا من تراب وقليل منه يؤذيهم، وإن دفنوا تحته ماتوا، وإن ضربوا به (الفخار مثلاً) جرحوا أو ماتوا، فكذلك ليس غريباً أن يكون الجن قد خلقوا من النار، ويعذبون بنار جهنم .

والجن خلقهم الله تعالى من نار ، ولكنهم ليسوا الآن ناراً ، والأدلة على ذلك كثيرة ، منها :

أ-عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يصلي فأتاه الشيطان فأخذه فصرعه فخنقه، قال رسول الله ﷺ (حتى وجدت برد لسانه على يدي، ولولا دعوة أخي سليمان عليه السلام لأصبح موثقاً حتى يراه الناس) رواه النسائي .

ب- عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال (قام رسول الله ﷺ فسمعناه يقول: أعوذ بالله منك ثم قال: ألعنك بلعنة الله ثلاثاً وبسط يده كأنه يتناول شيئاً، فلما فرغ من الصلاة قلنا: يا رسول الله قد سمعناك تقول في الصلاة شيئاً لم نسمعك تقوله قبل ذلك ورأيناك بسطت يدك، قال: إن عدو الله إبليس جاء بشهاب من نار ليجعله في وجهي فقلت: أعوذ بالله منك ثلاث مرات ثم قلت: ألعنك بلعنة الله التامة فلم يستأخر، ثلاث مرات، ثم أردت أخذه، والله لولا دعوة أخينا سليمان لأصبح موثقاً يلعب به ولدان أهل المدينة). رواه مسلم

فمن هذين الحديثين يتبين لنا أن الجن الآن ليسوا ناراً؛ ويدل على ذلك: ما وجده رسول الله ﷺ من برد لسان الشيطان، كما في الحديث الأول، وأن الشيطان لو كان باقيًا على ناريته ما احتاج أن يأتي بشهاب ليجعله في وجه النبي ﷺ، ولما استطاع الولدان أن يلعبوا به .

ج-ومن الأدلة -كذلك- قول النبي ﷺ (إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم) .

ولو كان الشيطان ناراً لاحترق الإنسان؛ لأن الشيطان داخله، فتبين الفرق بين كون الشيطان ناراً وكونه مخلوقاً من نار .

د-ولو كان الشيطان ناراً الآن -على سبيل الفرض- وأراد الله أن يعذبه بنار جهنم، فإن الله تعالى على كل شيء قدير، ولا يعجزه شيء سبحانه وتعالى . (الإسلام س ج)

٦-أن آدم خلق من تراب .

كما قال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ) أي : خلقنا آدم من تراب .

وقال تعالى (والله خلقكم من تراب) أي: ابتدأ خلق أبيكم آدم من تراب.

وقال تعالى (وبدأ خلق الإنسان من طين) يعني خلق أبا البشر آدم من طين.

وقال تعالى (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ).

وقال ﷺ (الناس بنو آدم ، وآدم من تراب).

٧-ترتيب مراحل خلق الله سبحانه وتعالى لآدم :

بدأت بـ "التراب"، ثم أضيف إليه "الماء" فصار: "طيناً"، ثم صار هذا الطين "حمأ مسنوناً" أي: أسود متغير، فلما ييبس هذا الطين -من غير أن تمسه النار- صار "صلصالاً"- والصلصال هو الطين اليابس لم تمسه نار، ثم نفخ الله سبحانه وتعالى في مادة الخلق هذه من روحه، فصار هذا المخلوق بشراً، وهو آدم عليه السلام .

قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله : إذا عرفت هذا فاعلم أن الله جل وعلا أوضح في كتابه أطوار هذا الطين الذي خلق منه آدم ، فبين أنه أولاً تراب :

بقوله : (إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ) وقوله : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ) وقوله : (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ) إلى غير ذلك من الآيات .

ثم أشار إلى أن ذلك التراب بُلَّ فصار طيناً يعلق بالأيدي في مواضع أخر :

كقوله : (إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لازِبٍ) وقوله : (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ) وقوله : (وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِنْ طِينٍ) إلى غير ذلك من الآيات .

وبيَّن أن ذلك الطين أسودَّ، وأنه متغير بقوله هنا: (حَمَإٍ مَسْنُونٍ) .

وبيَّن أيضاً أنه ييبس حتى صار صلصالاً، أي : تسمع له صلصلة من ييسه بقوله: (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ) وقوله : (خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ) والعلم عند الله تعالى . (أضواء البيان)

وقال تعالى (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ) أي: خلقنا آدم من طين يابسٍ يسمع له صَلصلة أي صوت إذا نُقر.

(منْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ) من طين أسود متغير لونه وريحه من طول مكثه.

قال ابن الجوزي: قال ابنُ الأنباري: لا خلافَ أنَّ الحمأَ: الطينُ الأسودُ المتغيّرُ الريحِ. ... (زاد المسير).

١٢ – باب في الْفَأْرِ وَأَنَّهُ مَسْخٌ

عنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (فُقِدَتْ أُمَّةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ يُدْرَى مَا فَعَلَتْ وَلاَ أُرَاهَا إِلاَّ الْفَأْرَ أَلاَ تَرَوْنَهَا إِذَا وُضِعَ لَهَا أَلْبَانُ الإِبِلِ لَمْ تَشْرَبْهُ وَإِذَا وُضِعَ لَهَا أَلْبَانُ الشَّاءِ شَرِبَتْهُ ». قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ فَحَدَّثْتُ هَذَا الْحَدِيثَ كَعْبًا فَقَالَ آنْتَ سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قُلْتُ نَعَمْ. قَالَ ذَلِكَ مِرَارًا. قُلْتُ أَأَقْرَأُ التَّوْرَاةَ قَالَ إِسْحَاقُ فِي رِوَايَتِهِ « لاَ نَدْرِى مَا فَعَلَتْ) .

==========

١-**معنى الحديث** : قال شراح الحديث : (فقدت أمة من بني إسرائيل) أي: ذهبت طائفة منهم أو سبط لا يعلم ما وقع لهم. فيقول ﷺ: (لا أراها) أي: لا أظنها إلا مسخها الله تعالى لجنس الفأر. (ألا ترونها إذا وضع لها ألبان الإبل لم تشربه، وإذا وضع لها ألبان الشاء شربته؟)

قال النووي : معنَى هَذَا أَنَّ لُحُوم الْإِبِل وَأَلْبَانهَا حُرِّمَتْ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيل دُون لُحُوم الْغَنَم وَأَلْبَانهَا، فَدَلَّ بِامْتِنَاعِ الْفَأْرَة مِنْ لَبَن الْإِبِل دُون الْغَنَم عَلَى أَنَّهَا مَسْخ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيل . (نووي)

والظاهر من الحديث أنه ﷺ قال ذلك اجتهاداً منه وظناً قبل أن يخبر من الله تعالى أنه لم يجعل لمسخ نسلاً ولا عقباً كما ثبت عنه ﷺ.

وعليه؛ فهذه الحيوانات كانت قبل أن يكون المسخ لبعض الأمم، ومن مسخ منهم قردة أو خنازير أو غيرها فقد انقرض ولم يبق له وجود.

قال الحافظ في الفتح: وذكر عند النبي ﷺ القردة والخنازير، فقال: إن الله لم يجعل للمسخ نسلاً ولا عقباً، وقد كانت القردة والخنازير قبل ذلك- كما في صحيح مسلم وغيره-، وعلى هذا يحمل قوله ﷺ : (لا أراها إلا الفأر) وكأنه كان يظن ذلك ثم أعلم بأنها ليست هي .

٢-والمسخ قد وقع عقوبة من رب العالمين لقوم من بني إسرائيل تحايلوا على الشرع، حرم الله عليهم الصيد يوم السبت فصنعوا حيلة للوصول إلى ما حرم الله، فمسخهم الله قردة خاسئين .

كما في قوله تعالى في سورة الأعراف : (وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ * وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ * فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ * فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ) .

والمسخ عقوبة باقية سوف تحدث لأقوام من هذه الأمة المحمدية .

كما أخبر النبي ﷺ فقال: (لَيَكُونَنَّ مِنْ أُمَّتِي أَقْوَامٌ، يَسْتَحِلُّونَ الحِرَ وَالحَرِيرَ، وَالخَمْرَ وَالمَعَازِفَ، وَلَيَنْزِلَنَّ أَقْوَامٌ إِلَى جَنْبِ عَلَمٍ، يَرُوحُ عَلَيْهِمْ بِسَارِحَةٍ لَهُمْ، يَأْتِيهِمْ -يَعْنِي الفَقِيرَ- لِحَاجَةٍ فَيَقُولُونَ: ارْجِعْ إِلَيْنَا غَدًا، فَيُبَيِّتُهُمُ اللَّهُ، وَيَضَعُ العَلَمَ، وَيَمْسَخُ آخَرِينَ قِرَدَةً وَخَنَازِيرَ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ). أخرجه البخاري في صحيحه معلقاً بصيغة الجزم .

وقد اختلف أهل العلم في كون هؤلاء الذين مسخهم الله قردة من بني إسرائيل وغيرهم : هل يهلكهم الله ، ولا يكون لهم نسل ، أم أنهم يكون لهم نسل وعقب ؟ على قولين لأهل العلم .

حيث قال القرطبي في "تفسيره" وَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي الْمَمْسُوخِ هَلْ يَنْسِلُ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ: قَالَ الزَّجَّاجُ: قَالَ قَوْمٌ يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْقِرَدَةُ مِنْهُمْ. وَاخْتَارَهُ الْقَاضِي أَبُو بَكْرِ ابْنُ الْعَرَبِيِّ.

وَقَالَ الْجُمْهُورُ: الْمَمْسُوخُ لَا يَنْسِلُ .

وَإِنَّ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَغَيْرُهُمَا كَانَتْ قَبْلَ ذَلِكَ، وَالَّذِينَ مسخهم الله قد هلكوا وَلَمْ يَبْقَ لَهُمْ نَسْلٌ ". انتهى .

والقول بأنه ينسل قول ضعيف شاذ كما ذكر غير واحد من أهل العلم، وقد ورد في الحديث الصحيح ما يدل على هلاك من مسخهم الله، وأنه ليس لهم نسل ولا عقب .

عَنْ عَبْدِ اللهِ بن مسعود رضي الله عنه، أن النَّبِيَّ ﷺ ذُكِرَتْ عِنْدَهُ الْقِرَدَةُ -قَالَ مِسْعَرٌ: وَأُرَاهُ قَالَ: وَالْخَنَازِيرُ مِنْ مَسْخٍ- فَقَالَ:(إِنَّ اللهَ لَمْ يَجْعَلْ لِمَسْخٍ نَسْلًا وَلَا عَقِبًا، وَقَدْ كَانَتِ الْقِرَدَةُ وَالْخَنَازِيرُ قَبْلَ ذَلِكَ) رواه مسلم .

قال الحافظ: وَقَدْ ذَهَبَ أَبُو إِسْحَاقَ الزَّجَّاجُ وَأَبُو بَكْرِ بْنِ الْعَرَبِيِّ إِلَى أَنَّ الْمَوْجُودَ مِنَ الْقِرَدَةِ مِنْ نَسْلِ الْمَمْسُوخِ وَهُوَ مَذْهَب شَاذ.

١٣ – باب لاَ يُلْدَغُ الْمُؤْمِنُ مِنْ جُحْرٍ مَرَّتَيْنِ

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِي ﷺ قَالَ (لاَ يُلْدَغُ الْمُؤْمِنُ مِنْ جُحْرٍ وَاحِدٍ مَرَّتَيْنِ) .

[خ : ٦١٣٣] .

==========

١ – الحديث دليل على أن المؤمن الحق: أن يكون حذرًا، فطنًا، غير مغفّل، فإن وقع في ورطة مّا، فليحذر كلّ الحذر أن يقع في مثلها، وذلك بالبعد عن أسبابها، وسدّ الطرق التي تؤدي إليها.

قال الخطابيّ: هذا لفظه خبر، ومعناه أمر؛ أي: لِيَكُنِ المؤمنُ حازمًا حَذِرًا، لا يؤتى من ناحية الغفلة، فيُخدعَ مرة بعد أخرى، وقد يكون ذلك في أمر الدِّين، كما يكون في أمر الدنيا، وهو أَولهما بالحذر، وقد رُوي بكسر الغين في الوصل، فيتحقق معنى النهي عنه.

وقال أبو عبيد: معناه: ولا ينبغي للمؤمن إذا نُكِب من وجه أن يعود إليه.

قال الحافظ: وهذا هو الذي فهمه الأكثر، ومنهم الزهريّ راوي الخبر.

فأخرج ابن حبّان من طريق سعيد بن عبد العزيز، قال: قيل للزهريّ: لَمّا قَدِم من عند هشام بن عبد الملك: ماذا صنع بك؟ قال: أوفى عني ديني، ثم قال: يا ابن شهاب تعود تَدّان؟ قلت: لا، وذكر الحديث.

قال القرطبي: قوله ﷺ (لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين) هذا مَثَل صحيح، وقول بليغ ابتكره النبيّ ﷺ من فوره، ولم يسمع من غيره، وذلك أن السبب الذي أصدره عنه هو، أن أبا عزيز بن عمير الشاعر أخا مصعب بن عمير، كان يهجو النبيّ ﷺ، ويؤذيه، ويؤذي المسلمين، فأمكن الله تعالى منه يوم بدر، فأُخذ أسيرًا، وجيء به إلى النبيّ ﷺ، فسأله أن يمنّ عليه، ولا يعود لشيء مما كان يفعله، فمنَّ النبيّ ﷺ عليه، فأطلقه، فرجع إلى مكة، وعاد إلى أشد مما كان عليه، فلما كان يوم أُحد، أمكن الله منه، فأُسر، فأحضر بين يدي النبيّ ﷺ فسأله أن يمنّ عليه، فقال لي النبي ﷺ (لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين، والله لا تمسح عارضيك بمكة أبداً) فأمر بقتله، وأصل هذا المثَل أن الذي يُلدغ من جُحر لا يعيد يده إليه أبدًا، إذا كان فطنًا حذرًا، بل ولا لِمَا يُشبهه، فكذلك المؤمن لكياسته، وفطانته، وحذره إذا وقع في شيء مما يضره في دينه، أو دنياه لا يعود إليه، والرواية المعروفة: "لا يلدغ" بضم الغين، وكذلك قرأته على الخبر، وهو الذي يشهد له سبب الخبر، ومساقه، وقد قيّده بعضهم بسكون الغين على النهي، وفيه بعدٌ. (المفهم)

٢ – هذا حديثٌ من جوامع كلمه، وروائع حِكمه، صلوات الله وسلامه عليه، ضربه مثلًا للمؤمن وما ينبغي أن يتكمَّل به من كياسةٍ وسياسةٍ، ويقظة وحزمٍ؛ فإنَّ نقصًا في دين المرء وعقله أن يكون أبْلَهَ مُغفَّلًا، خدْعةً للخادعين، وطُعْمَةً للطامعين.

٣ – ما أجمل تقييده الجُحْر "بواحد"، حتى لا تكون نقصًا في إيمان المؤمن، ولا ثُلْمًا في فِطنته وكياسته، أن يُلدغَ من جُحْرٍ آخر ليس من نوع الأول ولا من قبيله، وإن لم يكن من تمام الفطنة والاعتبار بالحوادث، والاتِّعاظ بالكوارث، وقياس الأمور بأشباهها.

٤ – لماذا خُصَّ المؤمنُ بهذه الوصية؟!

وإنما خُصَّ المؤمنُ بهذه الوصيَّة الحكيمة؛ لما يغلب عليه من سلامة النيَّة وحُسْن الظن، فيقع في الشَّرَك من حيث لا يدري.

٥ – المؤمن الفَطِنَ الحَذِر، الكيّس الرشيد، خيرٌ من المؤمن العاجز الضعيف.

٦ – قوله ﷺ (من جحر) والجحر مكان مظلم غيبي، والمؤمن لا يعلم الغيب، فكان لا بد أن يمر بالتجربة الأولى، قال البخاري رحمه الله: قال معاوية: لا حكيم إلا ذو تجربة.

والمؤمن أمره كله خير فإن اللدغة الأولى علمته اتقاءها مرة أخرى.

١٤ – باب الْمُؤْمِنُ أَمْرُهُ كُلُّهُ خَيْرٌ

عَنْ صُهَيْبٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (عَجَبًا لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إِلاَّ لِلْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ) .

==========

١–هذا الحديث دليل على فضل الله تعالى على المؤمن، حيث إن المؤمن إن أصابته ضراء فصبر فكان خيراً، وإن أصابته سراء فشكر كان خيراً.

وفي المسند عنه (والذي نفسي بيده لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له، وليس ذلك إلا للمؤمن).

وفي لفظ (إن أمر المؤمن كله عجيب، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وان أصابته ضراء صبر فكان خيرا له).

وفي لفظ لأحمد (عجبتُ للمؤمن، إن أصابه خير حمِد الله وشكر، وإن أصابته مصيبةٌ حمِد الله وصبر، فالمؤمن يُؤجرُ في كل أمرهِ، حتى في اللقمةِ يرفعُها إلى فيّ امرأته).

فالمؤمن في هذه الدنيا دائر بين نعمة ومصيبة، فالنعمة يقابلها بالشكر، والمصيبة يقابلها بالصبر، وهذا من أعظم علامات السعادة.

فالعبد لا ينفك عن هذه الأمور الثلاثة أبداً: إذا أذنب استغفر، وإذا أعطي شكر، وإذا ابتلي صبر.

قال ابن القيم: فإن هذه الثلاثة هي عنوان سعادة العبد، وعلامة فلاحه في دنياه وأخراه، ولا ينفك عبد عنها أبداً، فإن العبد دائم التقلب بين هذه الأطباق الثلاث:

الأولى: نعم من الله تعالى تترادف عليه فقيدها (الشكر) وهو مبني على ثلاثة أركان: الاعتراف بها باطناً، والتحدث بها ظاهراً، وتصريفها في مرضاة وليها ومسديها ومعطيها، فإذا فعل ذلك فقد شكرها مع تقصيره في شكرها.

الثانية: محن من الله تعالى يبتليه بها ففرضه فيها (الصبر) والتسلي، والصبر حبس النفس عن التسخط بالمقدور، وحبس اللسان عن الشكوى، وحبس الجوارح عن المعصية كاللطم وشق الثياب ونتف الشعر ونحوه، فمدار الصبر على هذه الأركان الثلاثة، فإذا قام به العبد كما ينبغي انقلبت المحنة في حقه منحة، واستحالت البلية عطية، وصار المكروه محبوباً.

فإن الله سبحانه وتعالى لم يبتله ليهلكه، وإنما ابتلاه ليمتحن صبره وعبوديته، فإن لله تعالى على العبد عبودية الضراء، وله عبودية عليه فيما يكره كما له عبودية فيما يحب، وأكثر الخلق يعطون العبودية فيما يحبون، والشأن في إعطاء العبودية في المكاره، ففيه تفاوت مراتب العباد وبحسبه كانت منازلهم عند الله تعالى. انتهى .

٢–وهذا تنبيه على أن المؤمن يجب أن لا يخلو زمانه عن أحد هذين الأمرين فإن جرى الوقت على ما يلائم طبعه ويوافق إرادته كان مشغولاً بالشكر، وإن جرى ما لا يلائم طبعه كان مشغولاً بالصبر.

قَالَ قَتَادَةُ: نِعْمَ الْعَبْدُ عَبْدٌ إِذَا ابْتُلِيَ صَبَرَ، وَإِذَا أُعْطِيَ شَكَرَ.

٣–الكافر –وبعض المسلمين– يجزع عند المصيبة من فقر ومرض وغيرهما، ويبطر عندما يحصل له خير من عافية وغنى وغيرهما، فهو معيب في كلا طرفي الابتلاء، فهو لا ينجح في الأمرين، إذ لا يشكر نعمة ولا يصبر على نقمة.

قال تعالى (لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ).

وَقَوْلِه تعالى في سورة الروم (وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ).

وَقَوْلِهِ فِيهَا أَيْضًا (وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ).

وَقَوْلِهِ تعالى فِي سُورَةِ يونس (وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ).

أما المؤمن الحق، فقد بيّن النبي ﷺ أنه بخلاف ذلك: يشكر عند السراء، ويصبر عند الضراء كما في حديث الباب .

٤-إن من أعظم أسباب الإيمان بالقضاء والقدر : اليقين بهذا الحديث.

قال ابن رجب: وممَّا يدعو المؤمن إلى الرِّضا بالقضاء تحقيقُ إيمانه بمعنى قول النَّبيِّ ﷺ (لا يقضي الله للمؤمن قضاءً إلا كان خيراً له: إنْ أصابته سرَّاء شكر، كان خيراً له، وإنْ أصابته ضرَّاء صبر، كان خيراً له، وليس ذلك إلا للمؤمن).

١٥ – باب النَّهْيِ عَنِ الْمَدْحِ إِذَا كَانَ فِيهِ إِفْرَاطٌ وَخِيفَ مِنْهُ فِتْنَةٌ عَلَى الْمَمْدُوحِ

عن أبي بكرة . قَالَ (مَدَحَ رَجُلٌ رَجُلاً عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ – فَقَالَ ﷺ « وَيْحَكَ قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ ».

مِرَارًا « إِذَا كَانَ أَحَدُكُمْ مَادِحًا صَاحِبَهُ لاَ مَحَالَةَ فَلْيَقُلْ أَحْسِبُ فُلاَنًا وَاللَّهُ حَسِيبُهُ وَلاَ أُزَكِّى عَلَى اللَّهِ أَحَدًا أَحْسِبُهُ إِنْ كَانَ يَعْلَمُ ذَاكَ كَذَا وَكَذَا) .

[٦٠٦١] .

عَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ (سَمِعَ النَّبِيُّ ﷺ رَجُلاً يُثْنِي عَلَى رَجُلٍ وَيُطْرِيهِ فِي الْمِدْحَةِ فَقَالَ لَقَدْ أَهْلَكْتُمْ أَوْ قَطَعْتُمْ ظَهْرَ الرَّجُلِ) .

[خ : ٢٦٦٣] .

عَنْ أَبِي مَعْمَرٍ قَالَ (قَامَ رَجُلٌ يُثْنِي عَلَى أَمِيرٍ مِنَ الأُمَرَاءِ فَجَعَلَ الْمِقْدَادُ يَحْثِي عَلَيْهِ التُّرَابَ، وَقَالَ: أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ نَحْثِيَ فِي وُجُوهِ الْمَدَّاحِينَ التُّرَابَ) .

وفي لفظ (إِذَا رَأَيْتُمُ الْمَدَّاحِينَ فَاحْثُوا فِي وُجُوهِهِمُ التُّرَابَ) .

==========

(سَمِعَ النَّبِيُّ ﷺ رَجُلاً يُثْنِي عَلَى رَجُلٍ وَيُطْرِيهِ فِي الْمِدْحَةِ) الإطْرَاء: المبالَغَةُ فِي المدْحِ.

(فَقَالَ أَهْلَكْتُمْ، أَوْ قَطَعْتُمْ – ظَهْرَ الرَّجُل) قال النووي: مَعْنَاهُ أَهْلَكْتُمُوهُ، وَهَذِهِ اِسْتِعَارَة مِنْ قَطْع الْعُنُق الَّذِي هُوَ الْقَتْل لِاشْتِرَاكِهِمَا فِي الْهَلَاك، لَكِنْ هَلَاك هَذَا الْمَمْدُوح فِي دِينه، وَقَدْ يَكُون مِنْ جِهَة الدُّنْيَا لِمَا يُشْتَبَه عَلَيْهِ مِنْ حَاله بِالْإِعْجَابِ.

(فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ وَيْحَكَ) هي كلمة ترحم، وتوجع، و"ويل" كلمة عذاب، وقد تأتي موضع "ويح" قاله في "الفتح".

(قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ) قال العيني: قطع العنق استعارة من قطع العنق الذي هو القتل؛ لاشتراكهما في الهلاك، لكن هذا الهلاك في الدين، وذاك من جهة الدنيا.

(إِنْ كَانَ أَحَدُكُمْ مَادِحًا لاَ مَحَالَةَ) أي: لا حيلة له في ترك ذلك، وهي بمعنى لا بُدّ.

(فَلْيَقُلْ أَحْسِبُ كَذَا وَكَذَا إِنْ كَانَ يُرَى أَنَّهُ كَذَلِكَ) بكسر السين المهملة، وفتحها، أي: أظنّ، وفي الرواية الأخرى (إن كان يعلم ذلك).

(**وَاللهِ حَسِيبُهُ**) بفتح أوله، وكسر ثانيه، وبعد التحتانية الساكنة موحّدة، أي: كافيه، ويَحْتَمِل أن يكون هنا فعيل، من الحساب؛ أي: محاسبه على عمله الذي يعلم حقيقته.

(**وَلاَ يُزَكِّي عَلَى اللهِ أَحَداً**) أَيْ: لَا أَقْطَع عَلَى عَاقِبَة أَحَد وَلَا ضَمِيره؛ لِأَنَّ ذَلِكَ مُغَيَّب عَنَّا، وَلَكِنْ أَحْسِب وَأَظُنّ لِوُجُودِ الظَّاهِر الْمُقْتَضِي لِذَلِكَ.

١-هذه الأحاديث فيها النهي عن المدح .

قال النووي: فَهَذِهِ الأَحَادِيثُ فِي النَّهْيِ، وَجَاءَ فِي الإِبَاحَةِ أَحَادِيثُ كَثِيرَةٌ صَحِيحَةٌ.

قَالَ العُلَمَاءُ: وَطَرِيقُ الجَمْعِ بَيْنَ الأَحَادِيثِ أَنْ يُقَالَ: إِنْ كَانَ المَمْدُوحُ عِنْدَهُ كَمَالُ إِيمَانٍ وَيَقِينٍ، وَرِيَاضَةُ نَفْسٍ، وَمَعْرِفَة تَامَّةٌ بِحَيْثُ لاَ يَفْتَتِنُ، وَلا يَغْتَرُّ بِذَلِكَ، وَلا تَلْعَبُ بِهِ نَفْسُهُ، فَلَيْسَ بِحَرَامٍ وَلا مَكْرُوهٍ، وإِنْ خِيفَ عَلَيْهِ شَيءٍ مِنْ هَذِهِ الأُمُورِ كُرِهَ مَدْحُهُ فِي وَجْهِهِ كَرَاهَةً شَدِيدَةً، وعَلَى هَذَا التَّفْصِيلِ تُنَزَّلُ الأَحاديثُ المختَلفَة فِي ذَلِكَ.

وَمِمَّا جَاءَ فِي الإِبَاحَةِ:

قَوْلُهُ ﷺ لأبي بَكْرٍ ﷺ:"أَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ "أَيْ: مِنَ الَّذِينَ يُدْعَوْنَ مِنْ جَمِيعِ أَبْوابِ الْجَنَّةِ لِدُخُولِهَا، وَفِي الحَدِيثِ الآخَرِ: "لَسْتَ مِنْهُمْ" أَيْ: لَسْتَ مِنَ الَّذِينَ يُسْبِلُونَ أُزُرَهُمْ خُيَلاءَ.

وَقَالَ ﷺ لِعُمَرَ ﷺ: (مَا رَآكَ الشَّيْطَانُ سَالِكاً فَجّا إلاَّ سلكَ فَجّاً غَيْرَ فَجّك).

وَالأَحَادِيثُ فِي الإِبَاحَةِ كَثِيرَةٌ، وَقَدْ ذَكَرْتُ جُمْلَةً مِنْ أَطْرَافِهَا فِي كتاب: "الأَذْكَار".

وقال في كتاب الأذكار: وأما أحاديث الإباحة فكثيرة لا تنحصر، ولكن نشير إلى أطراف منها؛ فمنها:

قوله ﷺ في الحديث الصحيح لأبي بكر ﷺ: "ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟ ".

وفي الحديث الآخر (ائذن له وبشره بالجنة).

وفي الحديث الآخر (اثبت أحد فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان).

وقال رسول الله ﷺ (دخلت الجنة فرأيت قصراً، فقلت: لمن هذا؟ قالوا: لعمر، فأردت أن أدخله، فذكرت غيرتك، فقال عمر ﷺ: بأبي وأمي يا رسول الله، أعليك أغار؟).

وفي الحديث الآخر (يا عمر ما لقيك الشيطان سالكاً مجالاً إلا سلك مجالاً غير فجك).

وفي الحديث الآخر (افتح لعثمان وبشره بالجنة).

وفي الحديث الآخر قال لعلي (أنت مني وأنا منك).

وفي الحديث الآخر قال لعلي (أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى؟).

وفي الحديث الآخر قال لبلال (سمعت دف نعليك في الجنة).

وفي الحديث الآخر قال لأبي بن كعب (ليهنأك العلم أبا المنذر).

وفي الحديث الآخر قال لعبد الله بن سلام (أنت على الإسلام حتى تموت).

وفي الحديث الآخر قال لأشج عبد القيس (إن فيك خصلتين يحبهما الله تعالى ورسوله: الحلم والأناة).

وكل هذه الأحاديث التي أشرت إليها في الصحيح مشهورة، فلهذا لم أضفها، ونظائر ما ذكرناه من مدحه ﷺ في الوجه كثيرة.

وأما مدح الصحابة والتابعين فمن بعدهم من العلماء والأئمة الذين يقتدى بهم ﷺ فأكثر من أن تحصر. (الأذكار)

وقال القرطبيّ رحمه اللهُ: وقد جاء عنه ﷺ أنَّه قال (إياكم والمدح، فإنَّه الذبح). رواه أحمد

ويعني بذلك كله أن الممدوح إذا أُكثر عليه من ذلك يُخاف عليه منه العُجب بنفسه، والكِبْر على غيره، فيهلك دينه بهاتين الكبيرتين، فإذًا المدح مظنة الهلاك الديني، فيحرم، لكن هذه المظنة لا تتحقّق إلا عند الإكثار منه، والإطراء به، وأما مع الندرة والقلّة فلا يكون مظنة، فيجوز ذلك إذا كان حقًّا في نفسه، ولم يقصد به الإطراء، وأُمِن على الممدوح الاغترار به، وعلى هذا يُحمل ما وقع للصحابة ﷺ من مَدْح بعضهم لبعض مشافهةً، ومكاتبةً، وقد مُدِح النبيّ ﷺ مشافهة نظمًا ونثرًا، ومَدَح هو أيضًا جماعة من أعيان أصحابه مشافهة، لكن ذلك كله إنما جاز لَمّا صحّت المقاصد، وأُمنت الآفات المذكورة. ... (المفهم)

وقال الحافظ: قَالَ اِبْن بَطَّال: حَاصِل النَّهْي: أَنَّ مَنْ أَفْرَطَ فِي مَدْح آخَر بِمَا لَيْسَ فِيهِ لَمْ يَأْمَن عَلَى الْمَمْدُوح الْعُجْب لِظَنِّهِ أَنَّهُ بِتِلْكَ الْمَنْزِلَة، فَرُبَّمَا ضَيَّعَ الْعَمَل وَالِازْدِيَاد مِنْ الْخَيْر اِتِّكَالًا عَلَى مَا وُصِفَ بِهِ .

وَقَالَ الْغَزَالِيّ فِي "الْإِحْيَاء": آفَة الْمَدْح فِي الْمَادِح أَنَّهُ قَدْ يَكْذِب، وَقَدْ يُرَائِي الْمَمْدُوح بِمَدْحِهِ، وَلَا سِيَّمَا إِنْ كَانَ فَاسِقًا أَوْ ظَالِماً.

٢-وقد روى الإمام أحمد عن مُعَاوِيَة ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : (إِيَّاكُمْ وَالتَّمَادُحَ فَإِنَّهُ الذَّبْحُ) .

قال المناوي : لما فيه من الآفة في دين المادح والممدوح، وسماه ذبحاً لأنه يميت القلب فيخرج من دينه، وفيه ذبح للممدوح فإنه يغره بأحواله ويغريه بالعجب والكبر ويرى نفسه أهلاً للمدحة سيما إذا كان من أبناء الدنيا أصحاب النفوس وعبيد الهوى، وفي رواية: (فإنه من الذبح) وذلك لأن المذبوح هو الذي يفتر عن العمل والمدح يوجب الفتور، أو لأن المدح يورث العجب والكبر وهو مهلك كالذبح، فلذلك شبه به. قال الغزالي رحمه الله: فمن صنع بك معروفاً فإن كان ممن يحب الشكر والثناء فلا تمدحه؛ لأن قضاء حقه أن لا تقره على الظلم، وطلبه للشكر ظلم، وإلا فأظهر شكره ليزداد رغبة في الخير . (فيض القدير)

٣- معنى قوله ﷺ (إِذَا رَأَيْتُمُ الْمَدَّاحِينَ، فَاحْثُوا فِي وُجُوهِهِمُ التُّرَاب).

قال النووي: هذَا الْحَدِيث قَدْ حَمَلَهُ عَلَى ظَاهِره الْمِقْدَاد الَّذِي هُوَ رَاوِيه، وَوَافَقَهُ طَائِفَة، وَكَانُوا يَحْثُونَ التُّرَاب فِي وَجْهه حَقِيقَة.

وَقَالَ آخَرُونَ: مَعْنَاهُ خَيِّبُوهُمْ، فَلَا تُعْطُوهُمْ شَيْئًا لِمَدْحِهِمْ.

وَقِيلَ: إِذَا مَدَحْتُمْ فَاذْكُرُوا أَنَّكُمْ مِنْ تُرَاب فَتَوَاضَعُوا وَلَا تُعْجَبُوا، وَهَذَا ضَعِيف. (شرح مسلم)

وقيل: إن معناه: أعطه، ولا تبخل عليه، فإنَّ مآل كل ما يعطى إلى التراب.

وقيل: معناه: التنبيه للممدوح على أن يتذكّر أن المبدأ والمنتهى التراب، فليعرضه على نفسه؛ لئلا يعجب بالمدح، وعلى المدّاح، لئلا يُفرط، ويُطري بالمدح.

تنبيه:

قال الخطابيّ: المداحون هم الذين اتخذوا مدح الناس عادة، وجعلوه بضاعة، يستأكلون به الممدوح، فأما من مَدَح الرجل على الفعل الحسن، والأمر المحمود، يكون منه ترغيبًا له في أمثاله، وتحريضًا للناس على الاقتداء في أشباهه، فليس بمداح.

٤ – قال النووي: اعلم أنَّ مدح الإنسان والثناءَ عليه بجميل صفاته قد يكون في حضور الممدوح، وقد يكون بغير حضوره، فأما الذي في غير حضورِه، فلا منعَ منه إلا أن يُجازف المادحُ ويدخل في الكذب، فيحرُم عليه بسبب الكذب لا لكونه مدحاً، ويُستحبُّ هذا المدح الذي لا كذبَ فيه إذا ترتب عليه مصلحةٌ ولم يجرّ إلى مفسدة بأن يبلغَ الممدوحَ فيفتتن به، أو غير ذلك.

٥ – **قال الغزاليّ** رحمه الله: والمدح يدخله ست آفات، أربع في المادح واثنتان في الممدوح:

فأما المادح:

فالأولى: أنه قد يفرط فينتهي به إلى الكذب . قال خالد بن معدان: من مدح إماماً أو أحداً بما ليس فيه على رؤوس الأشهاد بعثه الله يوم القيامة يتعثر بلسانه.

والثانية: أنه قد يدخله الرياء، فإنه بالمدح مظهر للحب وقد لا يكون مضمراً له ولا معتقداً لجميع ما يقوله فيصير به مرائياً منافقاً.
الثالثة: أنه قد يقول ما لا يتحققه ولا سبيل له إلى الاطلاع عليه.
الرابعة: أنه قد يفرح الممدوح وهو ظالم أو فاسق وذلك غير جائز، وقال الحسن: من دعا لظالم بطول البقاء فقد أحب أن يُعصى الله تعالى في أرضه، والظالم الفاسق ينبغي أن يذم ليغتم ولا يمدح ليفرح.
وأما الممدوح فيضره من وجهين:
أحدهما: أنه يحدث فيه كبراً وإعجاباً وهما مهلكان.
الثاني: هو أنه إذا أثنى عليه بالخير فرح به وفتر ورضي عن نفسه ومن أعجب بنفسه قل تشمره وإنما يتشمر للعمل من يرى نفسه مقصراً، فأما إذا انطلقت الألسن بالثناء عليه ظن أنه قد أدرك ولهذا قال ﷺ (قطعت عنق صاحبك لو سمعها ما أفلح). (الإحياء)
٦-ذمّ الإطراء في المدح، وأنه يُعتبر كقطع العنق في الهلاك، لأن به هلاك الدين، وهو أشدّ من هلاك الدنيا.
٧ - أنه إذا لم يكن للإنسان بُدّ من المدح، فليقل: أحسب فلانًا كذا وكذا، والله تعالى حسيبه، ولا أزكي على الله تعالى أحدًا.
٨ - من المدح المذموم مدح من لا يستحق المدح من الفساق.
فعن بريدة أن النبي ﷺ قال (لا تقولوا للمنافق: سيدنا؛ فإنه إن يك سيدَكم فقد أسخطتم ربكم عزَّ وجل). رواه أحمد
فائدة:
جاء في "كتاب الصمت" لابن أبي الدنيا: "أن عمر ﷺ سمع رجلاً يثني على رجلٍ، فقال له: أسافرتَ معه؟ فقال: لا، قال: هل خالطتَه؟ قال: لا، قال: والله الذي لا إله إلا هو، ما تعرفه.
ومن أمثال العرب في ذلك: "لا تهرف بما لا تعرِف.

١٦ - باب مُنَاوَلَةِ الأَكْبَرِ

عن ابن عمر . أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ (أَرَانِي فِي الْمَنَامِ أَتَسَوَّكُ بِسِوَاكٍ فَجَذَبَنِي رَجُلاَنِ أَحَدُهُمَا أَكْبَرُ مِنَ الآخَرِ فَنَاوَلْتُ السِّوَاكَ الأَصْغَرَ مِنْهُمَا فَقِيلَ لِي كَبِّرْ. فَدَفَعْتُهُ إِلَى الأَكْبَرِ) .

==========

(**أَرَانِي فِي الْمَنَامِ**) -بفتح الهمزة- من الرؤيا، والمعنى: أرى نفسي ، وللإسماعيليّ: "رأيت في المنام" .
(**فَنَاوَلْتُ السِّوَاكَ الأَصْغَرَ مِنْهُمَا**) أي : أعطيت السواك الأصغر .
(**فَقِيلَ لِي**) أي: قال جبريل، ففي رواية الطبراني في "الأوسط" قال: "أمرني جبريل أن أُكَبِّر"، وفي "الغيلانيات" بلفظ: "أن أقدم الأكابر"، وقد رواه أحمد، والإسماعيليّ، والبيهقيّ، بلفظ: "رأيت رسول الله ﷺ يستنّ، فأعطاه أكبر القوم، ثم قال: إن جبريل أمرني أن أكبّر".
فإن قيل: هذا يقتضي أن تكون القضية وقعت في اليقظة، وتلك الرواية صريحة أنها كانت في المنام، فكيف التوفيق؟ .
أجيب: بأن رواية اليقظة لما وقعت أخبرهم النبيّ ﷺ بما رآه في النوم، فحفظ بعض الرواة ما لم يحفظ الآخرون، ومما يشهد له ما رواه أبو داود بسنده عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: "كان رسول الله ﷺ يستنّ، وعنده رجلان أحدهما أكبر من الآخر، فأُوحي إليه في فضل السواك، أن كَبِّر، أعط السواك أكبرهما". وإسناده صحيح .
(**كَبِّرْ**) أي: قدّم الأكبر في السنّ .

(**فَدَفَعْتُهُ إِلَى الأَكْبَرِ**) منهما .

١-الحديث دليل على فضل السواك .

٢-الحديث دليل على تقديم الأكبر على الأصغر في السواك ومثله في الطعام والشراب والمشي والكلام .

٣-وإذا كان هذا الحديثُ رؤيا رآها ﷺ في منامه، فقد امتثل لذلك في الواقع واليقظة .

كما في الحديث المتفق على صحته حينما ذَهَبَ مُحَيِّصَةُ لِيَتَكَلَّمَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِمُحَيِّصَةَ: «كَبِّرْ كَبِّرْ»، يُرِيدُ السِّنَّ، فَتَكَلَّمَ حُوَيِّصَةُ، ثُمَّ تَكَلَّمَ مُحَيِّصَةُ .

وقد قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ في الحديث الصحيح الذي رواه أحمد وغيرُهُ : أَمَرَنِي جِبْرِيلُ أَنْ أُقَدِّمَ الأَكَابِرَ .

وهكذا نرى صاحبَ الشريعة ﷺ يقدمُ كبارَ السنِّ في كل شيء توقيراً لهم ومراعاة لسنهم، وهو الذي قال: "مَن لَم يَرحمْ صَغِيرنَا، ويَعرفْ حَق كَبيرِنَا فَليسَ مِنَّا" .

٤-**فإن قيل**: ما الجمع بين هذا الحديث وحديث (الأيمن فالأيمن).

قال المهلب: هذا ما لم يترتب القوم في الجلوس، فإذا ترتبوا فالسنة حينئذ تقديم الأيمن، قال الحافظ: وهو صحيح..

قال ابن عثيمين : هذه المسألة تخفى على بعض الناس ، فإذا لاقيت أحداً أو دخلت على أحد وتريد السلام (بالمصافحة) أو تقديم الشاي أو القهوة فإنك تبدأ بالأكبر؛ لأن النبي ﷺ كان بيده السواك وكان أمامه رجلان فأراد أن يناوله الأصغر فقيل له : كبِّر كبِّر ... بخلاف ما إذا كان عن يمينه صغير وعن يساره كبير وهو جالس بينهما فإنه يبدأ بالأيمن ولو كان صغيراً .

وعلى هذا فلو دخل المجلس فإنه يبدأ بالكبير ثم إذا أعطاه بدأ بمن عن يمينه هو(أي الداخل) وليس عن يمين الكبير.

١٧ - باب التَّثَبُّتِ فِي الْحَدِيثِ وَحُكْمِ كِتَابَةِ الْعِلْمِ

عن عروة . قال (كَانَ أَبُو هُرَيْرَةَ يُحَدِّثُ وَيَقُولُ اسْمَعِي يَا رَبَّةَ الْحُجْرَةِ اسْمَعِي يَا رَبَّةَ الْحُجْرَةِ. وَعَائِشَةُ تُصَلِّي فَلَمَّا قَضَتْ صَلاَتَهَا قَالَتْ لِعُرْوَةَ: أَلا تَسْمَعُ إِلَى هَذَا، وَمَقَالَتِهِ آنِفًا، إِنَّمَا كَانَ النَّبِيﷺ يُحَدِّثُ حَدِيثًا لَوْ عَدَّهُ الْعَادُّ لأَحْصَاهُ).

[خ : ٣٥٦٧] .

=========

(**عن عروة**) بن الزبير .

(**قال : كَانَ أَبُو هُرَيْرَةَ يُحَدِّثُ وَيَقُولُ اسْمَعِي يَا رَبَّةَ الْحُجْرَةِ**) يقصد عائشة، وغرض أبي هريرة ﷺ من ذلك تقوية أحاديثه بسماع عائشة -رضي الله عنها-، وتقريرها عليه، وقد حصل ذلك، فإنها ما أنكرت من حديثه شيئًا، وإنما أنكرت سَرْده الحديث فقط .

(**لَوْ عَدَّهُ الْعَادُّ**) أي: أحصاه المحصي بالعدد .

(**لأَحْصَاهُ**) أي: لو عدّ كلماته، أو مفرداته، أو حروفه لأطاق ذلك، وبلغ آخرها .

١-الحديث دليل على بيان كيف كان حديث النبي ﷺ : وهو المبالغة في التفهيم والإيضاح وعدم الإسراع .

قال ابن حجر: قوله: **(لو عده العاد لأحصاه)** أي لو عد كلماته أو مفرداته أو حروفه لأطاق ذلك وبلغ آخرها، والمراد بذلك المبالغة في الترتيل والتفهيم... وقوله: "لم يكن يسرد الحديث كسردكم" أي يتابع الحديث استعجالاً بعضه إثر بعض لئلا يلتبس على المستمع. زاد الإسماعيلي من رواية ابن المبارك عن يونس: إنما كان حديث رسول الله ﷺ فصلاً، فهماً تفهمه القلوب.

جاء عند البخاري (لم يكن يسرد الحديث كسردكم) أي: لم يكن يتابع الحديث استعجالًا؛ أي: كان يتكلم بكلام متتابع مفهوم واضح على سبيل التأني؛ لئلا يلتبس على المستمع .

قال الصنعاني : كان يحدث حديثًا، أي: لا يسرع فيه ولا يخلله السكتات فيقطعه بل يبالغ في إفصاحه وبيانه بحيث لو عده العاد لأحصاه، أي: لو عد كلماته أو حروفه لأدرك ذلك لوضوح ألفاظه وفصاحتها وبيانها، ومنه يؤخذ أنه يحسن الإبانة للحديث والإبلاغ في إفصاحه والأناة في التحدث .

كان كلامه ﷺ يسمع المنتبه ولا يزعج النَّائم:

عن المقداد ﷺ في حديثه الطويل (أن النبي ﷺ كان يَجِيء مِنَ اللَّيْلِ فَيُسَلِّمُ تَسْلِيمًا لَا يُوقِظُ نَائِمًا، وَيُسْمِعُ الْيَقْظَانَ) .

كان يتكلم ﷺ بكلام واضح مفهوم:

عن عائشة رضي الله عنها أيضًا، قَالتْ (إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمْ يَكُنْ يَسْرُدُ الحَدِيثَ كَسَرْدِكم). رواه البخاري

قال ابن حجر: لم يكن يسرد الحديث كسردكم أي يتابع الحديث استعجالاً بعضه إثر بعض لئلا يلتبس على المستمع .

كان كلامه ﷺ يحفظه كل من يسمعه:

للترمذي من حديث عائشة أيضًا، قالت: كان رسول الله ﷺ (كَانَ يَتَكَلَّمُ بِكَلَامٍ يُبَيِّنُهُ، فَصْلٌ، يَحْفَظُهُ مَنْ جَلَسَ إِلَيْهِ) رواه الترمذي

وجملة القول عن كلامه ﷺ :

قال ابن القيم- رحمه الله-: فكلامه ﷺ كله حكمة ورحمة، وعلم وهدى .

وقد قال ﷺ (أوتيت جوامع الكلم) .

قال ابن رجب- رحمه الله-: جوامع الكلم التي خص بها النبي ﷺ نوعان:

أحدهما: ما هو في القرآن.

والثاني: ما هو في كلامه ﷺ وهو موجود منتشر في السنن المأثورة عنه، وقد جمع العلماء جموعاً من كلماته الجامعة، فصنف الحافظ أبوبكر بن السني، كتاباً سماه: الإيجاز وجوامع الكلم من السنن المأثورة، وجمع القاضي أبو عبد الله القضاعي من جوامع الكلم الوجيزة كتاباً سماه: الشهاب في الحكم والآداب، وصنف على منواله قوم آخرون، فزادوا على ما ذكره زيادة كثيرة .

٢-استحباب التخلي عن فضول الكلام والاقتصار على القليل مع التوضيح والتبيين.

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ (لاَ تَكْتُبُوا عَنِّي وَمَنْ كَتَبَ عَنِّي غَيْرَ الْقُرْآنِ فَلْيَمْحُهُ وَحَدِّثُوا عَنِّي وَلاَ حَرَجَ وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ – قَالَ هَمَّامٌ أَحْسِبُهُ قَالَ – مُتَعَمِّدًا، فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ) .

==========

(**لاَ تَكْتُبُوا عَنِّي**) أي: غير القرآن بدليل ما بعده .

(**وَمَنْ كَتَبَ عَنِّي غَيْرَ الْقُرْآنِ فَلْيَمْحُهُ**) أي: ليمسحه؛ لئلا يختلط بالقرآن.

(**فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ**) أي: فليتخذ لنفسه منزلاً، يقال تبوأ الرجل المكان إذا اتخذه سكناً.

١-قوله (**لاَ تَكْتُبُوا عَنِّي وَمَنْ كَتَبَ عَنِّي غَيْرَ الْقُرْآنِ فَلْيَمْحُهُ**) .

جاءت نصوص كثيرة تحث على كتابة الحديث والعلم .

عن أبي هُرَيْرَةَ قال (مَا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ أَحَدٌ أَكْثَرَ حَدِيثاً عَنْهُ مِنِّي، إِلاَّ مَا كَانَ مِنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو فَإِنَّهُ كَانَ يَكْتُبُ وَلاَ أَكْتُب).

وقال ﷺ (اكتبوا لأبي شاه) .

وعن عبد الله بن عمرو قال (قلت يا رسول الله! أكتب كل ما أسمع منك؟ قال: نعم، قلت: في الرضا والغضب، قال: نعم، فإني لا أقول في ذلك إلا حقاً). رواه أبو داود

وفي حديث آخر قال له (اكتب، فوالذي نفسي بيده ما يخرج منه إلا حق).

وعَنْ أَبِي جُحَيْفَةَ قَالَ (قُلْتُ لِعَلِيٍّ هَلْ عِنْدَكُمْ كِتَابٌ قَالَ لاَ، إِلاَّ كِتَابُ اللَّهِ، أَوْ فَهْمٌ أُعْطِيَهُ رَجُلٌ مُسْلِمٌ، أَوْ مَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ. قَالَ قُلْتُ فَمَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ قَالَ الْعَقْلُ، وَفَكَاكُ الأَسِيرِ، وَلاَ يُقْتَلُ مُسْلِمٌ بِكَافِرٍ).

وكتب رسول الله ﷺ كتاب الصدقات والديات والفرائض والسنن.

وعن أنس. قال: قال رسول الله ﷺ (قيدوا العلم بالكتابة). رواه البخاري في الأدب المفرد

قال الضحاك: إذا سمعت شيئاً فاكتبه ولو في حائط.

وعن سعيد بن جبير قال: إنه كان يكون مع ابن عباس، فيسمع منه الحديث فيكتبه في واسطة الرحل، فإذا نزل نسخه.

وكان أنس يقول لبنيه: يا بني! قيدوا العلم بالكتابة.

وقال معاوية بن قرة: من لم يكتب العلم فلا تعدوه عالماً.

وقال الشعبي: لا تدعن شيئاً من العلم إلا كتبته، فهو خير لك من وضعه في الصحيفة، وإنك تحتاج إليه يوماً ما.

فإن قيل: ما الجواب عن حديث الباب (لا تكتبوا عني ...) ؟

فالجواب:

قيل: إن النهي خاص بوقت نزول القرآن خشية التباسه بغيره، والإذن في غير ذلك.

وقيل: أن النهي خاص بكتابة غير القرآن مع القرآن في شيء واحد والإذن في تفريقهما.

أو أن النهي متقدم والإذن ناسخ له عند الأمن من الالتباس.

وقيل: النهي خاص بمن خشي منه الاتكال على الكتابة دون الحفظ، والإذن لمن أمن منه ذلك.

وقد نقل النووي عن القاضي عياض أنه قال: كان بين السلف من الصحابة والتابعين اختلاف كثير في كتابة العلم، فكرهها كثيرون منهم، وأجازها أكثرهم، ثم أجمع المسلمون على جوازها وزال ذلك الخلاف.

قال ابن حجر: وَيُسْتَفَاد مِنْ قِصَّة أَبِي شَاه (أكتبوا لأبي شاه) أَنَّ النَّبِيّ ﷺ أَذِنَ فِي كِتَابَة الْحَدِيث عَنْهُ.

وَهُوَ يُعَارِض حَدِيث أَبِي سَعِيد الْخُدْرِيّ أَنَّ رَسُول اللَّه ﷺ قَالَ (لا تَكْتُبُوا عَنِّي شَيْئًا غَيْر الْقُرْآن). رَوَاهُ مُسْلِم

وَالْجَمْع بَيْنهمَا أَنَّ النَّهْي خَاصّ بِوَقْتِ نُزُول الْقُرْآن خَشْيَة اِلْتِبَاسه بِغَيْرِهِ، وَالإِذْن فِي غَيْر ذَلِكَ.

أَوْ أَنَّ النَّهْي خَاصّ بِكِتَابَةِ غَيْر الْقُرْآن مَعَ الْقُرْآن فِي شَيْء وَاحِد وَالإِذْن فِي تَفْرِيقهمَا.

أَوْ النَّهْي مُتَقَدِّم وَالإِذْن نَاسِخ لَهُ عِنْد الأَمْن مِنْ الِالْتِبَاس وَهُوَ أَقْرَبهَا مَعَ أَنَّهُ لا يُنَافِيهَا.

وَقِيلَ النَّهْي خَاصّ بِمَنْ خُشِيَ مِنْهُ الاتِّكَال عَلَى الْكِتَابَة دُون الْحِفْظ، وَالإِذْن لِمَنْ أُمِنَ مِنْهُ ذَلِكَ ..

قَالَ الْعُلَمَاء: كَرِهَ جَمَاعَة مِنْ الصَّحَابَة وَالتَّابِعِينَ كِتَابَة الْحَدِيث وَاسْتَحَبُّوا أَنْ يُؤْخَذ عَنْهُمْ حِفْظًا كَمَا أَخَذُوا حِفْظًا، لَكِنْ لَمَّا قَصُرَتْ الْهِمَم وَخَشِيَ الأَئِمَّة ضَيَاع الْعِلْم دَوَّنُوهُ. ... (فتح الباري)

قال ابنُ القيم –موضحًا هذا الأمر–: "قد صح عن النبي ﷺ النهي عن الكتابة والإذنُ فيها، والإذنُ متأخرٌ، فيكون ناسخًا لحديث النهي" .

٢-قوله (**وَحَدِّثُوا عَنِّي وَلاَ حَرَجَ**) .

إباحة الحديث عنه ﷺ وتبليغ ما سمع منه، وقد جاءت الآثار بالحض على التبليغ والأمر به.

٣-التحذير من التساهل عند الحديث عنه ﷺ مما لم يتحقق منه، والتنبيه على التحرز في ذلك لئلا يقع في الكذب .

٤-قوله (**وَمَنْ كَذَبَ عَلَي مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ**) .

الحديث دليل على تحريم الكذب على النبي ﷺ، وأن ذلك من الكبائر ، لأنه من أسباب دخول النار.

والفرق بين الكذب على الرسول ﷺ والكذب على غيره من وجهين:

أحدهما: أن الكذب عليه يكفر متعمده عند بعض أهل العلم، وهو الشيخ أبو محمد الجويني [والجمهور على أنه لا يكفر].

ثانياً: أن الكذب عليه كبيرة والكذب على غيره صغيرة فافترقا، وقد فرق النبي ﷺ بين الكذب عليه وبين الكذب على غيره في حديث المغيرة حيث يقول (إن كذباً عليّ ليس ككذب على أحد).

٥ – قوله ﷺ (فليتبوأ مقعده من النار) هو أمر بمعنى الخبر أو بمعنى التهديد، أو بمعنى التهكم، أو دعا على فاعل ذلك، أي: بوأه الله ذلك، وقال الكرماني: يحتمل أن يكون الأمر على حقيقته، والمعنى من كذب فليأمر نفسه بالتبوء ويلزم عليه كذا، قال: وأولها أولاها، فقد رواه أحمد بإسناد صحيح عن ابن عمر بلفظ (بني له بيت في النار).

عَنْ صُهَيْبٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ (كَانَ مَلِكٌ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ وَكَانَ لَهُ سَاحِرٌ، فَلَمَّا كَبِرَ قَالَ لِلْمَلِكِ: إِنِّي قَدْ كَبِرْتُ فَابْعَثْ إِلَيَّ غُلاَمًا أُعَلِّمْهُ السِّحْرَ. فَبَعَثَ إِلَيْهِ غُلاَمًا يُعَلِّمُهُ، فَكَانَ فِي طَرِيقِهِ إِذَا سَلَكَ رَاهِبٌ فَقَعَدَ إِلَيْهِ وَسَمِعَ كَلاَمَهُ فَأَعْجَبَهُ، فَكَانَ إِذَا أَتَى السَّاحِرَ مَرَّ بِالرَّاهِبِ وَقَعَدَ إِلَيْهِ فَإِذَا أَتَى السَّاحِرَ ضَرَبَهُ، فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى الرَّاهِبِ فَقَالَ: إِذَا خَشِيتَ السَّاحِرَ فَقُلْ: حَبَسَنِي أَهْلِي. وَإِذَا خَشِيتَ أَهْلَكَ فَقُلْ: حَبَسَنِي السَّاحِرُ. فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَتَى عَلَى دَابَّةٍ عَظِيمَةٍ قَدْ حَبَسَتِ النَّاسَ فَقَالَ الْيَوْمَ أَعْلَمُ آلسَّاحِرُ أَفْضَلُ أَمِ الرَّاهِبُ أَفْضَلُ، فَأَخَذَ حَجَرًا فَقَالَ اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ أَمْرُ الرَّاهِبِ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ أَمْرِ السَّاحِرِ فَاقْتُلْ هَذِهِ الدَّابَّةَ حَتَّى يَمْضِيَ النَّاسُ. فَرَمَاهَا فَقَتَلَهَا وَمَضَى النَّاسُ، فَأَتَى الرَّاهِبَ فَأَخْبَرَهُ فَقَالَ لَهُ الرَّاهِبُ: أَيْ بُنَيَّ أَنْتَ الْيَوْمَ أَفْضَلُ مِنِّي. قَدْ بَلَغَ مِنْ أَمْرِكَ مَا أَرَى وَإِنَّكَ سَتُبْتَلَى فَإِنِ ابْتُلِيتَ فَلاَ تَدُلَّ عَلَيَّ . وَكَانَ الْغُلاَمُ يُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَيُدَاوِي النَّاسَ مِنْ سَائِرِ الأَدْوَاءِ فَسَمِعَ جَلِيسٌ لِلْمَلِكِ كَانَ قَدْ عَمِيَ فَأَتَاهُ بِهَدَايَا كَثِيرَةٍ فَقَالَ مَا هَا هُنَا لَكَ أَجْمَعُ إِنْ أَنْتَ شَفَيْتَنِي، فَقَالَ: إِنِّي لاَ أَشْفِي أَحَدًا إِنَّمَا يَشْفِي اللَّهُ، فَإِنْ أَنْتَ آمَنْتَ بِاللَّهِ دَعَوْتُ اللَّهَ فَشَفَاكَ. فَآمَنَ بِاللَّهِ فَشَفَاهُ اللَّهُ فَأَتَى الْمَلِكَ فَجَلَسَ إِلَيْهِ كَمَا كَانَ يَجْلِسُ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَنْ رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ؟ قَالَ رَبِّي. قَالَ وَلَكَ رَبٌّ غَيْرِي؟ قَالَ: رَبِّي وَرَبُّكَ اللَّهُ. فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الْغُلاَمِ فَجِيءَ بِالْغُلاَمِ فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: أَيْ بُنَيَّ قَدْ بَلَغَ مِنْ سِحْرِكَ مَا تُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَتَفْعَلُ وَتَفْعَلُ . فَقَالَ: إِنِّي لاَ أَشْفِي أَحَدًا إِنَّمَا يَشْفِي اللَّهُ. فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الرَّاهِبِ فَجِيءَ بِالرَّاهِبِ فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ. فَأَبَى، فَدَعَا بِالْمِئْشَارِ فَوَضَعَ الْمِئْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ فَشَقَّهُ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ، ثُمَّ جِيءَ بِجَلِيسِ الْمَلِكِ فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ. فَأَبَى، فَوَضَعَ الْمِئْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ فَشَقَّهُ بِهِ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ، ثُمَّ جِيءَ بِالْغُلاَمِ فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ. فَأَبَى، فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ: اذْهَبُوا بِهِ إِلَى جَبَلِ كَذَا وَكَذَا فَاصْعَدُوا بِهِ الْجَبَلَ فَإِذَا بَلَغْتُمْ ذُرْوَتَهُ فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَإِلاَّ فَاطْرَحُوهُ، فَذَهَبُوا بِهِ فَصَعِدُوا بِهِ الْجَبَلَ فَقَالَ: اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ. فَرَجَفَ بِهِمُ الْجَبَلُ فَسَقَطُوا وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟ قَالَ: كَفَانِيهِمُ اللَّهُ. فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ: اذْهَبُوا بِهِ فَاحْمِلُوهُ فِي قُرْقُورٍ فَتَوَسَّطُوا بِهِ الْبَحْرَ فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَإِلاَّ فَاقْذِفُوهُ. فَذَهَبُوا بِهِ فَقَالَ: اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ. فَانْكَفَأَتْ بِهِمُ السَّفِينَةُ فَغَرِقُوا وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟ قَالَ: كَفَانِيهِمُ اللَّهُ. فَقَالَ لِلْمَلِكِ: إِنَّكَ لَسْتَ بِقَاتِلِي حَتَّى تَفْعَلَ مَا آمُرُكَ بِهِ. قَالَ وَمَا هُوَ؟ قَالَ: تَجْمَعُ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ وَتَصْلُبُنِي عَلَى جِذْعٍ، ثُمَّ خُذْ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِي، ثُمَّ ضَعِ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ، ثُمَّ قُلْ: بِاسْمِ اللَّهِ رَبِّ الْغُلاَمِ. ثُمَّ ارْمِنِي، فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ قَتَلْتَنِي. فَجَمَعَ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ وَصَلَبَهُ عَلَى جِذْعٍ ثُمَّ أَخَذَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ ثُمَّ وَضَعَ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ ثُمَّ قَالَ: بِاسْمِ اللَّهِ رَبِّ الْغُلاَمِ. ثُمَّ رَمَاهُ فَوَقَعَ السَّهْمُ فِي صُدْغِهِ فَوَضَعَ يَدَهُ فِي صُدْغِهِ فِي مَوْضِعِ السَّهْمِ فَمَاتَ، فَقَالَ النَّاسُ: آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلاَمِ آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلاَمِ آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلاَمِ. فَأُتِيَ الْمَلِكُ فَقِيلَ لَهُ: أَرَأَيْتَ مَا كُنْتَ تَحْذَرُ قَدْ وَاللَّهِ نَزَلَ بِكَ حَذَرُكَ قَدْ آمَنَ النَّاسُ. فَأَمَرَ بِالأُخْدُودِ فِي أَفْوَاهِ السِّكَكِ فَخُدَّتْ وَأَضْرَمَ النِّيرَانَ وَقَالَ: مَنْ لَمْ يَرْجِعْ عَنْ دِينِهِ فَأَحْمُوهُ فِيهَا. أَوْ قِيلَ لَهُ اقْتَحِمْ. فَفَعَلُوا حَتَّى جَاءَتِ امْرَأَةٌ وَمَعَهَا صَبِيٌّ لَهَا فَتَقَاعَسَتْ أَنْ تَقَعَ فِيهَا فَقَالَ لَهَا الْغُلاَمُ يَا أُمَّهِ اصْبِرِي فَإِنَّكِ عَلَى الْحَقِّ) .

==========

(كَانَ مَلِكٌ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ) في الأمم السابقة .

(وَكَانَ لَهُ) أي : لهذا الملك .

(سَاحِرٌ فَلَمَّا كَبِرَ قَالَ لِلْمَلِكِ إِنِّي قَدْ كَبِرْتُ) أي: فأخاف أن أموت، فينقطع عنكم هذا العلم .

(**فَابْعَثْ إِلَيَّ غُلاَمًا**) ذكياً فطناً .

(**فَكَانَ فِي طَرِيقِهِ إِذَا سَلَكَ**) أي: على طريق ذلك الغلام (إِذَا سَلَكَ) ذاهبًا إلى الساحر، ليتعلّم منه السحر .

(**رَاهِبٌ**) الراهب واحد رُهبان النصارى، وهو من اعتزل الناس إلى دَير طلبًا للعبادة .

(**فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ**) أي: ذلك الغلام (كَذَلِكَ) أي: مترّددًا بين أهله وبين الساحر والراهب .

(**قَدْ حَبَسَتِ النَّاسَ**) أي: منعت (النَّاسَ) عن المرور إلى حوائجهم .

(**فَقَالَ الْيَوْمَ أَعْلَمُ آلسَّاحِرُ أَفْضَلُ**) في الاتباع .

(**أَمِ الرَّاهِبُ أَفْضَلُ**) للاقتداء به .

(**فَرَمَاهَا فَقَتَلَهَا**) برمية واحدة، وهذه كرامة من الله تعالى للغلام، وللراهب أيضًا .

(**فَأَتَى الرَّاهِبَ فَأَخْبَرَهُ**) الخبر .

(**فَقَالَ لَهُ الرَّاهِبُ أَيْ بُنَيَّ أَنْتَ الْيَوْمَ أَفْضَلُ مِنِّي**) درجة ومنزلة عند الله تعالى؛ لأنه تعالى استجاب دعوتك، وأظهر كرامتك،

١–في الحديث إِثْبَات كَرَامَات الْأَوْلِيَاء .

٢–فِيهِ جَوَاز الْكَذِب فِي الْحَرْب وَنَحْوهَا .

٣–فِيه إِنْقَاذ النَّفْس مِنْ الْهَلَاك ، سَوَاء نَفْسه أَوْ نَفْس غَيْره مِمَّنْ لَهُ حُرْمَة .

٤–أن الله عز وجل قد يسلط أعداءه على أوليائه، فلا تستغرب إذا سلط الله الكفار على المؤمنين، فقتلوهم، وحرقوهم، وانتهكوا أعراضهم، فالله تعالى له في هذا حكمة، قال تعالى (ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْض) .

٥–أن هؤلاء الكفار لم يأخذوا على المسلمين بذنب إلا شيئًا واحدًا، وهو أنهم يؤمنون بالله العزيز الحميد، وهذا ليس بذنب، بل هذا هو الحق، ومن أنكره فهو الذي يُنكر عليه .

٦–الحديث دليل على شدة عداوة الكفار للمؤمنين، والسعي في صدهم عن دينهم، فإن الناس لما آمنوا فتنهم الكفار حتى يرجعوا عن دينهم.

كما قال تعالى (وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا).

وقال تعالى (وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ).

وقال تعالى (وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ).

٧ – الحديث دليل على عزة المؤمنين، وثباتهم على دينهم، وصبرهم على الابتلاء، وقد أثنى الله عليهم، وخلد ذكرهم في سورة البروج.

٨ – الحديث دليل على خطر دعاة الضلالة على الناس، وسعيهم في نشر الفساد بينهم، كما تجلى ذلك في حرص الساحر على بقاء علمه، مع ما في السحر من المحادة لأمر الله تعالى، والشر والضرر على الناس.

٩ – رحمة الله تعالى بعباده، حيث هيأ للغلام ذلك الراهب المؤمن، الذي كان على الدين الصحيح في ذلك الوقت – دين عيسى عليه السلام غير المحرف – فتعلم من الدين الحق، وسلم من فتنة الساحر وغوايته.

١٠ – لزوم توجيه الناس إلى خالقهم، وأن يغرس في نفوسهم أن النفع والضر هو بيد الله تعالى وحده دون من سواه، فلا يجوز أن تتعلق القلوب بغيره، ولذا لما سأل جليس الملك الأعمى الغلامَ أن يشفيه، قال الغلام: (إِنِّي لَا أَشْفِي أَحَدًا إِنَّمَا يَشْفِي اللَّهُ، فَإِنْ أَنْتَ آمَنْتَ بِاللَّهِ دَعَوْتُ اللَّهَ فَشَفَاكَ) فَآمَنَ بِاللَّهِ فَشَفَاهُ اللَّهُ.

١١ – أن الغلام أمر بقتل نفسه لأجل مصلحة ظهور الدين، ولهذا جوز الأئمة الأربعة أن يغمس المسلم في صف الكفار وإن غلب على ظنه أنهم يقتلونه إذا كان في ذلك مصلحة للمسلمين.

١٢ – تواضع العالم لتلميذه، وثناؤه عليه إذا استحق ذلك، ولكن بالقدر المناسب الذي يحفزه على النشاط في أمره، ولا يوقعه في الاغترار بما هو عليه.

١٣ – اقتضت سنة الله تعالى في عباده أن يبتليهم ويمتحنهم ليتميز الصادق من الكاذب، والمؤمن من المنافق.

قال الله تعالى (أَلم أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِين).

وقال تعالى (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيب).

١٤ – صدق الالتجاء إلى الله تعالى، بدعائه، والثقة بالإجابة، وذلك عندما قال الغلام (اللهم اكفنيهم بما شئت) فاستجاب الله له، ونجاه منهم.

١٥ – الإصرار على الدعوة، والحرص على إظهار الحق، وتبليغه للناس، ومقاومة الباطل.

١٦ – أن الحق ينتصر ويعلو، ويعتنقه الناس إذا اجتهد الداعون إليه في بيانه، وضحّوا في سبيله.

١٧ – أن من صور النصر العظيمة انتصار الإيمان، بالثبات عليه، والموت في سبيله؛ لأن العاقبة هي الفوز برضاء الله تعالى وجنته.

١٨ – تثبيت الله تعالى للمؤمنين، كما جرى للمرأة التي أرادت أن ترجع فأنطق الله تعالى صبيها، وقال: اصبري يا أماه، فإنك على الحق.

١٩ – عدم المساومة على قضية الإيمان، ولو كان الثمن هو النفس والنفيس، فالراهب وجليس الملك لم يرجعا عن دينهما ولو شُق كل واحد منهما إلى شقين.

٢٠ – الشدائد والمحن تصقل الإنسان، فيعرف بها شديد الإيمان.

٢١ – الابتلاء سنة ربانية لا تتخلف أبداً.

٢٢ – ينبغي للعبد أن لا يعرض نفسه للابتلاء والمحن، فالراهب طلب منه ألا يدل عليه، فلما ابتلي صبر حتى نشر بالمنشار.

٢٣ – إثبات الكرامة للأولياء، وليست بلازمة لكل ولي.

٢٤ – المعركة بين المؤمنين وأعدائهم أساسها حرب عقيدة.

٢٥– إيثار انتشار الدعوة إلى الله تعالى على الحياة الدنيا.

٢٦– على الدعاة أن يعملوا على خدمة الناس ومساعدتهم، فقد كان الهدف من قتل الدابة حل مشكلة الناس.

٢٧ – الشجاعة: الوصول إلى المراد وإن قُتلت.

وعن أبي اليسر. قال: قال ﷺ (مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِراً أَوْ وَضَعَ عَنْهُ أَظَلَّهُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ) .

=========

(**أنظر معسراً**) أي: أمهله في قضاء الدين.

(**وضع عنه**) أي تجاوز عن الدين أو بعضه.

١-الحديث دليل على أنه يستحب لصاحب الحق أن ييسر على المعسر إما بوضع بعض الدين وأن يحط منه أو إنظاره، وأن جزاء ذلك أن يظله الله في ظله .

فالتيسير على الموسر يكون بأمرين:

أولاً: بالحط والوضع عن بعض الدين.

ثانياً: إنظاره وتأجيله.

مثال: الدين قدره ألف ريال، فيحط منه فيقول أعطني ٨٠٠ ريال، فهذا يكفيني.

وقد جاءت الأدلة على استحباب التيسير على المعسر :

عن أبي هريرة. قال: قال رسول الله ﷺ (من نفس عن مسلم كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة) رواه مسلم.

وعَنْ أبي قَتَادَةَ ﷺ قَالَ: سمِعْتُ رسُول اللَّهِ ﷺ يقُولُ (مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُنَجِّيَهُ اللَّه مِنْ كُرَبِ يَوْمِ القِيَامَةِ، فَلْيُنَفِّسْ عَنْ مُعْسِرٍ أَوْ يَضَعْ عَنْهُ) رواهُ مسلمٌ.

وعنْ أبي هُريرةَ ﷺ أنَّ رَسُول اللَّهِ ﷺ قَالَ (كَانَ رجلٌ يُدايِنُ النَّاسَ، وَكَان يَقُولُ لِفَتَاهُ: إذا أَتَيْتَ مُعْسِراً فَتَجاوزْ عَنْهُ، لَعلَّ اللَّه أنْ يَتجاوزَ عنَّا فَلقِي اللَّه فَتَجاوَزَ عنْهُ) متفقٌ عَليهِ.

وعنْ أبي هُريرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رسُولُ اللَّه ﷺ (من أَنْظَرَ مُعْسِراً أَوْ وَضَعَ لَهُ، أظلَّهُ اللَّه يَوْمَ القِيامَةِ تَحْتَ ظِلِّ عَرْشِهِ يَوْمَ لا ظِلَّ إلاَّ ظِلُّهُ) رواهُ الترمذيّ .

قال ابن رجب: والتيسير على المعسر في الدنيا من جهة المال يكون بأحد أمرين:

إمّا بإنظاره إلى الميسرة : وذلك واجبٌ، كما قال تعالى (وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ).

وتارةً بالوضع عنه إن كان غريماً، وإلاّ فبإعطائه ما يزولُ به إعسارُه، وكلاهما له فضل عظيم.

فإنظار المعسر -الذي لا يجد ما يسدد- واجب .

فيجب إنظار المعسر، وتحرم مطالبته .

لقوله تعالى: (وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ) .

وقال الشيخ محمد بن عثيمين رحمه الله: "ومن فوائد الآية: وجوب إنظار المعسر، أي: إمهاله حتى يوسر، لقول الله تعالى: (فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ): فلا تجوز مطالبته بالدين، ولا طلب الدين منه .

وجاء في (الموسوعة الفقهية) وإن كان المدين معسِراً، وثبت ذلك: خلى سبيله، ووجب إنظاره؛ لقول الله تعالى: وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة .

وجاء فيها : لا يُلزم المعسِر بالاستدانة لقضاء دين غرمائه، لقوله تعالى: وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة ، ولما في ذلك من منّةٍ، ولأن الضرر لا يُزال بمثله، صرح بذلك المالكية والحنابلة، وقواعد غيرهم لا تأباه" . انتهى

٢-من فضائل إنظار المعسر أو الوضع عنه :

أولاً : أنه يكون في ظل الله .

للأحاديث السابقة .

ثانياً : أنه ينجيه الله من كرب يوم القيامة .

لحديث أبي قتادة –السابق– قَالَ: سَمِعْتُ رسُول اللَّهِ ﷺ يقُولُ (مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُنَجِّيَهُ اللَّه مِنْ كُرَبِ يَوْمِ القِيَامَةِ، فَلْيُنَفِّسْ عَنْ مُعْسِرٍ أَوْ يَضَعْ عَنْهُ) .

وعن أبي هريرة. قال: قال رسول الله ﷺ (من نفس عن مسلم كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة) رواه مسلم.

٣–إسقاط الدين كله أو بعضه أفضل من الإنظار .

لأن الإسقاط في الحقيقة هو إنظار وزيادة .

وعلى هذا دلت الآية الكريمة، وهي قوله تعالى: (وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ) .

قال القرطبي رحمه الله : ندب الله تعالى بهذه الألفاظ إلى الصدقة على المعسر، وجعل ذلك خيراً من إنظاره. قاله السدى وابن زيد والضحاك" . انتهى

وقال الشيخ ابن عثيمين في تفسير سورة البقرة :ومن فوائد الآية: فضيلة الإبراء من الدَّين، وأنه صدقة؛ لقوله تعالى: (وأن تصدقوا خير لكم) والإبراء سنة؛ والإنظار واجب؛ وهنا السنة أفضل من الواجب بنص القرآن؛ لقوله تعالى: (وأن تصدقوا خير لكم) ووجه ذلك أن الواجب ينتظم في السنة؛ لأن إبراء المعسر من الدَّين إنظار، وزيادة؛ وعلى هذا فيبطل إلغاز من ألغز بهذه المسألة، وقال: لنا سنة أفضل من الواجب، فيقال له: هذا إلغاز باطل؛ لأن هذه السنة مشتملة على الواجب؛ فهي واجب، وزيادة؛ وصدق الله، حيث قال في الحديث القدسي: ما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضت عليه" . انتهى

قال ابن كثير رحمه الله في تفسير الآية المذكورة: يأمر تعالى بالصبر على المعسر الذي لا يجد وفاء، فقال (وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَة ...) ثم يندب إلى الوضع عنه، ويعد على ذلك الخير والثواب الجزيل، فقال (وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) أي: وأن تتركوا رأس المال بالكلية وتضعوه عن المدين. وقد وردت الأحاديث من طرق متعددة عن النبي صلى الله عليه وسلم، بذلك" انتهى .

وعلى هذا ؛ فالأفضل إسقاط الدين كله أو بعضه عن المدين .

٤–قوله (**أَظَلَّهُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ**) .

اختلف العلماء في المراد في هذا الظل:

القول الأول: المراد في ظل عرشه.

وإلى هذا ذهب الطحاوي، وابن رجب، والقرطبي، وابن حجر، وهو ظاهر صنيع ابن منده، والسيوطي، وحافظ حكمي.

أ– ويدل عليه حديث سلمان عند سعيد بن منصور بإسناد حسن (سبعة يظلهم الله في ظل عرشه ...) وحسن إسناده ابن حجر، والعيني، والسيوطي.

ب– أن الظل جاء مضافاً إلى العرش في عدة أحاديث غير هذا:

كحديث (من أنظر معسراً أو وضع عنه، أظله الله يوم القيامة تحت ظل عرشه ...) رواه الترمذي.

وحديث (المتحابون في الله على منابر من نور في ظل العرش يوم لا ظل إلا ظله).

القول الثاني: المراد بالظل المضاف إلى الله في الحديث رحمته.

وإلى هذا ذهب ابن عبد البر في أحد قوليه، وذكره البغوي، والبيهقي وغيرهما.

وأصحاب هذا القول، منهم من يفسر الرحمة بدخول الجنة كابن عبد البر، ومنهم من يفسرها بالرعاية والكرامة والحماية، كما يقال: أسبل الأمير أو الوزير ظله على فلان، بمعنى الرعاية والحماية.

وممن فسرها بهذا: عيسى بن دينار، والبيهقي، والبغوي، والقاضي عياض.

القول الثالث: أن المراد بالظل في الحديث: ظل يخلقه الله، لأنه في ذلك الوقت لا يوجد شيء يظل الخلائق من الشمس، فلا بناء ولا شجر ولا رمال ولا حجر، إلا ما يخلقه الله تعالى.

وهذا اختيار الشيخ ابن عثيمين.

٥-الإسلام يحث على التعاطف والتراحم بين أفراد المجتمع .

وعن جابر ﷺ قَالَ : قَالَ رسُولُ الله ﷺ (لا تَدْعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ ؛ وَلاَ تَدعُوا عَلَى أوْلادِكُمْ ، وَلاَ تَدْعُوا عَلَى أموَالِكُمْ ، لا تُوافِقُوا مِنَ اللهِ سَاعَةً يُسألُ فِيهَا عَطَاءً فَيَسْتَجِيبَ لَكُمْ) .

==========

١-النهي عن الدعاء على النفس أو الأولاد أو المال بشيء من الضرر لئلا يصادف هذا الدعاء القبول.

٢-يحرم أن يدعو الإنسان على نفسه .

أ-لحديث الباب (لا تَدْعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ) .

ب-وقال ﷺ (لَا تَدْعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ إِلَّا بِخَيْرٍ فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ يُؤَمِّنُونَ عَلَى مَا تَقُولُونَ) رواه مسلم .

ج-عَنْ أَنَسٍ ﷺ (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَادَ رَجُلا مِنْ الْمُسْلِمِينَ قَدْ خَفَتَ ، فَصَارَ مِثْلَ الْفَرْخِ ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: هَلْ كُنْتَ تَدْعُو بِشَيْءٍ، أَوْ تَسْأَلُهُ إِيَّاهُ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، كُنْتُ أَقُولُ : اللَّهُمَّ مَا كُنْتَ مُعَاقِبِي بِهِ فِي الْآخِرَةِ فَعَجِّلْهُ لِي فِي الدُّنْيَا . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: سُبْحَانَ اللَّهِ ! لَا تُطِيقُهُ ، أَوْ لَا تَسْتَطِيعُهُ ، أَفَلَا قُلْتَ : اللَّهُمَّ آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ، وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً ، وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ . قَالَ : فَدَعَا اللَّهَ لَهُ ، فَشَفَاهُ) متفق عليه .

٣-قال تعالى (**وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً**) .

المراد بالإنسان هنا: الجنس، لوقوع هذا الدعاء من بعض أفراده، وهو دعاء الرجل على نفسه وولده عند الضجر بما لا يحب أن يستجاب له (دُعَاءهُ بالخير) أي: مثل دعائه لربه بالخير لنفسه ولأهله كطلب العافية والرزق ونحوهما، فلو استجاب الله دعاءه على نفسه بالشرّ هلك، لكنه لم يستجب تفضلاً منه ورحمة، ومثل ذلك (وَلَوْ يُعَجّلُ الله لِلنَّاسِ الشر استعجالهم بالخير).

وفي الحديث (لا تَدْعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وَلَا عَلَى أَمْوَالِكُمْ أَنْ تُوَافِقُوا مِنَ اللَّهِ ساعة إجابة يَسْتَجِيبُ فِيهَا) وَإِنَّمَا يَحْمِلُ ابْنَ آدَمَ عَلَى ذلك قلقه وعجلته.

قال القرطبي: قال ابن عباس وغيره: هو دعاء الرجل على نفسه وولده عند الضجر بما لا يحب أن يستجاب له: اللَّهُمَّ أهلكه، ونحوه.

(دُعَآءَهُ بالخير) أي كدعائه ربَّه أن يَهَب له العافية؛ فلو استجاب الله دعاءه على نفسه بالشر هلك لكن بفضله لا يستجيب له في ذلك، نظيره (وَلَوْ يُعَجّلُ الله لِلنَّاسِ الشر استعجالهم بالخير).

وقال الشنقيطي: فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ وَجْهَانِ مِنَ التَّفْسِيرِ لِلْعُلَمَاءِ، وَأَحَدُهُمَا يَشْهَدُ لَهُ قُرْآنٌ.

وَهُوَ أَنَّ مَعْنَى الْآيَةِ (وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ) كَأَنْ يَدْعُوَ عَلَى نَفْسِهِ أَوْ وَلَدِهِ بِالْهَلَاكِ عِنْدَ الضَّجَرِ مِنْ أَمْرٍ، فَيَقُولُ اللَّهُمَّ أَهْلِكْنِي، أَوْ أَهْلِكْ وَلَدِي، فَيَدْعُو بِالشَّرِّ دُعَاءً لَا يُحِبُّ أَنْ يُسْتَجَابَ لَهُ، وَقَوْلُهُ (دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ) أَيْ: يَدْعُو بِالشَّرِّ كَمَا يَدْعُو بِالْخَيْرِ فَيَقُولُ عِنْدَ الضَّجَرِ: اللَّهُمَّ أَهْلِكْ وَلَدِي، كَمَا يَقُولُ فِي غَيْرِ وَقْتِ الضَّجَرِ: اللَّهُمَّ عَافِهِ، وَنَحْوُ ذَلِكَ مِنَ الدُّعَاءِ.

وَلَوِ اسْتَجَابَ اللَّهُ دُعَاءَهُ بِالشَّرِّ لَهَلَكَ.

وَيَدُلُّ لِهَذَا الْمَعْنَى قَوْلُهُ تَعَالَى (وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ) أَيْ: لَوْ عَجَّلَ لَهُمُ الْإِجَابَةَ بِالشَّرِّ كَمَا يُعَجِّلُ لَهُمُ الْإِجَابَةَ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ : أَيْ لَهَلَكُوا وَمَاتُوا، فَالِاسْتِعْجَالُ بِمَعْنَى التَّعْجِيلِ.

وَيَدْخُلُ فِي دُعَاءِ الْإِنْسَانِ بِالشَّرِّ قَوْلُ النَّضِرِ بْنِ الْحَارِثِ الْعَبْدَرِيِّ (اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ).

وَمِمَّنْ فَسَّرَ الْآيَةَ الْكَرِيمَةَ بِمَا ذَكَرْنَا: ابْنُ عَبَّاسٍ، وَمُجَاهِدٌ، وَقَتَادَةُ، وَهُوَ أَصَحُّ التَّفْسِيرَيْنِ لِدَلَالَةِ آيَةِ يُونُسَ عَلَيْهِ. (الأضواء)

٤-أن للأزمنة خواصاً يتقبل الله فيها الدعاء، فيتحرى المؤمن الساعات المباركة بالدعاء.

٥-يكون دعاء المسلم دعاء خير ورحمة وعافية، لا دعاء عذاب وهلاك.

٦-ينبغي على العبد أن يحرص على كلامه وعباراته، ويزنها قبل أن يخرجها .

٢٠ – باب فِي حَدِيثِ الْهِجْرَةِ وَيُقَالُ لَهُ حَدِيثُ الرَّحْلِ

عن الْبَرَاء بْن عَازِب قال (جَاءَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ إِلَى أَبِي فِي مَنْزِلِهِ فَاشْتَرَى مِنْهُ رَحْلاً فَقَالَ لِعَازِبٍ: ابْعَثْ مَعِيَ ابْنَكَ يَحْمِلْهُ مَعِي إِلَى مَنْزِلِي، فَقَالَ لِي أَبِي: احْمِلْهُ. فَحَمَلْتُهُ وَخَرَجَ أَبِي مَعَهُ يَنْتَقِدُ ثَمَنَهُ فَقَالَ لَهُ أَبِي: يَا أَبَا بَكْرٍ؛ حَدِّثْنِي كَيْفَ صَنَعْتُمَا لَيْلَةَ سَرَيْتَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَ: نَعَمْ؛ أَسْرَيْنَا لَيْلَتَنَا كُلَّهَا حَتَّى قَامَ قَائِمُ الظَّهِيرَةِ وَخَلاَ الطَّرِيقُ فَلاَ يَمُرُّ فِيهِ أَحَدٌ حَتَّى رُفِعَتْ لَنَا صَخْرَةٌ طَوِيلَةٌ لَهَا ظِلٌّ لَمْ تَأْتِ عَلَيْهِ الشَّمْسُ بَعْدُ فَنَزَلْنَا عِنْدَهَا فَأَتَيْتُ الصَّخْرَةَ فَسَوَّيْتُ بِيَدِي مَكَانًا يَنَامُ فِيهِ النَّبِيّ ﷺ فِي ظِلِّهَا ثُمَّ بَسَطْتُ عَلَيْهِ فَرْوَةً ثُمَّ قُلْتُ: نَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَأَنَا أَنْفُضُ لَكَ مَا حَوْلَكَ، فَنَامَ وَخَرَجْتُ أَنْفُضُ مَا حَوْلَهُ فَإِذَا أَنَا بِرَاعِي غَنَمٍ مُقْبِلٍ بِغَنَمِهِ إِلَى الصَّخْرَةِ يُرِيدُ مِنْهَا الَّذِى أَرَدْنَا فَلَقِيتُهُ فَقُلْتُ: لِمَنْ أَنْتَ يَا غُلاَمُ؟ فَقَالَ: لِرَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ، قُلْتُ: أَفِي غَنَمِكَ لَبَنٌ؟ قَالَ: نَعَمْ. قُلْتُ: أَفَتَحْلُبُ لِي؟ قَالَ: نَعَمْ. فَأَخَذَ شَاةً فَقُلْتُ لَهُ: انْفُضِ الضَّرْعَ مِنَ الشَّعَرِ وَالتُّرَابِ وَالْقَذَى – قَالَ: فَرَأَيْتُ الْبَرَاءَ يَضْرِبُ بِيَدِهِ عَلَى الأُخْرَى يَنْفُضُ – فَحَلَبَ لِي فِي قَعْبٍ مَعَهُ كُثْبَةً مِنْ لَبَنٍ، قَالَ: وَمَعِي إِدَاوَةٌ أَرْتَوِي فِيهَا لِلنَّبِيِّ ﷺ لِيَشْرَبَ مِنْهَا وَيَتَوَضَّأَ – قَالَ – فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَكَرِهْتُ أَنْ أُوقِظَهُ مِنْ نَوْمِهِ فَوَافَقْتُهُ اسْتَيْقَظَ فَصَبَبْتُ عَلَى اللَّبَنِ مِنَ الْمَاءِ حَتَّى بَرَدَ أَسْفَلُهُ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ اشْرَبْ مِنْ هَذَا اللَّبَنِ – قَالَ – فَشَرِبَ حَتَّى رَضِيتُ ثُمَّ قَالَ «أَلَمْ يَأْنِ لِلرَّحِيلِ» قُلْتُ: بَلَى. قَالَ فَارْتَحَلْنَا بَعْدَ مَا زَالَتِ الشَّمْسُ وَاتَّبَعَنَا سُرَاقَةُ بْنُ مَالِكٍ – قَالَ – وَنَحْنُ فِي جَلَدٍ مِنَ الأَرْضِ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أُتِينَا، فَقَالَ «لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا». فَدَعَا عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَارْتَطَمَتْ فَرَسُهُ إِلَى بَطْنِهَا أُرَى، فَقَالَ: إِنِّي قَدْ عَلِمْتُ أَنَّكُمَا قَدْ دَعَوْتُمَا عَلَيَّ فَادْعُوَا لِي فَاللَّهُ لَكُمَا أَنْ أَرُدَّ عَنْكُمَا الطَّلَبَ. فَدَعَا اللَّهَ فَنَجَى فَرَجَعَ لاَ يَلْقَى أَحَدًا إِلاَّ قَالَ قَدْ كَفَيْتُكُمْ مَا هَا هُنَا فَلاَ يَلْقَى أَحَدًا إِلاَّ رَدَّهُ – قَالَ – وَوَفَى لَنَا) .

[خ : ٣٦١٥] .

==========

(**جَاءَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ إِلَى أَبِي**) وهو عازب .

(**فِي مَنْزِلِهِ فَاشْتَرَى مِنْهُ رَحْلاً**) بفتح الراء، وسكون الحاء المهملة: هو للناقة كالسرج للفرس .

(**فَقَالَ لِعَازِبٍ**) أي : فقال أبو بكر لعازب .

(**ابْعَثْ مَعِيَ ابْنَكَ**) البراء .

(**يَحْمِلُهُ**) أي : الرحْل .

(**وَخَرَجَ أَبِي مَعَهُ**) أي : مع أبي بكر .

(**يَنْتَقِدُ ثَمَنَهُ**) أي : يستوفيه .

(**أَسْرَيْنَا**) أي : سرينا .

(**لَيْلَتَنَا كُلَّهَا حَتَّى قَامَ قَائِمُ الظَّهِيرَةِ**) أي : نصف النهار .

(**وَخَلاَ الطَّرِيقُ**) أي: صار خاليًا عن مرور الناس .

(**فَأَتَيْتُ الصَّخْرَةَ فَسَوَّيْتُ بِيَدِي مَكَانًا يَنَامُ فِيهِ النَّبِي ﷺ فِي ظِلِّهَا**) هذا إشعار بزيادة الاهتمام في الخدمة.

(**ثُمَّ بَسَطْتُ عَلَيْهِ فَرْوَةً**) **قال النوويّ** رحمه الله: المراد: الفروة المعروفة التي تُلْبَس، هذا هو الصواب ، وذكر القاضي أن بعضهم قال: المراد بالفروة هنا الحشيش، فإنه يقال له: فروة، وهذا قول باطل، ومما يردّه قوله في رواية البخاريّ: "فروة معي"

(**فَحَلَبَ لِي فِي قَعْبٍ مَعَهُ**) بفتح القاف، وسكون العين؛ أي: في قدح من خشب مُقَعّر.

(**فَأَتَيْتُ النَّبِي ﷺ**) أي : باللبن .

(**فَشَرِبَ حَتَّى رَضِيتُ**) أي: طاب خاطري .

(**ثُمَّ قَالَ**) ﷺ .

(**أَلَمْ يَأْنِ لِلرَّحِيلِ**) أي : ألم يدخل وقت الرحيل؟

(**وَاتَّبَعَنَا سُرَاقَةُ بْنُ مَالِكٍ**) بضم السين، (ابْنُ مَالِكٍ) بن جُعشم الْمُدْلِجِيّ الكنانيّ، كان ينزل قُديدًا، وكان شاعرًا، مجيدًا، وكان من مُسلمة الفتح، ومات في خلافة عثمان – رضي الله عنهما – .

وفي رواية إسرائيل (فارتحلنا، والقوم يطلبوننا، فلم يدركنا غير سراقة بن مالك بن جعشم) .

(**قَالَ – وَنَحْنُ فِي جَلَدٍ مِنَ الأَرْضِ**) بفتحتين، أي: صُلب .

(**فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أُتِينَا**) أي: أدركنا العدوّ .

(**فَقَالَ « لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا»**) بتأييده ونصره .

(**فَدَعَا عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَارْتَطَمَتْ فَرَسُهُ إِلَى بَطْنِهَا**) أي: غاصت قوائمها كما تصوغ في الرمل .

(**أُرَى**) أظن .

(**فَقَالَ**) سراقة .

(**إِنِّي قَدْ عَلِمْتُ أَنَّكُمَا قَدْ دَعَوْتُمَا عَلَيَّ فَادْعُوَا لِي**) لينجّيني مما وقعت فيه .

(**فَرَجَعَ**) سراقة .

(**لاَ يَلْقَى أَحَدًا**) من المشركين .

(**وَوَفَى لَنَا**) أي: وفى سُراقة بما وعده لنا من ردّ المطلب.

١–فضيلة ظاهرة ومنقبة عظيمة لأبي بكر ، فهو صاحب النبي ﷺ في الهجرة .

٢-قوله (قَالَ لَهُ أَبِي يَا أَبَا بَكْرٍ حَدِّثْنِي كَيْفَ صَنَعْتُمَا لَيْلَةَ سَرَيْتَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ) فيه الحرص على أخذ السنة من فم معاصري الحدث والا فهو لا يخفى عليه من هجرة رسول الله ﷺ وما لاقاه هو وصاحبه .

٣-قوله (أَسْرَيْنَا لَيْلَتَنَا كُلَّهَا حَتَّى قَامَ قَائِمُ الظَّهِيرَة) دليل على كثرة ما مشيا وبذل الجهد للتمكين لدين الله .

٤-قوله (أَتَيْتُ الصَّخْرَةَ فَسَوَّيْتُ بِيَدِي مَكَانًا يَنَامُ فِيهِ النَّبِيُّ ﷺ فِي ظِلِّهَا) هنا ابو بكر الصديق ﷺ آثر براحته من أجل رسول الله ﷺ .

٥-حرص الصديق على نظافة اللبن الذى سيشرب منه رسول الله ﷺ وتبريد اللبن له .

٦-قوله (وَكَرِهْتُ أَنْ أُوقِظَهُ ﷺ) أدب كبير وعظيم من أبي بكر، وحرص على راحة النبي ﷺ .

٧- قوله (قَالَ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا) ثبات وثقة رسول الله ﷺ بربه وهو يهدئ من روع الصديق .

٨-معجزة ظاهرة للنبي ﷺ .

قال أبو العَّباسِ القُرطبيُّ : هذه من بَعضِ دَعَواتِ النَّبِيّ ﷺ المعَجَّلةِ الإجابةِ، وهي من الكَثرةِ بحيث تفوقُ الحَصْرَ، ويحصُلُ بمجموعِها القَطعُ بأنَّ الله تعالى قد أكرم مُحَمَّدًا ﷺ بإجابةِ دَعَواتِه، وأسعفه في كثيرٍ مِن طَلِباتِه، وكُلُّ ذلك يدُلُّ على مكانتِه، وصِدْقِ رِسالتِه).

وقال النووي: فيه مُعْجِزةٌ ظاهرةٌ لرَسولِ اللهِ ﷺ .

٩-خِدْمَة التَّابِع لِلْمَتْبُوعِ .

١٠- اِسْتِصْحَاب الزَّكْوَة وَالْإِبْرِيق وَنَحْوهمَا فِي السَّفَر لِلطَّهَارَةِ وَالشَّرَاب .

١١-فَضْل التَّوَكُّل عَلَى الله سُبْحَانه وَتَعَالَى وَحُسْن عَاقِبَته .

١٢-إذا اجتمع عليك الباطل، وكان الله معك فلا تحزن.

١٣ _ اثبات معية الله لأوليائه بحفظه وعلمه ورعايته.

١٤ _ الدعاء من أعظم اسلحة الدعاة.

١٥ _ الأخذ بالأسباب من التوكل على الله.

١٦-سبحان الله .. خرج سراقة لهما طالباً، ورجع وهو عنهما مدافعاً، فسبحان مقلب القلوب ... وسبحان من ينصر بالسبب وبدونه وبعكسه.